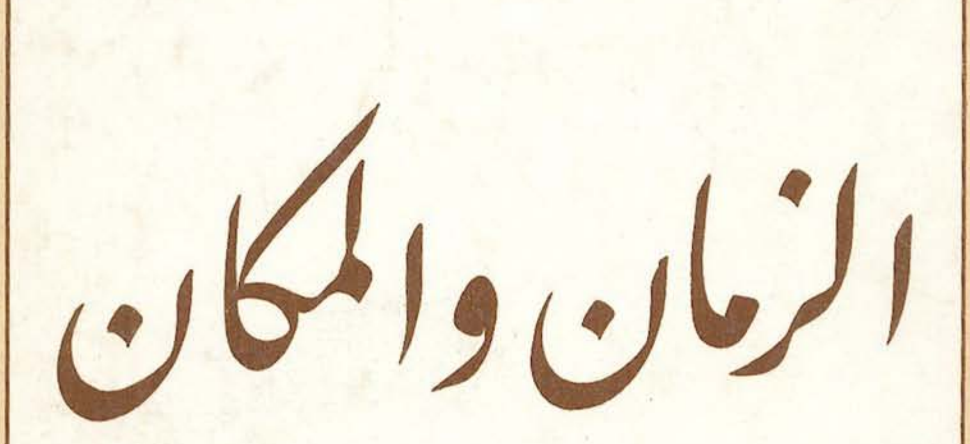


الزمان والمكان

تأليف:

شيخ الجماعة أحمد بن الزبير الثقفي

حققه وضبطه وقدم له وعلق عليه

محمد بن شريفة

الزمان والمكان

الزمان والمكان

تأليف:
شيخ الجماعة أحمد بن الزبير الثقفي

حققه وضبطه وقدم له وعلق عليه
محمد بن شريفة

الطبعة الأولى 1413 ــ 1993

مقدمة المحقق

كان القرن السابع الهجري قرن نكبات في العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها، ففي نهاية الربع الأول منه خرج التتر إلى البلاد الإسلامية المشرقية وعبروا نهر سيحون واجتاحوا بخارى وسمرقند ونيسابور واستولوا على بلخ وغيرها من بلاد خراسان ثم قصدوا بقيادة هولاكو بغداد دار الخلافة فدخلوها عام 656هـ وارتكبوا فيها من التقتيل والتخريب ما هو معروف «وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين، بعد أن كانت عاصمة للمسلمين»[1].

كما أن الصليبيين كانوا ينيخون بكلكلهم على عدد من المدن والحصون في أرض الشام.

أمّا في الغرب الإسلامي فإن هزيمة العقاب سنة 609هـ كانت مؤذنة بما تلاها من نكبات في شرق الأندلس وغربها ووسطها وتساقطت بسببها كبريات الحواضر والمدن الأندلسية.

ومن هذه المدن جيان التي كان يضرب بها المثل في الخصب والرخاء، وبينما كان أهلها ينعمون بخيراتها الكثيرة إذ صاح بهم صائح الرحيل فخرجوا من مدينتهم وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، وأنشد أحدهم عند خروجه منها :

أوّدعكم وأودعكم جنـاني[2] وأنثر عبرتي نثر الجمـان

وإنّي لا أريد لكم فراقاً ولكن هذا حكم الزمـان[3]

وقد تفرّق أهل جيان عباديد في بلاد الله — مثلهم مثل غيرهم من المدن الأندلسية الأخرى — فمنهم من طوّحت به الطوائح إلى المشرق كابن مالك الجيّاني الذي وجد في دمشق مستقرا ومُقاما، ومنهم من آوى إلى مملكة غرناطة التي اجتمع

(1) محاضرات الخضري، الدولة العباسية : 482 (الطبعة التاسعة).

(2) قرأها المستعرب ليفي بروفنسال : جياني وترجمها هكذا أيضا.

(3) الروض المعطار، ص 72 (بروفنسال) وص 184 (إحسان عباس).

فيها ما أسأره الخضم والقضم من الأندلس الكبرى[4].

وكان في هؤلاء الذين قصدوا غرناطة حسيب نسيب من أعيان جيان هو إبراهيم الثقفي وزوجه وولدُه أحمد، وكانت السيدة أم أحمد في آخر أيّام حملها، يقول ولدها هذا في ترجمة أخيه شقيقه عبد الله ما يلي : «ولد بغرناطة لسبع عشرة خلت من ذي قعدة سنة ثلاث وأربعين وستمائة بعد خروجنا من بلدنا جيان بستة عشر يوماً»[5].

ولم يكن مثال هذه الأسرة إلا واحداً من أمثلة لا تعدّ ولا تحصى من أهل الأندلس الذين غلبوا على أوطانهم وخرجوا من ديارهم، ولاشك في أن المحن التي حلت بالأندلسيين في هذا القرن كانت من هواجس أبي جعفر أحمد ابن الزبير منذ نشأته، وهي التي دفعته إلى التأمّل في مصير الإسلام ومستقبله وكانت من أسباب تأليف هذه الرسالة الفريدة.

ينتمي ابن الزبير إلى أسرة عربية أندلسية عريقة، فنسبه مرفوع إلى ثقيف، وجده الأعلى هو عاصم بن مسلم الداخل إلى الأندلس في طالعة بلج القشيري، وأخبار هذا الجدّ وذريته خلال العصر الأموي مذكورة في الحوليات وكتب الطبقات[6].

ويبدو أنّ بعض بني هؤلاء انتقلوا بعد فتنة قرطبة إلى جيان وغيرها، ولعلّ الزبير بن محمّد العاصمي جدّ أبي جعفر هو أول من نعرف أنه كان يعيش في جيان[7]، أما والده إبراهيم فقد ذكر ابن الخطيب أنه كان ذا ثراء وجدة، ويفهم من كلامه أنه استطاع أن يحمل معه ثروته أو قدراً منها عند خروجه من جيان سنة 643هـ[8].

كان أبو جعفر يومئذ في السادسة عشرة من عمره لأنه ولد في أواخر عام

---

(4) اللمحة البدرية : 32 ــ 33، ط. بيروت 1978.

(5) صلة الصلة، مخطوطة الخزانة التيمورية، وشقيق ابن الزبير عبد الله الذي ترجم به ترجمة جيدة له ترجمة أخرى في الإحاطة 3 : 419 ــ 420، ولا نعرف له أخا غيره.

(6) أكتفي هنا بالإحالة على بحث جيد للدكتورة ماريه ازابل فيرّه عنوانه : بنو عاصم الثقفي أسلاف ابن الزبير، القنطرة 1986.

(7) البيان المعرب (القسم الأخير).

(8) الإحاطة 1 : 188 ــ 189.

627هـ[9]، ويبدو أنه لم يكن عند والديه غيره حين خروجهم من جيان، وهذا ما يُسْتَنْتج من قول ابن الخطيب : «خرج به أبوه عند تغلّب العدوّ عليها (أي على جيان) عام ثلاثة وأربعين»[10]. ويبدو أنه كان في السنّ المذكورة قد انتهى من استظهار القرآن الكريم ولعلّه كان يشهد بعض الحلقات في الجامع الأعظم بجّيان، وهو يشير إلى شيء من هذا عندما يقول في ترجمة عيسى بن علي بن واصل : «قد أدركته ببلدنا وتعرفت أحواله، وتوفي رحمه الله بجيان في حدود سنة 637هـ وحضر جنازته الجماء الغفير وتفجّعوا عليه رحمه الله»[11].

أما مسيرة ابن الزبير العلمية فقد بدأت غداة وصول أهله إلى غرناطة التي لجأ إليها عدد من علماء المدن الضائعة، وقد ذكر ابن الخطيب أن ابن الزبير استعان بثروة أبيه على طلب العلم «وإرفادِ من أحوجته الأزمة في ذلك الزمان من جالية العلماء عن قرطبة وإشبيلية كأبي الحسن ابن الضّائع وغيره فنصحوا له وحطبوا في حبله»[12].

وكان أول شيخ قصده في غرناطة وفتح عليه كتاب متعلم هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بمَسْمَغور، وكان إمام وقته في القراءات السبع وما يتصل بالاقراء من تجويد وضبط وغير ذلك[13].

وكان أول من قصده في طلب الحديث بغرناطة هو أبو يحيى عبد الرحمن بن عبد المنعم المشهور بابن الفرس[14].

أما ابن الضائع[15] السالف الذكر فهو أستاذ ابن الزبير في النحو والأصول

---

(9) نفسه : 192.

(10) نفسه : 188.

(11) صلة الصلة : 55.

(12) الإحاطة 1 : 188 ــ 189.

(13) الذيل والتكملة 1 : 39 وانظر ترجمة مسمغور المذكور في الذيل والتكملة 6 : 83 ــ 84.

(14) عقد له ابن الزبير ترجمة حافلة توجد في القسم المخطوط من صلة الصلة أشار فيها إلى مكانته ومكانة أهل بيته في العلم والنباهة وذكر ما يدل على اختصاصه به.

(15) انظر ترجمة ابن الضائع ومصادرها في الذيل والتكملة 5 : 373 وترجمته أيضا موجودة في القسم المخطوط من صلة الصلة والإحاطة 4 : 120 ــ 122.

وعلم الكلام، ذكر في ترجمته أنه لازمه وقرأ عليه كتاب سيبويه والمستصفى للغزالي والتنقيحات للسهروردي والإرشاد للجويني[16].

ومن شيوخ ابن الزبير الكبار أبو الحسن الشارّي السبتي الذي استقر في سنة 648هـ بمالقة بعد تغريبه عن بلده سبتة فأفاد منه طلبة الأندلس لعلو روايته، وكان منهم ابن الزبير الذي يقول في ترجمته :

«ورحلت إليه فسمعت وقرأت كثيرا وتلوت عليه الكتاب العزيز وأقبلت إليه من حضره غرناطة مراراً إلى أن أدركته وفاته».

ويقول بعد هذا إن الشيخ كان «محبا في الحديث وأهله صابراً على التحديث، كان يجلس لنا بمالقة نهارَه كلّه إلاّ القليل وكنت أتلو عليه الكتاب العزيز ليلاً لاستغراق نهاره فيما ذكر»[17].

ومن أبرز شيوخ ابن الزبير أبو العباس أحمد ابن فرتون السلمي الفاسي لقيه في سبتة سنة 645هـ ودرس عليه الحديث والتاريخ وأخذ عنه كتابه في الاعلام المسمّى بالذيل، وقد نقل عنه كثيراً في صلة الصلة[18].

ومن شيوخه فاسي آخر هو أبو عبد الله محمد بن يحيى الصّدفي العبدري قرأ عليه العربية وأصول الفقه[19].

وقد توسع ابن الزبير في الرواية عن الشيوخ وتنقل في الأندلس للقائهم ورحل بسبب ذلك إلى سبتة واستجاز عدداً من العلماء من بلدان المغرب والمشرق، وقال إنّه استوفى ذكرهم في برنامج رواياته وهو مفقود، ولكن ابن عبد الملك استخرج عدداً منهم وسماهم في ترجمته، ورفع بعضهم عدد شيوخه إلى أربعمائة[20].

وقد كان لابن الزبير صلات واسعة بأهل عصره ويبدو هذا في صلته فمن ذلك ما يقوله في ترجمة ابن المرحل الشاعر : «صحبته في بعض أسفاري على ظهر

(16) صلة الصلة، مخطوطة الخزانة التيمورية.

(17) صلة الصلة : 151.

(18) جذوة الاقتباس : 56 (ط. فاس) نقلا عن القسم المفقود من صلة الصلة.

(19) صلة الصلة، القسم المخطوط، والذيل والتكملة 8 : 512.

(20) الديباج المذهب : 42.

البحر وبسبتة والجزيرة الخضراء وغرناطة»[21] ويقول في ترجمة الرندي الشاعر: «تكرّر لقائي إياه وقد أقام بمالقة أشهراً أيام اقرائي بها فكان لا يفارق مجالس إقرائي»[22].

إن الجهد الذي بذله ابن الزبير في طلب العلم لا يضاهيه إلا الجهد الذي بذله في إنفاقه إيّاه، وهذا ما جعل منه شيخ الجماعة في وقته.

يقول ابن الخطيب: «إليه انتهت الرياسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه والقيام بالتفسير والخوض في الأصلين»[23].

وقد درّس جميع هذه العلوم وخرّج فيها تلاميذ خلفوه في القيام عليها وألّف تآليف كثيرة ضاع جلها مع الأسف ولم يبق إلا بعضها، فأمّا التدريس فقد كان «عاكفاً عليه عامة نهاره مثابراً على إفادة العلم ونشره انفرد بذلك وصارت الرحلة إليه»[24] ويقول ابن الخطيب إنه كان «نسيج وحده في حسن التعليم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس لم تختل له ــ مع تخطي الثمانين ــ عادة ولا لحقته سآمة» وقد تخرج به جماعة كأبي حيان وابن الجياب وابن المحروق وابن بكّر وابن رويبل وابن أبي السداد وابن شبرين وابن جزي وابن أبي العاصي وآخرين كثيرين وكان للأستاذ في عدد منهم فراسة صادقة فكان منهم الأئمة والقضاة والأطباء والوزراء وغيرهم من أصحاب الخطط، وكان لابن الزبير إلى جانب أبنائه الروحيين أولاد من صُلبِهِ كان يحرص على تعليمهم وأخذ الإجازة لهم من شيوخ الأندلس وغيرها، وهؤلاء الأولاد الذين ذكرهم خلال بعض التراجم في صلة الصلة هم الزبير وعاصم ومحمد وإبراهيم، وقد ترجم ابن الخطيب والمقري لمحمد منهم وفي ترجمته أن والده «استجاز له الطمّ والرّمّ من أهل المغرب والمشرق» وأنه «رحل إلى العدوة والمشرق وأنه توفي عام 765هـ» وفي درة الحجال لابن القاضي ترجمة قصيرة للزبير جاء فيها أنه كان حيا بعد 700هـ وفيها ترجمة أخرى لأبي القاسم

(21) صلة الصلة، القسم المخطوط.

(22) نفسه.

(23) الإحاطة 1 : 189.

(24) الدرر الكامنة 1 : 85.

ابن أبي جعفر بن الزبير، ويبدو أنها ترجمة مكررة للزبير لأنه يكنى بأبي القاسم كما ورد في كتابه تذكرة أولى الألباب، في العمل بالاسطرلاب وقد ذكر الشيخ عبد الحي الكتاني ولداً آخر هو أبو الحسن علي وذكر أنه هو المعروف بابن الزبير الأصغر ولم يذكر مصدره في ذلك، واسم ابن الزبير الأصغر يرد كثيراً في درّة الحجال لابن القاضي.

أما تآليف ابن الزبير الباقية فهي متنوعة تنوع معارفه، فمنها في التاريخ والطبقات كتاب تاريخ علماء الأندلس المعروف بصلة الصلة الذي نشر إ.ل. بروفنسال ما وجده من القسم الأخير ثم نشرتُ تراجم الغرباء من النصف الثاني الموجود في مصر[25]؛ وهذا هو أول ما طبع من آثار ابن الزبير، وكتاب الإعلام، بمن خُتِم به القطر الأندلسي من الأعلام.

ويبدو أنه هو الذي يحيل عليه ابن الزبير في بعض التراجم كقوله في ترجمة ابن خروف الشاعر القرطبي : «ولابن خروف المذكور مع ظافر هذا قصّة ظريفة ذكرتها في غير هذا»[26] وقوله في ترجمة ابن برجان : «وامتحن رحمه الله بما ذكرته في غير هذا»[27].

ولا وجود اليوم لهذا الكتاب الذي خصّصه ابن الزبير لأعلام القرنين السادس والسابع وبسط فيه أخباراً وساق حكايات من مثل ما أشار إليه في صلة الصلة[28].

ويتصل بهذين الكتابين برنامج رواياته وجزء مشيخته وهما مفقودان الآن[29].

وألّف في التفسير وخدمة القرآن الكريم كتابين هما :

(25) انظر آخر السفر الثامن من الذيل والتكملة من ص 501 إلى ص 568.

(26) صلة الصلة : 114 — 115.

(27) انظر ترجمة عبد السلام ابن برجان في القسم المخطوط من صلة الصلة.

(28) ذكر بونس بويجس نقلا عن ف. قديرة (ص 316) أن هذا الكتاب كان موجودا بالقرويين، ويبدو أنه فقد فيما بعد أو أنه اشتبه على قديرة بصلة الصلة التي كانت موجودة فعلا بالخزانة المذكورة.

(29) الذيل والتكملة 1 : 42 — 43.

ـــ ملاك التأويل، القاطع بذوي الالحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل.

ـــ والبرهان، في ترتيب سور القرآن، وقد طبع الكتابان في السنوات الأخيرة.

وكان لهما قبول حسن لدى المشتغلين بالتفسير والدراسات القرآنية من تلاميذه وغيرهم كابن جزي وأبي حيان والزركشي.

ومن المعروف أن ابن الزبير كان شيخ المقرئين والمحدّثين في عصره ولكنه مثل بعض شيوخه شغل بإقراء القرآن[30] وتدريس الحديث وليس بالتأليف فيهما ولا نعرف له إلاّ تأليفاً وحيداً في الحديث هو كتاب إيضاح السبيل، من حديث جبريل، وهو كتاب ذكره ابن الزبير في كتابه البرهان، ويشير إليه الذين ترجموا له. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة نسخة من هذا الكتاب وهي بخط أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد ابن أبي السداد الباهلي، فرغ من نسخها عام 690هـ أي أنها انتسخت في حياة ابن الزبير، والناسخ ولد أحد تلاميذ ابن الزبير المبرزين[31]، وقد قرأ هذا الناسخ الكتاب في التاريخ المذكور على محمد بن أحمد ابن يوسف الهاشمي[32] الذي قرأه على مؤلفه وقابله معه على أصله.

ولابن الزبير إسهام في الأصول يتمثل في شرحه كتاب الإشارة لأبي الوليد الباجي[33]، ومتن الباجي مطبوع في تونس وكان من المتون التي تدرس في غرناطة، وذكر ابن حيان أنه درسه على الأستاذ العلامة أبي جعفر ابن الزبير وأشار إلى شرحه[34]، ويبدو أن هذا الشرح مفقود.

وقد ورد في بعض كتب التراجم أن لابن الزبير تعليقاً على كتاب سيبويه، وعناية ابن الزبير بالكتاب معروفة فقد قام بتدريسه في مالقة وغرناطة وخلّف

(30) ذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ، ج 4، ص 1484 أنه رأى إجازة ابن الزبير بالسّبْع لابن سهل وقد صدرها بخطبة فائقة الحسن من إنشائه.

(31) انظر ترجمة عبد الواحد ابن أبي السداد في الإحاطة 3 : 553.

(32) انظر ترجمته في الإحاطة 3 : 245 ـــ 248.

(33) وقع محقق ملاك التأويل في وهم بخصوص الباجي الشارح فهو أبو الوليد الباجي الأندلسي المعروف وليس الباجي الذي ذكره في ص 95.

(34) البحر المحيط 1 : 4.

طلبة درسوه في حياته وبعد مماته في مالقة وغرناطة، وسبق أن رأينا أنه كان ينفق على أستاذه ابن الضائع تلميذ الشلوبين وشارح الكتاب كما أنه تكفل بنقل أحد النحويين من مالقة إلى غرناطة وقام بأمره فيها وهو أبو الحسن علي بن محمد الخشني الأبذي وكان «من أهل المعرفة بكتاب سيبويه والواقفين على غوامضه»[35].

ومن أشهر من تخرج بابن الزبير في الكتاب أثير الدين أبو حيان، وقد صرّح بهذا في البحر المحيط والنضار وغيرهما من تآليفه، قال في النضار : «وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية»[36] ونوّه به وأشاد بذكره في مطولته المشهورة في مدح علم النحو والكتاب وفضل أهل الأندلس في القيام به، وأول القصيدة :

هو العلم لا كالعلم شيءٌ تراوده   لقد فاز باغيه وأنجح قاصده

وختم هذه المطولة التي تزيد على مائة بيت بسبعة عشر بيتا في مدح شيخه ومنها :

جزى الله عنا شيخنا وإمامنا   وأستاذنا الحبر الذي عم فائده
لقد أطلعت جيان أوحد عصره   فللغرب فخر أعجز الشرق خالِدُه

إلى أن يقول :

فلولاك يا مولاي ما فاه مقولي   بِمِصْرٍ ولا حبرت ما أنا ناضِدُهْ
لهذبتني حتّى أحوك مفوّفاً   من النظم لا يَبْلَى على الدهر آبِدُهْ
وأذكيت فكري بعد ما كان خامداً   وقيّد شعري بعد ما ندّ شارده
جعلت ختاماً فيه ذكرك إنه   هو المسك بل أغْلَى وإنّ عز ناشده[37]

وقد كان أبو حيّان شديد التعصب لشيخه ابن الزبير وكان انتصاره له سببا في هجرته إلى مصر[38]، وظل يذكره ويكاتبه «ونادى في الناس عندما بلغه نعيه

---

(35) صلة الصلة، القسم المخطوط.

(36) نقلا عن بغية الوعاة (ترجمة ابن الزبير).

(37) وردت هذه القصيدة في الإحاطة 3 : 50 — 56 وفيها تحريفات كما هو الشأن في سائر طبعتها المعروفة غفر الله لصاحبها، وتوجد القصيدة أيضا في روضة الاعلام لابن الأزرق.

(38) الإحاطة 3 : 46 — 47 وليصحح الخطأ الذي وقع فيه محقق البرهان (162) فإنه لم يحسن قراءة كلام ابن الخطيب، ومؤداه أن «وحشة» وقعت بين ابن الزبير وابن الطبّاع فتصدى أبو حيان للردّ على هذا الأخير فشكاه للسلطان الذي أمر بالتنكيل بأبي حيان فهرب.

وصلى عليه بالقاهرة»[39].

ومن أغرب تآليف ابن الزبير تقييد حفظ لنا البقنّي نُبْذَةً منه في مختصر الإحاطة المحفوظ بالاسكوريال، وهو تقييد حسن «ساير فيه طبقات الأمم لصاعد فنقص منها وزاد في بعض أسماء رجالها حكايات وأخبارا» وقد نشرت النبذة المذكورة من التقييد أخيراً في مجلة القنطرة[40] وهي تتعلق بفلاسفة اليونان وهذا يدلّ على رحابة أفق ابن الزبير وسعة اطّلاعه واقتدائه في هذا الصنيع بسلفه القاضي صاعد.

ولابن الزبير تآليف وضعها دفاعاً عن الإسلام وتحريكاً لهِمَم المسلمين، وهي تدلّ على أن التدريس الذي كان يعمر به عامة نهاره في مالقة وَغرناطة لم يشغله عن التطوّع بالحسبة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونرى تلميذهُ ابن حيان يستعمل صيغة المبالغة إذ يصفه بهذا فيقول : «كان أمّاراً بالمعروف نهّاء عن المنكر»[41] ويذكرُ أنّه «جرت له في ذلك أمور مع الملوك صبر فيها ونطق بالحق. بحيث أدت إلى التضييق عليه وحبسه»[42].

وربما يكون من المفيد أن نعرض لبعض القضايا التي واجهها وعالجها في تآليفه هذه، ولعلّ أولها قضية إبراهيم الفزاري، وقد بسط خبرها وما حصل لأبي جعفر فيها كل من ابن الخطيب في الإحاطة[43] والأزدي في تحفة المغترب[44] وابن حجر في الدرر الكامنة[45] والشاطبي في الاعتصام[46].

ويبدو أن ذلك الممخرق السّاحر الذي ادعى المهدوية ثم النبوة كان دسيساً على المسلمين لإثارة الفتنة بينهم في مالقة وإحداث الشّقاق بين بني اشقيلولة وبني نصر، وقد وصل إلى شيء من هذا في أول أمره وقام في وجهه أهل المعرفة والدّين

---

(39) المصدر نفسه : 44.

(40) العدد السادس (1985).

(41) بغية الوعاة : 126 — 127.

(42) المصدر نفسه.

(43) الإحاطة 1 : 191 — 192.

(44) تحفة المغترب : 81 — 82.

(45) الدرر الكامنة 1 : 85 — 86.

(46) الاعتصام 2 : 263.

وأشهرهم يومئذ أبو محمد عبد العظيم ابن الشيخ[47] وابن الزبير وابن الأحوص[48] والولي الصالح أبو مروان اليحانسي[49] ولكنه استظهر عليهم بحُماته بني اشقيلولة «وكذب عليهم عندهم وأرّش، وغير جانبهم عليهم وحرش»[50] فمنهم من أُهين وضرب ومنهم من هرب كابن أبي الأحوص وابن الزبير وأبي مروان، و لم يسلَمْ منه إلا أبو محمد ابن الشيخ لأنه «كان مهيب الجانب مسموع القول ببلده»[51].

ويظهر أن نكير ابن الزبير على هذا المدّعى كان قويا وفعّالاً، ولذلك كانت محنته شديدة، يقول ابن الخطيب إنه لما بلغه خبر القبض عليه «فَرّ لوَجْهه وكُبِس منزلُه لحينه فاستولت الأيدي على دخائر كتبه وفوائد تقييده عن شيوخه على ما طالت له الحسرة وجلّت فيه الرزية ولحق بغرناطة آويا إلى كنف سلطانها الأمير أبي عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر فأكرم مثواه وعرف حقه»[52] وقد عجل الحق سبحانه انصافه من هذا الساحر الماكر وجعل نهايته على يده، فقد سَعَى إلى حتفه بظلفه إذ قدم رسولاً من ابن اشقيلولة في مالقة إلى السلطان ابن نصر في غرناطة وسعى ابن الزبير في طلبه من باب الشرع وإقامة الحد عليه فقتل على يده.

---

(47) هو من شيوخ ابن الزبير قال في الصلة : «صحبته رحمه الله مدة ثلاثة أعوام وأخذت عنه مسائل من مستصفى أبي حامد ممّا كان له فيه اختيار أو مفهوم مّا وقرأت عليه أشياء خلال تلك المدّة من الأصول وغيرها» انظر ترجمة في صلة الصلة : 34 ـــ 36 والتكملة رقم 2190.

(48) جاء في تحفة المغترب : «وكان يتوعّد الشيخ وأصحابه والطلبة بالقتل الذريع، وكثر الكلام بذلك والتشنيع، إلى أن هرب بسببه ابن الأحوص خطيب القصبة» والمقصود به هو الحسين بن عبد العزيز ابن أبي الأحوص وترجمته في الإحاطة 1 : 463 ـــ 465.

(49) أقرأ في أخباره كتاب تحفة المغترب.

(50) تحفة المغترب : 81.

(51) صلة الصلة : 35.

(52) الإحاطة 1 : 191 ولا نعرف لماذا كان ابن الزبير مستقرا في مالقة يومئذ ويفهم من قول ابن الخطيب : نشأت بينه وبين ابن اشقيلولة وحشة، أنه كانت له به صلة قبل الوحشة، ويبدو أن حادثة الفزاري وابن الزبير لها صلة قوية بالصراع الذي نشب بين الأسرتين الجيانيتين والذي انتهى بانتصار بني نصر على بني اشقيلولة.

إن هذه الحادثة التي زعزعت عقيدة عدد من العوام وبعض الطلبة[53] حفزت أبا جعفر على تأليف كتابه : «إيضاح السبيل، من حديث جبريل» وهو الذي يسأل فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان بقصد تعليم المسلمين أمر دينهم، وفي مقدمة هذا الشرح إشارة إلى حادثة الفزاري التي أوقفت الدروس التي كان ابن الزبير يلقيها بمالقة في صحيح الإمام مسلم وهي قوله : «ولم نزل في رياض من الوحي رائقة، ذات ظلال ممدودة وفروع باسقة، إلى أن استحوذ اللعينُ فأذّن : «لأغوينهم»، وأجاب مترفوها داعي : «وإذا أمَرْنا»، فلم يعنوا برعي ما عَلَيْهِم شرعا وما لهم، وأمكن إذ ذاك من أضمر للشريعة حقدا، واستوجب من الله سبحانه نكالاً وبعدا، أن تقوّل بما شاء، وتسبّب بما ساء، ولقد أساء، فألقى ما توهّمَ تخييلا، مما وجد بالقائه إلى إحياء بدعته سبيلا، فنبذت الصّحيفة ولا صحيفة المتلمس، وقيل لي استعجل جهدك فإن المومن كما قد علمت حَذرٌ كيّس، وحيل بيني وبين كتبي ومالي، وبقيت ولم أحل رمسي مرتهناً بأعمالي، في ركابٍ كابٍ، ومنابٍ نابٍ، ضل سبيلُه، وعمي دليله، ولا ذنب إلا الذب عن الشريعة، والاعتصام بعواصم ذراها المنيعة، فأقسم لولا العطف الربّاني، بذوي المعتقد الإيماني، لأصبحت لقيً بتلك الفيافي، ولكنت ممن يحشر من شِعاب الأودية وبطون العوافي، ويا ويح من تَقْرَبُه الذئاب، وتُسْرِع سباع الطير وهوام الوحش من كلّ جوٍّ وحدب إلى مأدُبته بكُلِّ الانصباب والانسياب، يتعايَرْن عند النَهْش، ويُسارِعْن عند التعاقب في النّبْش، وكأنهن في تدقيق تلك الأجزا، يرمْن الوقوف على حقيقة الجزء الذي لا يتجزّا، فيبالغن لذلك في القسْم، ويُفَرّقْنَهُ إلى أقصى غايةٍ حتّى بالوهم، فنجّانِي من صَرِيح ذلك الضّرِيح، وصفيح تلك المهامه الفيح، من نجّى الخليل من النّار، وفلَق للكليم طامِيَ البحر الزخّار، وأجاب زكرياء واهباً، ونجّى ذا النّون من الهمِّ إذْ ذهب مغاضِبا، وتداركَني برحمته، وشملني بألطاف فضله ونعمته، فسكَنَ الرّوع وزال الحذَر، وآب إليّ الثّنْيان السَّمع والبصر، وانْجَلَى من همي كل ملتبس، ونوديت انتعاشاً : حُطّ رحلك قَدْ عوفيت ونجوت من ملتمس، فلما انزاح عن النفس ما كان بها من الجوى، وألقت عصاها واستقرّ بها النّوى، جرى الكلام

(53) يقول الشاطبي : «ولقد سمعت بعض طلبة ذلك البلد.. آخذا ينظر في قوله تعالى : ﴿وخاتم النبيين﴾ وهل يمكن تأويله وجعل يطرّق إليه الاحتمالات ليسوغ إمكان بعث نبي بعد محمد ﷺ»، الاعتصام 2 : 263.

في بعض ما وردَ في الآثار، وما انطوت عليه من العجائب النبوية والأحكام الدينية مُتون تلك الأخبار، مع الإيجاز، وفصل ما بين الحقيقة والمجاز، حتى كانت كما أخبر الشارع عليه السلام بيانا، ولما وقع في الكتاب المنزل تبياناً»(54).

والقضية الثّانية التي ألف فيها ابن الزبير هي قضية التصوف المتفلسف أو المنحرف كما كان يراه، وإذا كانت القضية السابقة انتهت بإقامة الحدّ على الفزاري فإن هذه القضية الثانية كانت شغله الشاغل طوال حياته، ولا يماثلها في ذلك عنده إلاّ قضية مستقبل الإسلام التي سنعرض لها بعد قليل. وجميع هذه القضايا الثلاث نشأت من ضعف المسلمين في الأندلس وبدأتْ بعد تفرّق كلمتهم، وتمزّق جماعتهم فظهرت طوائف صوفية في غرب الأندلس وشرقها، كان منها المتقيدة بالكتاب والسنة كما كان فيها طوائف مبتدعة أو متفلسفة، وأشهر هذه الطوائف الأخيرة الطائفة الشوذية، وقد ذكر ابن الزبير عدداً من أعلام التصوّف السني في «صلته» ونوّه بهم وأشاد بذكرهم ومنهم أبو الحسن علي بن غالب وتلميذه عبد الجليل القصري وفي هذا الأخير يقول ابن الزبير : «وهو آخر من ختم به بالمغرب باب التصوف على الطريقة الواضحة المقيدة بالكتاب والسنة»(55).

أما أصحاب التصوف المتفلسف فقد تصدى لهم وتحمس في الرد عليهم ونقد مذهبهم وألّف في ذلك كتابين : أحدهما هو : «كتاب ردع الجاهل، عن اعتساف المجاهل، في الرّدّ على الشوذية، وإبداء غوائلها الخفية» والثّاني هو عبارة عن أرجوزة بين فيها مذهبهم، وممّا يؤسف له أن الكتابين مفقودان الآن، وقد أشار ابن الزبير إليهما خلال تعريفه بابن أحلى في كتاب صلة الصلة وقال : «وقد بسطت القول فيه في كتاب ردع الجاهل، عن اعتساف المجاهل وفي رجز طويل أوضحت فيه أصل المذهب المسمى عند ابن أحلى : التحقيق وفي غير ذلك، والله ينفع القصد بمنه»(56).

وتقع ترجمة ابن أحلى المذكورة في القسم الأول من صلة الصلة وهو مفقود،

---

(54) إيضاح السبيل : 2 مصورة خاصة.

(55) صلة الصلة : 31.

(56) الذيل والتكملة 6 : 436 ــ 437.

ولكن ابن عبد الملك أورد معظمها في الذيل والتكملة[57]، ويستفاد ممّا ورد فيها وممّا ورد في ترجمة ابن مطرف الجذامي[58] وما جاء في ملاك التأويل[59] أن أتباع الشوذي كانوا يقولون بتحليل الخمر وزواج المتعة والتزوّج بأكثر من أربع وسقوط التكاليف الشرعية عمن بلغ درجة العلماء وكانوا يقولون أيضا بأن الرسل عليهم السلام غير معصومين من الكفر إطلاقاً ويذهبون إلى أن الأمة غيّرت وبدلت وينكرون الحديث.

وكان المنتظر من ابن عبد الملك الذي وقف على كتابي ابن الزبير أن يطلعنا على محتواهما ولكنّه لم يفعل واكتفى بإبداء رأيه فيهما قائلاً :

«قال المصنّف عفا الله عنه : كان ابن الزبير قد بعث إلى بردع الجاهل وبالرجز المذكورين، فأما «ردع الجاهل» فأقلّ شيء فائدة وأبعده عن النفع بعلم مع أن بعض أصحابنا نقل لي عن بعض أصحاب ابن أحلى أنهم يقولون : إن ابن الزبير لم يفهم عنهم شيئا من مذهبهم ولا يتلاقى كلامه معهم فيه على علمهم في ورد ولا صدر وأمّا الرجز المشار إليه فقد تقدم التنبيه عليه في رسم ابن الزبير ورداءة نظمه وخلوه من المعنى وأنه هزأة للمستهزئين ولقد كان في غنى عن التعرض لنظمه وأولى الناس بستر عاره منه والله يبقي علينا عقولنا ويرشدنا إلى ما يرضيه عنا بفضله وكرمه»[60].

وقال في رسم ابن الزبير المذكور : «وقد ولعت طائفة من أهل مصره بالطعن على تصانيفه وتنقّصه بسببها ولاسيما أرجوزته المذكورة فإنهم يتخذونها سخريا ويرددونها هزأة، ولقد كان الأولى به أن لا يتعرّض لنظمها فإنه منحط الطبقة في النظم، فأما سائر ما اطلعت عليه من تصانيفه ففيها ما في كلام الناس من مقبول ومردود»[61].

وينبغي أن ننظر بحذرٍ إلى رأي ابن عبد الملك وما نقله من رأي الآخرين في

(57) الذيل والتكملة 6 : 436 — 439.

(58) صلة الصلة : 139 — 140.

(59) ملاك التأويل 2 : 898.

(60) الذيل والتكملة 6 : 437.

(61) الذيل والتكملة 1 : 44 — 45.

كتابي ابن الزبير شيخه، وذلك لمنافسته إياه التي تبدو في تعقيباته المتعددة على صلة الصلة.

وممّا يدلّ على ذلك أننا نجد ابن الخطيب وهو من هو يقول في كتاب ردع الجاهل ما يلي : «وهو كتاب جليل ينبيء عن التفنّن والاطلاع»[62] ويصف كتاب ملاك التأويل بأنه «غريب في معناه»[63].

وما رآه ابن عبد الملك ونقله في شأن أرجوزة ابن الزبير يُمكن الجواب عنه بأن الغاية من النظم التعليمي هي المضمون وليس الشكل.

ولعلّ ابن الزبير عمد إلى السهولة في النظم كي ينتشر كلامه بين عامة الناس ولا يقتصر على خاصتهم، ومهما يكن من أمرٍ فليت أنا نعثر اليوم على هذه الأرجوزة برغم ما وصفت به من ضعف في النظم.

وأما ما نقله ابن عبد الملك من تشكيك في معرفة ابن الزبير بمذهب الشوذية فأمرٌ مستغرب منه، وذلك أن ابن الزبير لم يكن الوحيد الذي تصدى لأصحاب هذا المذهب، فقد تصدّى لهم أيضا معاصره ابن رشيد السبتي وألّف فيهم كتاباً عنوانه : إماطة الأذية، الناشئة عن سباطة الشوذية[64]، وردّ عليهم أيضا أبو حيان في «النضار»[65] و«البحر المحيط»[66] وذكر أسماء عدد منهم ونعتهم بالإلحاد والتأثر باعتقادات النصارى، وقد انبرى لهذه الطائفة أيضا القطب القسطلاني معاصر ابن الزبير وصنّف فيهم كتاباً تحدّث عنه تلميذه أبو حيان في البحر المحيط[67].

ومهما يكن من أمر فإن موقف ابن الزبير من أتباع الشوذية وغيرهم من أهل البدع كان نابعاً من شعوره بضرورة الدفاع عن صفاء العقيدة وسلامة الشريعة ووحدة الجماعة، ولاسيما في تلك الظروف الصعبة التي كانت توجب الاعتصام

---

(62) الإحاطة 1 : 190.

(63) نفس المصدر.

(64) وردت تسميته في القول المُنْبي لابن عربي : 33 (مخطوط برلين).

(65) المصدر نفسه : 43.

(66) البحر المحيط 3 : 449، 5 : 32 ونيل الابتهاج : 203.

(67) البحر المحيط 5 : 32.

بحبل الدين والائتمام بأئمة المسلمين، كما أن موقفه المذكور كان من صميم قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصحه لعامة المسلمين وخاصتهم.

ومما يتصل بهذا قضية تهمّمه بحاضر المسلمين في الأندلس وتأمّله في مستقبل الإسلام بها وبغيرها، وهذه هي القضية الثالثة التي عُني بها وألّف فيها ــ حسبما نعرف ــ كتابين هما : سبيل الرشاد، في فضل الجهاد، وكتاب تعيين الأوان والمكان، للنصر الموعود به في آخر الزمان، مستقرأ من صحيح السنة ومحكم القرآن، والكتاب الأول مفقود الآن أمّا الثاني فقد وصلتنا منه نسخة وحيدة عليها خط المؤلف وهي هذه التي نقوم بنشرها.

وقد ربطت بين هذين الكتابين لأني أعتقد أن ابن الزبير ألفهما لحثّ المسلمين على الجهاد في الأندلس وبعث الأمل في نفوسهم ورفع معنويتهم ولاسيما بعد أن بدت بارقة نصر في سنة 695هـ وهي السنة التي ألّف فيها كتاب الزمان والمكان، ونقدّر أنّ كتاب سبيل الرشاد ألف كذلك في السنة نفسها.

وقد تحدّث ابن الخطيب عن هذه البارقة التي كانت على عهد السلطان النصري محمد الثاني فقال في درج الحديث عن جهاده : «وفي شهر المحرم من عام خمسة وتسعين وستمائة ــ على تفئة هلاك طاغية الروم شانجه بن أذفونش ــ عاجل الكُفّار لحين الدهشة فحشد أهل الأندلس واستنفر المسلمين فاغتنم الداعية وتحرك في جيش يجرّ الشوك والشجر، ونازل مدينة قيجاطة ففتحها الله على يديه، وتملك بسببها جملة من الحصون الراجعة إليها، وكان الفتح بذلك عظيما وأسكنها جيشا من المسلمين وطائفة من الحامية فأشرقت العدو بريقه»[68].

وهذا «الفتح العظيم» الذي ذكره ابن الخطيب في اللمحة البدرية والإحاطة هو الذي يشير إليه ابن الزبير في مقدمة كتابه هذا إذ يقول : «وإن من هذا الانعام العام المطلق الشامل ما أسفر عنه هذا الزمان، وجاء به الرحمن، من هذا الفتح العظيم، والإنعام الجسيم، على يدي من شهد له أثره، وتعاضدتْ أثره، وطاب سعيه وخبره، سيدنا ومولانا المنصور أمير المسلمين، وناصر الدين، أبو عبد الله ابن سيدنا ومولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله والغالب به أبي عبد الله محمد بن يوسف

(68) اللمحة البدرية : 54 والإحاطة 1 : 561.

ابن نصر أيّد الله أمرهم، وأعز نصرهم، وأبقى أيامهم على المسلمين، ووالاها بالنصر الجسيم والفتح المبين»[69].

وقد دفعته حماسته الإسلامية ونياته الطيبة إلى أن يرى في هذا «الفتح العظيم» مقدمة لفتوح تأتي بعده ويعتبره بشارة بالنصر الموعود به، وفي هذا يقول : «وإني اعتبرت هذا الفتح الذي جلّ خطره، وعظم بشارة ورحمة نبؤه وأمْره، إلى ما انجرّ في أيامهم من العجائب والبشائر وضممته إلى ما تقرّر في علمي، ووقر متيقّنا في فهمي، ممّا خبره مستفيض متظاهر، ومعناه من نص القرآن والقرآن مقطوع به متواتر، من نصر هذه الأمة بنص الشارع ﷺ النصر الذي لم يتقدم له في الإسلام نظير وهو المنتهي فيه الأمر إلى فتح القسطنطينية، واعتبرت مواضع من الكتاب وصحيح السنة مما ألهم الله إلى اعتباره وتأملت ما يشير من ذلك إلى أوان، من السنة والقرآن، وتعيين جهة من المعمور، لكيان هذا الخبر المشهور، فقامت عندي دلائل تشير لأرضنا ووقتنا وإمامنا، ويشهد لها جملة قرائن، ويعضدها ما في أمثال هذا المطلوب من البراهين، ورأيت إبداء ذلك وإبرازه عن غيب فكري لشاهد تسطيري وفكري»[70].

ويبدو من هذا الكلام أن انتصار المسلمين في قيجاطة وجهاتها عام 695هـ (1295م) وانتشار الدعوة في المغرب والأندلس إلى الجهاد، واسترجاع بعض ما كان تغلب عليه القشتاليون من البلاد، بعثت آمالاً عريضة في نفوس الأندلسيين ورأى بعضهم في ذلك بداية حركة تعيد ما ضاع من الأندلس.

وهذا ما يدلّ عليه الشعر الذي قيل في التهنئة بهذا الفتح ومنه قصيدة ابن الجياب التي أولها :

عدوّكَ مقهورٌ وحزبك غالب　　　وأمرك منصور وسهمك صائب[71]

وقد ذهب ابن الزبير إلى أبعد من ذلك فقام في نفسه أنّ الفتح إرهاصٌ بما وعدت به الأمة الإسلامية من نصر في آخر الزمان ينتهي فيه الأمر إلى فتح

---

(69) الزمان والمكان.

(70) نفسه.

(71) الإحاطة 1 : 562.

القسطنطينية ورومية كما ورد في الحديث النبوي، ولهذا أقدم على تأليف كتاب الزمان والمكان الذي اطّلع عليه ابن الخطيب وقال فيه : «وهو وصمة تجاوز الله عنه»[72] والوصمة معناها العيب والعار.

ومن عادة ابن الخطيب في الإحاطة أنه يضع في بعض التراجم عنوانا هكذا : «وصمته» ثم يتحدث عنها بإيجاز أو بإطناب، ولكنه اكتفى في ترجمة ابن الزبير بجملة قصيرة، ولعلنا نفهم سبب سكوته عن تفصيل القول فيها إذا عرفنا احترامه الكبير للرجل، فهو ينعته عندما يرد ذكره في الإحاطة بـ«شيخ الجماعة» و«شيخ الجماعة بالأندلس» و«أستاذ الجماعة» و«الأستاذ الجليل» و«الأستاذ الكبير» و«خاتمة المسندين والمقرئين» إلى غير هذا من النعوت التي تدل على إجلال ابن الخطيب لشيخ شيوخه.

فما هي الوصمة التي يعنيها ؟ فهل يقصد بها أن ابن الزبير تسرّع فبشّر بأمر غيبي لم يقع كما قدر إذ لم يكن أوانه قد حان ؟ أم أن الوصمة تكمن في الطريقة التي سلكها في تعيين الوقت والرجل والمكان بأدلّة تحكمية ؟ أم أنها تقع في تطبيق آيات قرآنية وأحاديث نبوية وردت في موضوع النصر الموعود به على ما اعتبره كما يقول : «دلائل تشير لأرضنا ووقتنا وإمامنا» ؟

قد يكون ابن الخطيب يعني كلّ ما ذكر، وربّما كان يواخذ ابن الزبير أيضاً على كثرة إطرائه للسلطانين النصريين. فهو يقول في السلطان محمد الفقيه : «جعل الله له البشارة الأخيرة بالآية، واختصّه منه بعظيم هذه العناية، بالجد والعزم المنزّه عن كسل أو فتور، فعبر البحر في أشدّ أهواله، وأعظم أهواله، وتلاطم أمواجه، وتفارط عجاجه، مخاطراً بذاته الكريمة، ونفسه العظيمة، موثراً رضى ربه، وقد سبقت له بشائر الأقدار له بإيثاره لديه وحبه، وأبلغ في الاعذار، وجمع بين تأنيس البشارة وتحذير الإنذار، وقد أفصح له الوجود، إلى أين يا منصور وأنت المقصود، ما كان غيرك لمثلها ليُعَدّ ويُحْمد، وأنت الناصر ابن الغالب بالله محمد بن محمد، وليَرَيَنّ ولي عهدك، ثمرة عملك الكريم وجليل قصدك، فتورثه ومن إلى إيالته الأرض، وينال من فتوحها بميمون اسمه الطول والعرض»[73] ويقول في والده

(72) الإحاطة 1 : 190.

(73) الزمان والمكان.

السلطان محمد الشيخ : «إن أمير المسلمين الغالب بالله المقدس المرحوم أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر قدس الله روحه وبرّد ضريحه قد جرى له في المأمول من هذا النصر العظيم والفتح الجسيم أعظم آية وأجل برهان بما ألهمه الله سبحانه إليه من ادّخار الأطعمة والأقوات آخذاً في ذلك بالجد والتشهير مدة من نحو عشرين سنة حتى ملأ بلاد الأندلس الباقية بأيدي المسلمين أطعمة وأقواتا ضاق بها سكنى أهلها لكثرة ذلك وأعدّ مع ذلك من الأسلحة والآلات الحربية والعدد والمال ما وجد عند الحاجة، ولولا جليل تدبيره وتدبير خليفته المنصور أيّد الله أمرهم في ذلك كله لما تأتى للمسلمين شيء ممّا هيأ الله لهم ولنشبوا بأنفسهم وبالواردين عليهم من المستنفرين»[74].

ومن المعروف أن كتب التاريخ القديمة ذكرت تنازل هذا السلطان عن عددٍ من المدن والحصون للقشتاليين وقرر أحدُ المؤرخين المحدثين أن موقفه هذا كان «موقفا شاذّا ومؤلما» ثم استدرك قائلا : «ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم إنقاذاً لتراث لم يكتمل رسوخه بعد وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى، ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه وإدماج ما تبقّى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكا له ولعقبه... وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية في ولاية غرناطة والولايات المجاورة لها، وهو يصانع النصارى ويتجنّب الاشتباك معهم ويشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يتفطّر حزنا وأسًى»[75].

أما ابن الزبير فإنه يدافع عن السلطان ويشرح أسباب «موافقة العذو ومداراته» بتفصيل في قوله : «ثم إن الغالب بالله أمير المسلمين قدّس الله روحه تولى تدبير أمر النصارى حين انفراده وإشراف الصّقع الأندلسي على التلف باستيلاء العدو على معظم الجهات وتمردهم وطغيانهم وتكاثفهم وكثرتهم ونجوم ذوي النفاق والمعتقدات المردية في الحصون والقلاع المانعة متهافتين على الترامي إلى النصارى والدخول تحت إيالتهم وتمكينهم من البلاد حين رأوا عجز من كان قبله عن مقاومة العدو وضيق نظره عن مصانعتهم ومداراتهم فتولى رضي الله عنه عند إلقائهم

(74) نفسه.

(75) نهاية الأندلس : 46 (الطبعة الثالثة).

بأيديهم إلى التهلكة وتهافتهم على التلف من النظر في موافقة العدو ومداراته وأخذه بكل جهة من التدبير المبقي للرمق الاسلامي بهذا الصقع الغريب ما يمكن به بعد تداركه ومعالجته، ثم من صنع الله له أنه كان، مع انفراده وضعف من إلى إيالته وعجزهم عن المقاومة لعدوهم قلّة عَدد وانقطاع مَدد قد جعل الله له من الهيبة في قلوب أعدائه والرعب عند من خالفه ما كان يحمل أعداءه على إجابته والانقياد له في كثير من تدبيره المبقي كلمة الإسلام بهذا الصقع الغريب، فكان أمره بالجملة عجبا من العجائب وآية من آيات الله الكبر اعتناء من الله سبحانه حتى توقّف طمع الأعداء فيما كانوا يرومونه وتمشت الحال إلى أن تدارك الله بلطفه» ثم يقول بعد أسطر : «وقد كان رضي الله عنه خلال ما ذكر من مدة الاستعداد يستعطف كل من داني الصّقع الأندلسي من البلاد من كل متصف بدين أو مقدم في شجاعة، أو نجدة أو تدبير قبيلة أو جماعة ويصلهم بالإحسان ويأخذهم بكل مأخذ ويعِدهم مُرغبا في الجهاد، ويحثهم على التأهب له والاستعداد، حتى تهيأت إجابتهم عند الحاجة ثم والى الواردين منهم من الإحسان ما حبّب لمن وراءه الإنابة، فأسرع الإجابة، فهذا كله جدير بأن يقع به إعلام، لذوي التيقظ والأفهام، وقد قيل له قدس الله روحه في ذلك تعجبا من ادّخاره واستعداده فجاوب بمنتزع قرآني، عن جليل عقد إيماني فقال : ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فكان أمره رضي الله عنه آية، وتدبيره ومداراته وادخاره إلهاماً من الله سبحانه وعناية»[76].

وبعد فهل مثل هذا الاطراء الوارد في كتاب الزمان والمكان هو الذي اعتبره ابن الخطيب وصمة ؟ لا نظنّ ذلك فهو نفسه من المكثرين في إطراء الملوك النصريين وإذا كان هذا أمرا طبيعيا من ابن الخطيب وغيره من أصحاب السلطان فإنه قد يبدو أمرا غريباً من عالم لا شأن له بالبلاط، ولم يكن من حاشية السلطان وكان غارقا في التدريس طوال حياته لا يسأل عمن يعزل أو من يلي كما يقول في شعر له[77].

وتذكر المصادر أنه امتحن مرتين : كانت أولاهما في مالقة عندما نشأت وحشة بينه وبين رئيسها ابن اشقيلولة بسبب السّاحر إبراهيم الفزاري، وقد أفلت بجريعة

(76) الزمان والمكان.

(77) انظره في الإحاطة وبغية الوعاة.

الذقن ولكن منزله كبس وذخائر كتبه وتقاييده نهبت ويقول ابن الخطيب إن ابن الزبير «لحق بغرناطة آويا إلى كنف سلطانها الأمير أبي عبد الله بن الأمير الغالب بالله ابن نصر فأكرم مثواه وعرف حقه»(78).

وكانت المحنة الثانية من هذا السلطان بسبب كلمة قالها في أفضلية أحد أعلام البيت النصري كان جارا له وقد اقتصرت المحنة الثانية «على إخراجه من منزله المجاور لذلك المتهم به ومنعه من التصرف وإلزامه قعر منزل نقل إليه لحال اعتزال من الناس محجورا عليه مداخلتهم فمكث على ذلك زمانا طويلا إلى أن سريت عنه النكبة»(79).

ومع هذا كله فإننا لا نظن أن إطراء ابن الزبير للسلطان محمد الشيخ وولده السلطان محمد الفقيه كان صادرا عن ملق أو تقية، ونعتقد أنه كتب الكلام المذكور في جو التعبئة النفسية والروحية التي سادت الأندلس والمغرب في تلك السنوات وساهم فيها الخطباء والشعراء من أمثال ابن المرابط وابن المرحّل وأبي القاسم ابن العابد وصالح بن شريف الرندي وغيرهم(80)، وشارك فيها الكتاب كما نرى في رسالة أبي القاسم العزفي(81) وألف بعض العلماء تآليف في الجهاد(82).

وفي ظلال أجواء الجهاد هذه ألّف بعض المؤلفين تآليف في فضائل الأنصار الذين ينتسب إليهم أهل البيت النصري دعما لشرعيتهم وحثا على الالتفاف حولهم، ومن هذه التآليف كتاب نزهة الأبصار في فضائل الأنصار لأبي بكر عتيق بن أحمد الوادي آشي(83) معاصر ابن الزبير ونجد له في ديباجة كتابه ثناء يشبه ثناء أبي جعفر على السلطانين المذكورين آنفا، قال : «واستوهب من الله جل جلاله

---

(78) الإحاطة 1 : 191.

(79) الإحاطة 1 : 191 — 192.

(80) انظر قصائد ابن المرابط وابن المرحّل في العبر لابن خلدون والذخيرة السنية أما قصيدة ابن العابد فقد ذكر مطلعها القاضي النباهي في نزهة البصائر والأبصار، وأما قصيدة الرندي فهي نونيته المشهورة.

(81) وردت كاملة في الذخيرة السنية : 102 — 108.

(82) منهم ابن الزبير كما عرفنا ومعاصره ابن خميس الذي سمّى كتابه بالنّفحة الأرجية، في الغزوة المرجية، (الإحاطة 3 : 185).

(83) ترجمته في الذيل والتكملة 5 : 116 والإحاطة 4 : 80.

لوارث شرفهم اليمني، وقسيمهم في النسب الأنصاري المدني، مولانا الغالب بالله المجاهد في سبيله أمير المسلمين وناصر الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر تمهيدا يمد على البسيطة ظلاله، وتأييداً يبلّغه في حياطة الإسلام وأهله آماله، وأسأله عز وجل لولي عهده، وسليل مجده، مقتفي آثاره الواضحة، الجاري في الكفاية والحياطة والحماية على الأخذ بتلك الأفعال الناجحة والأعمال الصالحة مولانا الأمير الأجل الهمام الأوحد الأسعد الأعلى أبي عبد الله محمد دوام الشرف الذي أحرز كنهه وحقيقته، وزيادة الخير الذي يسّره الله للعمل به فانتهج سبيله وسلك طريقته، واستدامة الفضل الذي فتح مقفله، وأوضح مُبهمه ومشكله، ونهج بصالح الأعمال سبله، حين لم يثن عنانا، ولا أعمل خاطرا ولا جنانا، إلاّ لمصلحة جرّ نفعها للإسلام، وتذليل صعاب تلقته بالخضوع والاستكانة والانقياد والاستسلام، إعزازا له وإكراما، وإشعارا بسعده الثاقب ويمنه المتعاقب وإعلاماً، فأعلى الله يده، وفسح للإسلام وأهله أمده، وكافأ مذهبه الجميل في نظم الشتات، والعمل الذي عاد باحياء الأرض الموات ومقصده»[84].

ونعود بعد هذا إلى موضوع الوصمة التي وصف بها ابن الخطيب كتاب الزمان والمكان فنقول إنها تتمثل على ما يبدو فيما نقله وارتكبه من تحكّمات كنقله كلام من ذهب إلى أن قوله تعالى : ﴿في بضع سنين﴾ فيه إشارة إلى انتهاء الإدالة التي قضى الله للروم على أهل الإسلام في الغالب من الأمر وأنه يعقب ذلك ابتداء بشائر النصر المخبر به المعقب بالفتح، فإن العدد الحاصل من حروف ﴿في بضع سنين﴾ يبلغ ستّمائة واثنين وستين.

قال : «وإذا اعتمدنا بناء تاريخنا على هجرة النبي ﷺ صدق هذا العدد موافقاً لابتداء أخذ أمير المسلمين الغالب بالله قدّس الله روحه في محاربة الروم بالقطر الأندلسي واستدعائه من استدعاه من المسلمين أهل العدوة الغربية لما ألهمه الله من ذلك وهيأه له.

قال هذا القائل : فهذا ما كان يتحدث به وينتظر، لموافقة الخبر الخبر، وهنا انتهى ما وقر في الآذان من قول هذا القائل، وهو ممكن، ولم يبلغنا زيادة على

---

(84) نزهة الأبصار : مخطوط خ. ع. ر، رقم

هذا القول من قائله»[85].

فهذا مثال ممّا نقله في استخراج ما كان يروم الوصول إليه من القرآن الكريم والحديث النبوي، وقد دافع عن هذا المرتكب وأيده وذهب إلى أنه ممكن لا مانع منه وتدرج منه إلى مرتكب آخر أكثر تكلفا وتمحلا فقال :

«ثم إنّي عثرت بعد على ما يجمع بين تقوية ذلك المفهوم من قوله ﴿في بضع سنين﴾ ويشير مع ذلك إلى استجرار ما ذكره المفسرون من أن المشار إليه إنما هو ما كان من غلبة الروم فارس وغلبة فارس الروم، وذلك في قوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ فهذه الآية وعيد للكفار وإن خوطب بها في السابق من الظاهر كفار قريش وسائر كفار العرب فلا مانع من تعميم الوعيد لهم ولغيرهم من كفار الأرض وأولى ذلك الروم لما تقدم، فحروف آفاق وأنفسهم إذا أسقط حرف الوعاء وهو في وأداة التعريف واعتد بالألف الراجعة عند نقل حركة همزة آفاق إلى لام التعريف وعدت الهمزة ألفين على ما سيأتي بيانه تبلغ ستمائة واثنتين وستين كما ﴿في بضع سنين﴾ من غير فرق ولا مخالفة، فهي عاضدة لما فهم من تلك الآية بلا ريب ولا إشكال»[86].

ولعل التمحل بلغ أقصاه عند ابن الزبير لمّا ذهب يستخرج تاريخ مبايعة محمد الشيخ من حروف الهجاء في أوائل السور التي جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتولّ عنهم حتى حين﴾ قال : «ولا يبعد أن يكون مبينا للحين المتوعد به من تأخر من عداة الأمة وتفسيراً للمدة بما ورد من حروف الهجاء في أوائل السور مما أعقبت به هذه الآي إلى آخر القرآن، ومبلغ العدد الحاصل منها ستمائة وثمانية وعشرون وعقب هذا التاريخ وهو سنة تسع وعشرين بويع أمير المسلمين المتدارك به الرّمق لهذا الصقع»[87].

ولم يكتف في استخراج ما كان يرومه مما تشير إليه حروف الألفاظ القرآنية

---

(85) الزمان والمكان.

(86) نفسه.

(87) نفسه.

من أعداد تعطي تاريخا موافقا لحدث وقع بل ذهب يلتمس ذلك لحادث منتظر في قوله تعالى : ﴿ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله﴾ قال : «ولعله إشارة إلى ما يقع من عظيم الفتح المبشر به الذي يقصر عنه ما قبله سنة إحدى وسبعمائة بما تعطيه طريقة الاعتبار المتقدم من إشارة هذه الحروف والله أعلم بما أراد»(88) ولا ندري هل يعتبر هذا رجما بالغيب أم حلما بالنصر وتعبيرا عن الأمل فيه وتشجيعا للناس على تحقيقه، ولعل مما يدل على المعنى الأخير رجاؤه أن تكون الإشارة في قوله سبحانه : ﴿ينصر من يشاء﴾ إلى أهل الأندلس قال : «وأحوج أهل الأرض إلى ذلك أهل الصقع الأندلسي ما أراد الله إبقاءه لغلبة عدوهم المجاور لهم القاطن معهم في بساط واحد وجزيرة منقطعة عن بلاد المسلمين متصل بعضها ببعض متداخلة القواعد والحصون متقاربة الاصقاع متكاثفة العمارة، لا حاجز بينهم وبين عدوهم إلاّ السيف والمصابرة على طول الجهاد والرباط مع أن معظم بلادها بل كلها إلا القليل بأيدي أعدائهم، ومتصلة بما وراءها من بلادهم، مما لا يحصى كثرة فعدوهم أبدا لا يعوزه الاستمداد متى أراد ذلك وقلما يمكن ذلك لمن فيها من المسلمين لحيال البحر بينهم وبين إخوانهم وانقطاع البلاد، وربما نجمت فتنة واشتدت المحنة فلولا أن الله سبحانه تكفّل بها واختار لحفظها وتدبيرها من أيّده بخلوص النية، وجليل الطوية، لأصبح أمرها سدى، واستولى عليها لحرصهم وكثرتهم وانتشارهم بمتكاثف أقطارها العِدا، فبقاؤها آية، وسلامة ما بقي منها رحمة من الله سبحانه وعناية، ـــ وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا ـــ»(89).

ومما يدل على أن تحديده لزمان ومكان النصر الموعود إنما هو من قبيل الأمل والرجاء وليس من قبيل الجزم والحسم قوله : «فقد فتح الله على إخواننا بالشام في وقتنا هذا ما اشتهر من بلاد الساحل واستولوا على عكة، وذلك فتح عظم خطرا وجل قدرا فالأمر إن شاء الله يمشي في أخذ الروم من طرفيهم كما بدأ أولا حين فتحت الشام والأندلس حتى يتلاقى المسلمون على قسطنطينية بحول الله»(90).

---

(88) نفسه.

(89) نفسه.

(90) نفسه.

ومن باب التبشير الذي كان الناس في حاجة إليه في تلك الأيام قوله متحدثا عن الوعد المذكور أيضا : «وقد حان أوانه، وأطلّ زمانه، ولايزال يتدانى إن شاء الله من وقتنا هذا الذي ظهرت فيه أماراته، وبدت شواهده وعلاماته، وتمتد به الأيام وتبتهج بمسراته الشهور والأعوام، وينتظم جهادا وجدّاً شمل الإسلام، ويشمل عدوهم الانكسار والاهتضام، ويتصل هذا الأمر بفضل الله إلى فتح قسطنطينية ورومة كما وعد ﷺ موضحا لما أجمله القرآن من ذلك والله أعلم بالكيفية في فتح هذين القطرين أمن جهة صقعنا الأندلسي أم من الجهة الشامية ولعلها مجمع الفئتين وملتقى البحرين إذذاك أو أن ظهور المهدي رضي الله عنه إنّما يكون بمقتضى روايات الأثبات، في تلك الجهات ولعل أخذ الروم يكون من الطرفين والله أعلم، وسنبين ــ إن شاء الله ــ فيما بعد أن فتحهما (أي القسطنطينية ورومة) كيفما وقع فحظ القطر الأندلسي ــ عصم الله ولاته وحماته ــ في ذلك الفتح موفور، وسعي أهلها مشكور، ونيلهم ممن جاورهم من عدوّهم وفتحهم بلادهم معتضد مأثور، وأنهم أولى الناس بذلك، وأرباب ما هنالك وإنما رومة وقسطنطينية من موصول بلادهم والله أعلم»[91]. وقد كرر ابن الزبير ما أداه إليه اجتهاده واستطلاعه من أن الفتح الموعود به سيكون من جهة الأندلس وذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب[92].

ونظنّ بعد هذا أن ما اعتبره ابن الخطيب وصمة في هذا الكتاب إنما يتعلق بمرتكب ابن الزبير في استعمال حساب أبي جاد وتوسعه فيه وتطبيقه على عدد من الآيات التي رأى أنها تشير إلى ما يرومه، وأما وجود الآيات والأحاديث التي تخبر بغيوب وقعت أو ستقع فأمر مقطوع به «وصدق الاخبار عن الغيوب معجزة وآية» كما يقول الزمخشري في الكشاف[93] كما أن الاجتهاد فيها والاستنباط منها أمرٌ جرى عليه الأئمة من الصحابة ومن بعدهم، وقد أورد ابن الزبير أمثلة من هذا في الباب الذي عقده للدفاع عن مرتكبه في هذا الكتاب والردّ على من يعترض عليه وأشار إلى ما روي عن عبد الله بن عباس وغيره وذكر أمثلة من اجتهادات

---

(91) نفسه.

(92) انظر الصفحات التالية .

(93) الكشاف.

ابن عطية وتنبيهاته على ما في بعض الآيات من إخبار بالغيوب وأعجب بكلمة للقاضي أبي بكر ابن العربي وردت في شرحه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها» قال ابن العربي : «لست أعلم اليوم بقعة لم يدخلها الإسلام إلاّ ما بين القسطنطينية إلى برشلونة ولابدّ من تملكها»[94].

أما مرتكب ابن الزبير في تطبيق حساب أبجد أو حروف الجمل كما تسمى فهو مسبوق إليه ببعض المفسرين الأندلسيين كابن برجان والسهيلي والحرّالي وغيرهم، وقد سلك نهجهم واتبع طريقتهم في هذا الكتاب، أما ابن برجان فقد ترجم به في صلته وعبر عن إعجابه بعلومه ومعارفه وقدرته الكبيرة على التأويل والتفسير وذكر أن ما له من وجوه في التأويل وفهوم في آيات التنزيل هي من فضل الله الذي يوتيه من يشاء، ثم قال : «ألّف رحمه الله كتابه في التفسير وجرى فيه على طريقة لم يسبق إليها واستقرأ من آياته عجائب وكوائن من الغيوب إلا أنه أغمض في التعبير عن ذلك فلا يصل إلى مقصوده إلا من فهم كلامه، وألف إشاراته وإلهامه»[95].

وقد ذكر ابن الزبير في الصلة أيضا أن يحيى اللبلي استخرج من سورة الروم في تفسير ابن برجان وقت فتح بيت المقدس قبل وقوعه فكان ذلك[96].

وأما السهيلي فقد رجع إليه ابن الزبير مرتين في كتابه هذا وأشار إلى اجتهاده في الحروف الواقعة في أوائل السور وتأويله لها بحساب أبجد لتدل على مدة ملته ﷺ، قال في آخر هذا الكتاب : «وقد تقدم اعتماد الأستاذ الجليل أبي زيد السهيلي على هذا المأخذ وتعويله عليه وعضده بإشارة أحاديث وقرائن وتلقاه الجلة ممن وقف عليه بالقبول والاستحسان فإنه أحسن فيه» ومما وصفه به في صلة الصلة أنه كان «صاحب اختراعات واستنباطات مستغربة واهتداءات نبيهة»[97].

وأما الحرالي فله تفسير وصف بأنه اشتمل على أشياء عجيبة وأنه تكلم فيه

---

(94) الزمان والمكان.

(95) صلة الصلة، القسم المخطوط.

(96) صلة الصلة : 187.

(97) صلة الصلة، القسم المخطوط.

على وقت خروج الدجّال وطلوع الشمس من مغربها وياجوج وماجوج[98]، ولسنا ندري هل وقف عليه ابن الزبير أم لا.

ومن الذين تكلموا في موضوع المهدي المنتظر ابن عربي الحاتمي وابن قسي وابن سبعين وابن أبي واطيل والقرطبي[99].

ولكن ابن الزبير كما نعرف كان ينتقد هذه الطبقة من المتصوفة، ولذلك فإننا لا نظن أنه اهتم بكلامهم أو التفت إليهم.

ويبدو لنا أن ثمة فرقا كبيرا بين مرتكب ابن الزبير ومرتكبهم، فكلام هؤلاء من نوع الكلام في الملاحم، أما كلام ابن الزبير في الموضوع فإنه مستمد من استقراء ما ورد فيه في محكم القرآن وصحيح السنة، كما أن هدفه هو غير هدفهم، إذ أنه بتأليفه كتابه كان يقصد إلى بعث الأمل في نفوس الأندلسيين وعودة الروح إليهم مغتنما مناسبة النصر الذي أحرزه المسلمون في سنة 695هـ وشاكرا المولى سبحانه ما أنعم به على «القطر الغريب» وراجيا له المزيد، وكأنه أيضا بهذا التأليف قام بنوع من «الدعاية» أحس أن الظروف تتطلبها والنفوس تتشوّف إليها، وسواء أقام بهذا من تلقاء نفسه أم بانتداب من السلطان كما قد يدل على ذلك أول الكتاب وآخره حيث نراه ينوه بالأمير وجهاده أولا ويدعو له ولولي عهده وسائر ذريته آخراً فإن ملحظ «الدعاية» واضح ولاسيما في البابين اللذين خصصهما لفضل الأنصار.

ومن هنا أيضا يختلف صنيع ابن الزبير عن صنيع الذين ألفوا في الفتن وأشراط الساعة كمعاصره القرطبي صاحب التذكرة وغيره لأن مقصود هؤلاء هو التذكير بالموت والحساب وأمور الآخرة، أما مقصد ابن الزبير فهو تقوية روح الجهاد في المسلمين وتأجيج شعلة الحماسة في نفوسهم وملء قلوبهم بالأمل في أن الإسلام لابد أن يعم ويبلغ القسطنطينية ورومة كما ورد في الحديث.

وقد فتح المسلمون القسطنطينية بعد قرن ونصف من تاريخ كتابة هذه الرسالة، وكان أمل ابن الزبير الذي عبّر عنه مرارا هنا أن يكون ذلك الفتح انطلاقا من

---

(98) نيل الابتهاج : 202.

(99) مقدمة ابن خلدون : 307 وما بعدها واختصار التذكرة : 130.

الأندلس النصرية أو على الأقل أن يكون للأندلسيين إسهام فيه، وهذا شيء يدل على فسيح أمله وعظيم رجائه ولكن قدر الله الذي يقابل بالتسليم قضى بخروج المسلمين من الأندلس في جنوب أوربا بعد أن دخلوا إليها من جهة القسطنطينية[100].

هذا ولا ضير على ابن الزبير إذا كانت تقديراته لم تتم وحساباته لم تصدق فنيته خالصة، ولا نظن أنه بهذا الاعتبار ممن تشملهم إشارة ابن خلدون إلى أولئك الذين «يعينون الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية وفي هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر»[101].

وقد أشرت آنفا إلى أن ابن الزبير كان يتوقع الاعتراض عليه وانتقاد ما أخذ به فعقد بابا في إقامة الدليل على صحة إمكان ما قدمه من التأويل، وكان عنيفا في رده إذ بدأه بقوله : «لا أستبعد أن يقول من قصُر نظره إنك معارض فيما قدّمت» ثم يخاطب بعد ذلك هذا الذي نعته بقصر النظر بقوله : «واعلم أن هذا ليس بعشك فإن شئت فاخرج وإلا فادرج»[102].

ولعلّ أقوى ما ورد في دفاع ابن الزبير هو قوله : «ولا يقال في شيء من الاخبارات ممّا سبيله ما ذكرناه إنه غيب استأثر الله بعلمه بل هو ممّا أعلم سبحانه به، وخصّ من شاء من عباده بفهمه والاطلاع عليه، فمن يُسّر له من فهمه شيء ولم يخرج في استقرائه عما تقدم فليس بمتخرّص ولا متقول بل هو معتبر مستنبط مثنى عليه شرعا إن خلصت نيته، فالإخبار بما كان أو يكون استقراء من كتاب الله تعالى وصحيح الخبر شأن العلماء الراسخين وذوي الاعتبار من المتورّعين إذ ليس غيبا في الحقيقة إلاّ عند من لم يفتح عليه، وكل ما جعل الله تعالى عليه دليلا من كتابه أو إخبار رسوله ﷺ جليا أو خفيا فليس من الغيب الذي استأثر

(100) كان دخول المسلمين إلى القسطنطينية عام 857هـ وهذا التاريخ مجموع في قوله عز وجل : ﴿بلدة طيبة﴾. انظر مادة اسطنبول في دائرة المعارف الإسلامية.

(101) المقدمة : 310.

(102) الزمان والمكان.

سبحانه بعلمه، وإنما المذموم عند علماء الشريعة ادعاء الاطلاع على ذلك من غير الطريق المتقدم أو على ما هو غيب استأثر الله بعلمه»[103] ثم أشار إلى فتوى ابن رشد الجد في الموضوع وقال : «وكلامه في ذلك صحيح وعليه كافة أهل السنة من حيث المستند والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة، وكما أجمعوا على ذم ما ذكر من حيث المستند، كذلك أجمعوا على استحسان المستخرج والمستنبط من كتاب الله تعالى وكلام رسوله الذي لا ينطق عن الهوى مما وراء اللفظ من الفحاوي والإشارات ودقائق المفهومات، وعظموا من خصه الله بفهم ذلك، وأثنوا عليه إذا تقيد نظره بما قدمنا، وهل فاق أهل العلم بعضهم بعضا إلا بحسب ما منحهم الله سبحانه من ذلك ؛ ومرتكبنا في هذا الكتاب والحمد لله جار من ذلك على أوضح سبيل وعلى ما انتهجه الأئمة من الصحابة رضي الله عنهم إلى من بعدهم»[104].

ومن هذا الكلام وغيره نعرف أن مستند ابن الزبير في هذا الكتاب يقوم على أساس الاستنباط من الكتاب والسنة وليس على أساس الجَفْريات والقرانات.

وسبق أن رأينا موقفه من الفزاري الذي كان «يخبر بالقضايا المستقبلة»[105] وقد اشتهر في آخر أيامه بغرناطة شخص يعرف بالمراكشي كان يخبر بالكائنات وينذر بالوقائع اعتماداً على زايرجة عثر عليها وتمهر في العمل بها «حتى استهوى بذلك جماعة من المشيخة ممن كان يُركن إلى رجحان نظره وسلامة فطرته» كما يقول ابن الخطيب[106] وأضاف أن المذكور أصبح مرتسماً بباب السلطان في غرناطة مؤملا من أهل الدولة وأن الناس انتسخوا نظائر من تلك الزايرجة وأنه طلب من سلطان المغرب فوجه في جفن هيىء له، وعلى الرغم من صدق كثير من دعاويه إلا أن ابن الخطيب الذي نقل بعض أخباره عن شيخه ابن الجياب وصمه بالتمويه وعلل عمله بقوله : «وظاهر الأمر أن تلك الحال كانت مبنية على تخيل وتخمين تختلف فيه الإصابة وضدها بحسب الحالة والقائل بتصرف الحيلة

(103) نفسه.

(104) نفسه.

(105) الإحاطة 1 : 191.

(106) الإحاطة 3 : 187 — 188.

فيه»[107] ولا نعرف كيف كان موقف ابن الزبير من هذا الشخص.

ومما يذكر هنا أنه كان لابن الزبير ولد خبير بالفلك، وله تأليف جليل في الاسطرلاب هو تذكرة الألباب، في العمل بالاسطرلاب[108] ولكنه كتاب يقتصر على ما يتعلق بالمواقيت والاستعمالات الدينية لهذه الآلة، ولهذا فإننا لا نظن أن ابن الزبير كان يلتفت إلى شيء من هذا.

نعم إنه أعجب بمرتكب ابن برجان والسهيلي على وجه الخصوص وامتدح مأخذه ودافع عنه بقوله : «ولا يعارِض مأخذ السهيلي ومن تقدمه في استدلاله على بقاء هذه الأمة بما استدل، ما أجمع عليه المسلمون في أمر الساعة فإنه لم يدع علما بل حسبه الظن والتخمين»[109].

وقد أشار ابن خلدون في المقدمة مرارا إلى كلام السهيلي ومستنده فيما ذهب إليه من تعيين أمد الملة الإسلامية ثم عقب عليه بأنه لا يقوم به دليل لأن دلالة هذه الحروف (يعني الحروف المقطعة في أوائل السور) على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل، نعم إنه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصيره حجة»[110].

وبعد، فإن هذه الرسالة ـــ علاوة على قيمتها التاريخية ـــ تكشف عن جوانب متعددة من ثقافة ابن الزبير وشخصيته، فأما ثقافته التي أشرنا قبل إلى تنوعها في المنقول والمعقول فإننا نجد تطبيقاتها خلال الكتاب كلّه، وإن أول ما يلفت نظرنا من ذلك هو الأسلوب الحجاجي المتمثل في كثرة استعمال «فإن قلتَ» أو «فإن قيل» «فالجواب» وما أشبه هذا، وإذا كانت الشواهد المستقرأة من محكم القرآن وصحيح السنة هي الأساس في بناء الكتاب فإن الاستنباطات والاجتهادات المستقاة منها هي قوامه، وهي التي تدل على علو كعب المؤلف وسعة اطلاعه وتمكنه من أدوات البحث العالي، وفي مقدمتها علم أصول الفقه الذي نلحظ التوكّؤ عليه

(107) الإحاطة 3 : 188.

(108) توجد منه نسخة خطية في الخزانة العامة بالرباط ومؤلفه أبو القاسم الزبير أحد أولاد ابن الزبير الأربعة، وله ترجمة في ذرة الحجال 1 : 150، 2 : 460.

(109) الزمان والمكان.

(110) المقدمة : 315.

والاستناد إليه في عدد من المباحث، وفي أسلوب الكتاب نصاعة بيان. وحرارة إيمان وخلوص نية تتجلى في مختلف الفصول والأبواب.

ونحن نجد في تأليف ابن الزبير هذا نفس لهجة الاقناع الموجودة في «ملاك التأويل» و«البرهان» و«إيضاح السبيل» والواقع أن جميع هذه التآليف تتميز بطرافة الموضوعات وقلة النقول وغلبة الاجتهادات، وهو يفخر بهذه الميزات في مقدمات التآليف المذكورة، ويذكر أن معظم ما يأتي به هو من مكنونات خواطره وبنات أفكاره(111).

أما شخصية ابن الزبير في هذا الكتاب فهي شخصية أندلسي متمسك بأندلسيته فخور بها مدافع عنها، ويتجلى ذلك في الباب الذي يتضمن ما ورد عن النبي ﷺ مما يفهم منه فضيلة الصقع الأندلسي بقياس أو فحوى أو إشارة وما يشهد لذلك من أحوال أهله وسيرهم وكثرة علمائهم وانتشار فضائلهم وأن ذلك كله إذا ثبت قوى الظن والرجاء في كون الفتح المنتظر والنصر الموعود به يكون من جهتهم وأورد فيما أورد الحديث المشهور : «لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» وتأول أنه ينطبق على الأندلس وقال : «والقطر الأندلسي من أمكن البلاد في المغرب مع الانقطاع واكتناف العدو من كل جهة فلم يزل أهلها منذ فتحها الله على المسلمين في رباط وجهاد أبدا حالي الاجتماع والفتنة إذ لا يمكنهم خلافه مع خصائصها ومآثرها في كثرة علمائها وصالحيها ونجدة عامريها»(112)؛ ومن هذا موازنته بين أمراء الأندلس العرب في وقته وأمراء الأقطار الإسلامية الأخرى الذين ليسوا من العرب، قال : «أما صقعنا الأندلسي فقد اختص الآن في الأرض وعمارة الإسلام بمنصوص على أهليته لمعلوم انتمائه وعلى اعتزائه» ويقصد بهذا الأمراء النصريين الأنصاريين، ونكاد نشم رائحة التعصب لبلده وأميره من قوله في معرض الإشارة إلى وفادة السلطان محمد الفقيه على السلطان المريني في طنجة معتذرا إلَيْه ومستنجدا إياه : «وقد أفصح له الوجود، إلى أين يا منصور وأنت المقصود، ما كان غيرك لمثلها ليعد ويحمد، وأنت الناصر

---

(111) ملاك التأويل 1 : 146 ــ 147 والبرهان : 181.

(112) الزمان والمكان : وقد ذهب بقية الكلام في سرد فضائل الأندلس بسبب بتر وقع في المخطوط.

الغالب بالله محمد بن محمد»[113] فكأنه يشير إلى أن أميره لم يكن في حاجة إلى نجدة السلطان المريني، وقد وقع هنا رحمه الله في شيء من الهوى إذ لولا بنو مرين لما قامت لبني نصر قائمة ولولا جهادهم في الأندلس ودفاعهم عما بقي منها لما عاش فيها المسلمون ما شاء الله أن يعيشوه، وقد أشار ابن الزبير إلى بعض غناء أهل العدوة ولكنه نسبه إلى السلطان النصري قال : «وقد كان رضي الله عنه خلال ما ذكر من مدة الاستعداد، يستعطف كل من دانى الصقع الأندلسي من البلاد من كل متصف بدين أو مقدم في شجاعة أو نجدة أو تدبير قبيلة أو جماعة، يصلهم بالإحسان، ويأخذهم بكل مأخذ، ويعدهم مرغّبا في الجهاد، ويحثهم على التأهب له والاستعداد، حتى تهيأت إجابتهم عند الحاجة، ثم والى الواردين منهم من الإحسان ما حبّب لمن وراءه الإنابة، فأسرع الإجابة»[114] فانظر كيف أغمض ابن الزبير الحديث في هذه الفقرة الموجزة عن ليوث بني مرين الذين أطنبت الحوليات التاريخية القديمة[115] والأطروحات الجامعية الحديثة[116] فيما كان لهم من شأن بالأندلس، وما أبعد الفرق بين ابن الزبير وابن الخطيب مثلا في هذا الموضوع، ولعلّنا نلتمس العذر لابن الزبير أنه كتب رسالته هذه في أعقاب وحشة بين السلطان النصري والسلطان المريني ثم إن الموضوع يخصّص كما يقولون، ومهما يكن من أمر فمن عادة الناس في كل زمان ومكان أن ينتصروا لبلدانهم وذويهم

وإذا كان ابن الزبير الأندلسي قد تأول — كما رأينا — حديث «لايزال أهل المغرب» على أن المقصود به هو القطر الأندلسي فإن معاصره ابن المرحّل رأى أن المعني به هو القطر المغربي ورجا أن يكون المرينيون هم الطائفة المقصودة قال من قصيدة في مدح أمير المسلمين يعقوب :

وَقدْ قالَ خيْرُ العالمينَ محمّدٌ ... يكونُ لكُمْ بَعْدِي لَدى الغَرْبِ مَعْشرُ
بِهِمْ يَعْتلي الإسلامُ بعْدَ امتهانِهِ ... ويرجعُ في أثْوابه يَتَبَخْتَرُ

---

(113) الزمان والمكان.

(114) نفسه.

(115) منها الأنيس المطرب والذخيرة السنية واللمحة البدرية والإحاطة ونظم السلوك والعبر.

(116) اذكر منها على سبيل المثال أحدثها ظهورا وهي : التدخل المريني في جزيرة الأندلس للدكتور ميجيل مانزانو.

وأرجو مِن الرحْمن أنَّكَ مِنهمُ   فَفِي فِعْلِكُمْ هَدْيُ المآثِرِ يَظْهَرُ[117]

وقد بلغ به حبّ الأندلس أن اعتبرها تمثل «كل معمور الإسلام» قال : «إن بلاد الروم على انتشارها وتباعد أطرافها وتكاثف بلادها إنما تتصل ببلاد المسلمين من طرفيْها الشامي والأندلسي كما تقدم والجهة الأندلسية أمكن في مجاورتها وأوغل في الاتصال والقرب وقد بيّن هذا قبل، **فكان القطر من حيث ذكر هو كل معمور الإسلام** وإذا كان على ما ذكرنا فلا توقف في إمكان ما قدّمناه، ثم من المعلوم أنه ما كانت الجهات والأقاليم أحمد حالا في الملاحظ الشرعية والصفات المحمودة كانت أولى بالتهمم الشرعي بها وآثر عند ذوي الاعتناء الديني، ولا نظير للأندلس في هذا ولاسيما في أجلّ المطالب الأخروية وأعودها بسعادة الدارين وهو الجهاد والرباط الذي خير الدنيا والآخرة مربوط به اعتزازا في الدنيا وفوزاً في الآخرة، وإلى المواطن المتحصّل ذلك فيها رحلة ذوي الجلالة في الدين، **فالصقع الأندلسي متنزِّلٌ في هذا منزلة كل الأرض** والقائم بأمره بهذا النظر كأن كلّ أهل الإسلام تحت إيالته **فله التقدّم شرعا والرتبة السامية في ملوك الإسلام وإنما يشكر سائرهم شرعا بصرف هممهم إليه والدعاء له والمعونة بكل ما يمكنهم فإنه الحافظ لأعظم ثغور الإسلام والذّابّ عن حريم الدّين بجملته والمانع للعدو من الاطلاع على عورات الجهات الإسلامية، فله اليد العليا والمقام الأسنى**»[118].

ولاشكّ أن انبعاثه لتأليف كتاب الإعلام، بمن ختم به القطر الأندلسي من الاعلام وكتاب صلة الصّلة كان بباعث من حبهِ للصّقع الأندلسي وحرصه على التعريف برجاله، ولعلّه أشار إلى هذا في خطبتي الكتابين المذكورين.

ونصل في آخر هذا التقديم إلى الكلام على النسخة المخطوطة من كتاب الزمان والمكان، وهي نسخة توجد بالخزانة الحسنية العامرة تحت رقم 12642 وهي منتسخة عام 695هـ وهذا هو تاريخ تأليف الكتاب أيضا، وقد تقدمت الإشارة إلى أنّ التاريخ المذكور هو السبب في تأليفه ويدل هذا كله على أن النسخة أصلية

---

(117) الذخيرة السنية : 127.

(118) الزمان والمكان.

ولعلها النسخة الأم، وقد كتب الشيخ عبد الحي الكتاني على ظهر الورقة الأولى منها ما يلي : «هذا المجلّد بخط مؤلفه الحافظ أبي جعفر ابن الزبير المتوفى سنة 708 وهو مترجم في كتابنا فهرس الفهارس ولعل هذه النسخة هي الوحيدة في العالم الإسلامي. قاله وكتبه محمد عبد الحي الكتاني». أمّا كون هذه المخطوطة بخط ابن الزبير فأمر فيه نظر، وذلك أنها تشتمل على نوعين متغايرين من الخطوط : نجد أحدهما في طالعة الكتاب بين البسملة والحمدلة وهذا فيما نقدم هو خط ابن الزبير ونجده كذلك في بعض الالحاقات التي استدركت في الطّرر، والنوع الثاني هو الذي انتسخ به الكتاب في مجمله ونقدر أنه أحد تلاميذه.

وأما كون هذه النسخة وحيدة في العالم فهو المعروف إلى الآن، وينبغي التذكير بأن ابن الخطيب هو الوحيد الذي ذكر كتاب الزمان والمكان، وقد وصفه بما يدل على أنه اطلع عليه، وربّما دلّ هذا على أن الكتاب لم ينتشر ولم تُنتسخ منه نسخ متعدّدة، ولهذا لم يذكره ابن عبد الملك ولا غيره من معاصري ابن الزبير الذين ترجموا له، ولا يوجد له كذلك ذكر في كتب البرامج والفهارس المعروفة، ومن هنا تكون هذه النسخة هي الأم، ولسنا ندري هل هي التي اطلع عليها ابن الخطيب أم أنه اطلع على غيرها، وعلى كل حال فإن هذه النسخة التي قاومت عوادي الزمن ووصلت إلينا سليمة تتميز بجمال خطّها وصحّة ضبطها وتمام مقابلتها، ويوجد في ظهر الورقة الأولى منها تملّك مؤرّخ لا نتحقق مصداقيته وهذا نصه : «الحمد لله، من مشتريات العبد الفقير إلى الله أبي بكر بن محمد... العثماني وفقه الله تعالى ولطف به آمين بتاريخ أوائل شهر رمضان المعظم عام ثمانين وتسعمائة»[119]. ولم نتمكن من العثور على شيء بخصوص هذا المتملّك، ومما يؤسف له ضياع ورقة من وسط الكتاب، ولكن هذا لم يمنعنا من الإقدام على نشره نظرا لأصالته وطرافته.

وقد قمنا بتحقيق متّنه وضبطه وتفصيل فِقَره وتخريج ما ورد فيه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، ولم نشأ أن نثقله بكثرة الحواشي أو طولها، واقتصرنا على

---

(119) يوجد تملُّك آخر بداخل الدفّة الأولى للمخطوط وهذا نصّه : «ملك لله تعالى في يد الفقير إلى عفوه الغني به عمن سواه محمد بن حمزة أخذ الله بيده». ولا نَدري أهو حفيد أبي سالم العياشي أم غيره.

بعض التعليقات الخفيفة والقصيرة، وزوّدناه في الأخير بالفهارس الضرورية والمفيدة.

وإنا لنرجو أن نكون — بنشرنا هذا الأثر من آثار ابن الزبير — قد أضفنا جديدا إلى مكتبته خصوصا وإلى المكتبة الأندلسية عموما والحمد لله أولا وأخيرا.



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد و[illegible]

يقول عبد الله احمد ابن ابراهيم بن الزبير بن محمد بن ابراهيم [illegible]
الثقفي [illegible] العاصمي الجياني وفقه الله وعفا عنه بفضله

الحمد لله خالق الانوار ومدبر الاعصار ومولج
الليل في النهار جاعل الابصار للاستبصار ومنور
الافكار بنور الاعتبار فهادي من شاء من عباده
الى فهم ذلك [illegible] ومضل من شاء فيما ينفعه
بالاسماع والابصار نحمده حمد من علم
ان كل شيء عنده بمقدار ونشكره شكر من
تحقق شمول انعامه واحسانه في الايراد والاصدار
ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له العزيز
المهيمن الغفار ونشهد ان محمدا عبده ورسوله المصطفى
من خليقته في [illegible] واكرم نجار الموعود
امته بفتح ما زوي له صلى الله عليه وسلم حين زويت
له الارض من الاقطار الشاسعة والامصار صلى الله
عليه وعلى آله واصحابه الذين هم خيار من المهاجرين
والانصار الرحماء بينهم اشداء على الكفار [illegible]

الصفحة الأولى من المخطوط

والا سنقصا بانه احسن بيه ومن نقص [illegible] من منه
القرن الذي اورد له صحة ما اعتبره وانا لم نخرج به عن ما
ان نكتبه [illegible] بل الكل مجموع على تسليمه ومن له
بعض منهم على بعض ذلك فلذي جميع را، وطهلد [illegible] فذلك
ذلك التغلو [illegible] يعارضها جزا التسمية ومن تقدمه في
اشتراكه على نها منهم الائمة بانه بما اشترك ما اجمع عليه
المسلمون في امر الساعة بانه لن يدع علما بل حسبنا الظن
والتخمين والله اعلم بحقيقة ذلك وان انتهى ما تيسر من ان نطول
به **والحمد** لله على ما من به ونسئله سبحانه المزيد
من فضله والمزيد من نعمائه وان يمن بالنص والتابين والفتح
المبين من اخبار لسان الفطر الغريب وان يبلغه اماله دنيا وديني
عمره ونيل الزيادة الكاملة وان يجعلها كلمة باقية في عقبهم
الى يوم الدين وان نختم بالصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام
المرسلين وعلى آله وصحبه اجمعين والحمد لله رب العالمين

ومولانا

انتهى هذا الكتاب بحمد الله وعونه وصلى الله على محمد [illegible]
من خلقه وسلم تسليما وذلك في يوم الجمعة الثاني لجمادى الاولى عام خمسة وتسعين وسبعمائة

الصفحة الأخيرة من المخطوط

الباب الرابع في إقامة الدليل على صحة إنكار ما قررناه من التأويل

صفحة من وسط المخطوط

كتاب تعيين الأوان والمكان
للنصر الموعود به في آخر الزمان
مستقرأ من صحيح السنة ومحكم القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ الرّحْمَن الرّحيم وصلّى اللَّهُ على سَيِّدنا محَمّد وآلِه وسَلّم.

يقولُ عبدُ اللَّه أحْمَد بْنُ إبراهيم بْنِ الزُّبير بْنِ محمّد بن إبراهيم بن الزُّبير الثّقفي ثُمّ العاصِمي الْجَيّاني وفّقهُ اللّه وعَفا عَنْه بفَضْلِه :

الحَمْد لِلَّه خالقِ الأَنْوار، ومُدبّر الأَعْصار، ومُولِج اللّيلِ في النّهار، جاعِلِ الأَبْصار للاسْتِبْصار، ومُنَوِّر الأَفْكار بنُور الاعْتِبار، هادي مَنْ شاء مِنْ عبادِه إلى فَهْم دقائِقِ الأَسْرارِ، ومُضِلّ مَن شاء فَما انْتفعوا بالأَسْماع والأَبْصار، نَحْمَده حَمْدَ مَنْ عَلِم أنّ كلّ شَيْءٍ عندَهُ بمِقْدار، ونشكُرُه شُكْرَ مَن تحقّق شُمول إنْعَامِهِ وإحسانِه في الإيراد والإصدار، ونشْهَدُ أن لا إِلاَه إلا اللّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ العزيزُ المُهَيْمِن القَهّار، ونشْهَد أنّ محمّداً عَبْدُه ورسولُه المُصْطفى من خَليقَته في أشْرف خِيمٍ وأكْرم نِجار، الموْعودِ في أُمّته بفَتْح ما أُرِيَه ﷺ حينَ زُوِيَتْ له الأَرْضُ من الأَقطار الشّاسِعة والأَمْصار، صلّى اللّه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه البَرَرَة الأَخْيار، مِن الْمُهاجِرين والأنصار، الرُّحَماءِ بيْنَهم الأَشِدّاء على الكُفّار، وتابِعيهِمْ / بإحسان عَلَى مُرور الدّهور والأَعصار، ما تعاقبَ اللّيْلُ والنّهار، وتوالَى مَحْقُ الظّلام بضِياء الإسْفار، وسلم كثيراً. 1و.

أَما بعدُ، فإنّ اللّهَ سبحانَه وعدَ الشّاكرين مزيدَ الإحسان، ونطقَ بذلِكَ مُحْكمُ الْقرآن، قالَ سُبحانَهُ وتعالَى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، ورُؤْيةُ النِّعَم مِنْ دلائلِ الإيمانِ، والتّعامي عنْها مِن الضّلال والْخِذْلان، والتحدّثُ بها شُكْرٌ مَشْروع، وَمَتْلُوٌّ في كتاب اللّهِ مَسْمُوع، قالَ تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2] ونعمتُهُ سُبْحانَهُ وَإنْ فاتَت الإحصاءَ والْعدّ، وَعَظُمَت عنْ أنْ يُحاط بِهَا بِرَسْمٍ أوْحَدّ، فإنّما ترجعُ بلحْظِ كِيانِها، واسْتِطلاع مظانِّها، إلى ثلاثةِ

(1) سورة إبراهيم 7.

(2) سورة الضحى 11.

ضُروبٍ : دينية، ودُنْياوية، وما يَجْمَع الوَصْفَيْن، ويُحْرِزُ الفَوْزين، والأَنْواعُ الدّاخلةُ تحت هذه الأَجْناسِ الثّلاثة لا تُحْصَى فضْلاً عَنْ آحادِ أَشخاصِها بَلِ المُتَشَخّصُ مِنْهَا بالْمَحَلّ والصِّفة. لا يَنْحَصِر تَكَرَّر أَوْ تَنَوّع صِفة، فسُبْحانَ مَنْ نِعَمُه لا تُحْصَى.

والضّرْبُ الثّالثُ هُو أعلاها مَقاماً وأَسْناها إسْداءً وإنعاما، وهُو الْمَشْرُوعُ لَنا طَلَبُه في قَوْلِه تَعالى : ﴿رَبّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذَابَ / النَّار﴾[3]. 1ظ.

ثُمَّ هُوَ عَلَى ضَرْبَين خاصٍّ وعامٍّ، والعامُّ أجلُّ الضَّرْبَيْن وأَعْلى المَطْلَبَيْن، ثُمّ هُوَ عَلَى عُمومِه على ضَرْبَين، مِنْهُ ما يَتَقَيّدُ بزَمانٍ أَوْ حالٍ أو أَشْخاصٍ فيكونُ عمومُه مِنْ حَيْثُ انتِشارُه في ذلكَ الزّمان وَأُولَئِكَ الأَشخاصِ، أَوْ بوَصْفه فَلا يكونُ سَبَباً في غَيْرِه فيَعُمّ مَنْ نِيطَ بِهِ عَلَى الاسْتِيفاءِ إلاّ أَنّه لا يَتَسَبَّبُ عنْهُ غَيْرُه فعمومُه بشُمولِهِ كُلَّ ذِي حاجةٍ إِلَيْه، وخُصوصُه مِنْ حَيْثُ لَمْ يُسَبِّبْ غَيْرَه.

وَأَعْلَى الضَّرْبَيْن ما اتَّصَفَ بالعُموم في لُحوقِه والإطلاقِ في صِفَتِه، فَهَذا أَسْنى ضُروبِ الإنْعامِ، والَّذي عَنْ شُكْرِه تَكِلّ الأَلْسِنَةُ والأَفْهام، أَلاَ تَرى قَوْلَه سُبْحانَه لأَهْلِ الجَنّةِ عنْدَ الْمَزِيدِ : فإنّ لكُم عِنْدي أَعْظَمَ مِنْ ذلِك رِضَائِي عَنْكُم فَلا أَسْخَط عَلَيْكُمْ أَبداً[4]. فَفي طَيّ هذا الإنعام كُلُّ نَعيم ولَذّة وسُرور مِمَّا لاَ يَتناهى وَلاَ يُحْصَى، وَلَوْ كَانَ هَذا الإنعامُ الْجَسيمُ يوازِن تَبْييضَ وُجوهِهِمْ وَإِدْخالَهم الجَنّةَ لَمَا جَعَلَهُ سُبْحانَه أَكْثَرَ، فَإِنّما كانَ أَكْثَرَ بِكَوْنِهِ سَبَباً فيما لاَ يُحْصَى مِنْ تَوَالِي الأَفْراحِ والسُّرورِ وتَكَرُّرِ ذلك وَتَوارُدِهِ.

وَإنّ مِنْ هذا الإنْعام / الْعَامِّ الْمُطْلَقِ الشَّامِلِ ما أَسْفَر عَنْهُ هَذا الزَّمان، وَجاءَ بِهِ الرَّحْمن، مِنْ هَذا الْفَتْح الْعَظيم، والإِنْعامِ الْجَسيم، عَلَى يَدَيْ مَنْ شَهِدَ لَهُ أَثَرُه، وَتَعَاضَدَتْ أَثَرُه، وطابَ سَعْيُه وَخَبَرُه، سَيّدُنا وَمَوْلانا الْمَنْصُورُ أَمِيرُ 2و.

(3) سورة البقرة 201.

(4) انظر نصّ هذا الحديث في صحيح البخاري في باب كلام الرب مع أهل الجنة.

المُسْلِمين وناصِرُ الدِّين أَبو عبد اللَّه ابْنُ سيّدِنا وَمَوْلانا أميرِ الْمُسْلمين المُجاهِدِ في سَبيل اللَّه والغالِبِ به أبِي عبد اللَّه محمّد بْن يوسف بْن نصْر[5] أيّد اللَّه أمْرَهم، وأعَزّ نصْرَهم، وَأَبْقى أيّامَهُمْ على المُسْلمين، وَوالاَها بالنّصْر الجَسيم والفَتْح الْمُبين.

وإنِّي اعتبرْتُ هَذا الْفَتْحِ الَّذي جَلّ خطَرُه، وَعَظُمَ بِشَارَةً ورحْمَةً نَبَؤُهُ وَأَمْرُه، إلَى ما انجَرَّ في أيامِهِمْ منَ الْعَجَائِب والْبَشائر وَضَمَمْتُهُ إلَى ما تَقَرَّرَ فِي عِلْمي، وَوَقَرَ مُتَيَقَّناً في فَهْمي، مِمَّا خبَرُه مُسْتَفيض مُتظاهِر، وَمَعْناهُ مِنْ نصِّ السُّنَّةِ والْقُرْآنِ مَقْطوعٌ بِهِ مُتَواتِر، مِنْ نَصْرِ هذه الأُمَّةِ بِنَصِّ الشَّارِع ﷺ النَّصْرَ الَّذي لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ فِي آلإِسْلاَم نَظير وَهُو الْمُنْتَهِي فِيهِ الأَمْرُ بِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينية الْعُظْمَى[6].

2ظ. واعْتَبَرْتُ مواضِع مِن الْكِتابِ وصَحيحِ السّنّة مِمّا أَلْهَمَ اللَّهُ إلى / آعتبارِه وتأمّلتُ ما يُشيرُ منْ ذلك إلى أوان، مِن السُّنَّةِ والْقُرْآن، وَتَعْيينِ جِهَةٍ من الْمَعْمور، لِكِيانِ هذا الْخَبَرِ الْمَشْهور، فقامَتْ عِنْدي دلائِلُ تُشيرُ لأَرْضنا، وَوَقْتِنا وَإمامِنا، وَيَشْهَدُ لَها جُمْلَةُ قَرائن، وَيَعْضُدُها مَا فِي أَمْثالِ هذا المطلوب [مِن] الْبَراهِين، ورأَيْتُ إِبْداءَ ذَلِك وَإبْرازَه عَنْ غَيْب فِكْري، لشاهِدِ تسْطيري وذِكْري، وتحصّلَ لي بيانُ هذا الأَمْر الْخَطير، والْفَوْز الْكَبير في ثَلاثَةِ فُصول :

الفصْلُ الأَوَّل كالمُقَدّمة لِبناء هذا الْمَقصود.

والفَصْلُ الثّاني كالتَّمْهيد والْمَدْخَل.

والفَصْلُ الثّالث يتضَمّن الإِفْصاح بالْمَقْصود، ويَرْفَع لَهَف الظّمْآن بالشّروعِ في الْوُرود.

---

(5) يشير ابن الزبير إلى أوّل ملوك بني نصر محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله ويلقب أيضاً بالشيخ (591هـ ــ 691هـ) وإلى ولده محمّد الملقّب بالفقيه (633هـ ــ 701هـ).

(6) تحقّق فتح القسطنطينية سنة 857هـ / 1453م وذلك بعد قرن ونصف تقريباً من تاريخ كتابة هذه الرسالة.

وفي هذه الْفُصولِ الثّلاثَة تَحصّلَ لي ما قَصَدتُه، وَكَمُل ما فَهِمْت مِنْ إشاراتِ آياتٍ وَأَحاديثٍ ورَأَيْتُهُ.

الفَصْلُ الأَوَّل وهو المُقَدّمة، ويشتمل على بابين :

البابُ الأوّل في الأَدِلّة الْقُرآنية.

والبابُ الثّاني في الأَدلّةِ السُّنّية.

ومدَارُهُما عَلَى أنّ هذِه الأُمّة وُعِدَتْ بِنَصرٍ عَظيم، وَفَتْحٍ جَسيم واسْتِيلاءٍ عَلى فارسٍ والرُّوم عَلَى غايَةٍ لَمْ / يَتَقَدَّمْ نَظِيرُها وَأَنّ اسْتيفاءَ هذا الْوَعْدِ كائِنٌ لا مَحالَة. 3و.

أمّا فارِسُ فَقَد نَجَز اللّهُ الْوَعْد فيهم في صَدْرِ الإِسْلام وكانَتْ أَعْظَمَ الْفِئَتَيْن، وقَدْ أَعْلَمَ عليْه السَّلامُ أَنّ ما وُعِدَ فيهِمْ يَكونُ في حياةِ مَنْ تَأَخّرَ مَوْتُه مِنْ أَصْحابه رَضِيِ اللّهُ عَنْهمْ حينَ قالَ لِسُرَاقَةَ : «كَيْفَ أَنْتَ إذا وُضِعَ تاجُ كِسْرَى عَلَى رَأْسِكَ»[7] فَلمّا أُتِي بِهِ عُمَرُ وضعَهُ علَى رَأْسِ سُرَاقَةَ[8] وقطعَ اللّهُ دابرَ كِسْرَى ومزّقَهُمْ كُلَّ مُمَزّق.

وَأَمّا الرُّومُ فإنه عليه السّلامُ أَخبرَ بتأخير أمْرِهم في قوْلِهِ : «الرّومُ ذاتُ قُرونٍ إلى آخِرِ الدّهْرِ»[9] إلَى أَحاديثَ أُخر، وَأَفْصَحَتْ أحاديثُ أَنّ ما وُعِدَتْ بِه هذه الأُمّة فيهِمْ كائنٌ لا مَحالَةَ بذلك، وتَتوالَى إلى فَتْح القُسْطَنْطِينية الْعُظْمى فَثَمّ يظْهَرُ الدّجّالُ ثُمّ ينزلُ عيس عَلَيْه السّلام فيقْتُلُ الدّجّالَ[10] وَيَسْتَوْفِي بذلك المُسْلمونَ ما وُعِدوا بِهِ مِنْ كَمال الْفَتْح حَتّى يصيرَ الدِّين في / الأَرْضِ كُلِّها واحداً. 3ظ.

وسنُبَيّن في الفصل الثالث اسْتِحْقاقَهُ في صُقْعِنا الأَنْدَلُسِيّ بانْتِشارِ هذا الفَتْح، وتوفّرِ حَظّ أَهْلِه مِنْ هذا الخَيْرِ الجَسيم والْمَنْحِ ؛ ولعَلّ القُسْطَنْطِينية مَحَلّ

---

(7)، (8) راجع هذا على سبيل المثال في ترجمة سراقة من كتاب الاستيعاب 2 : 581.

(9) لم أقف على هذا الحديث والذي في صحيح مسلم وغيره، هو حديث المستورد بن شداد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقوم الساعة والروم أكثر الناس.
راجع كتاب الفتن وأشراط الساعة من صحيح مسلم.

(10) انظر أبواب الفتن في صحيح الترمذي بشرح ابن العربي 9 : 91، 98.

الاجْتِماع والالْتِئام، لِما أَشارَت الأَحاديثُ مِنْ ظُهورِ الْمَهْدي رَضِي اللَّهُ عَنْهُ آخِرَ هذا الأَمْر بالشّام[11]، وذلكَ منَ الْخَبَرِ تَلْويح، لاَ مَنْصوصٌ صَريح ؛ أَعْنِي موضِعَ كِيانِه، وَتَعْيينَ أُوانِه ؛ أَمَّا ما وَراءَ تَعْيينِ الْمَكانِ وَالأَوان فآتٍ بِهِ وَإِنْ مَطَلَ بِالدَّبْرَةِ الزّمان، كما أن الْفَتْحَ كائِنٌ لا محالَة، وبتَأَخّرِه إلى وَقْتِنا هَذَا وَرَدَتِ الإحالَة، وَبَعْد كَمال ما ذُكِر إلى أَقْصى ٱلْمُتَوَهّم مِن الْغايات، يكونُ ابْتداءُ ما عَظُمَ بَيْن يَدَي السّاعَةِ مِنَ الآيات.

فأقولُ مستعيناً باللهِ سُبْحانَهُ : إنّ الإخْبارَ بما تقدّم مِن الوَعْد الجَميلِ مَوْجود في كتابِ اللّهِ سُبْحانَه وفي صَحيح الآثار وَهُو فيها أَنصُّ وَأَبْينُ بحيثُ لا يُحْتاجُ فيه إلى تَكلُّف ونحن نَذْكُرُ ما وَرَد في الْمُعْتَصَمَيْنِ عَلَى إيجازٍ وتَقْريبٍ يُحصِّلُ المَقْصود إنْ شَاءَ ٱللّهُ.

4و. فاعْلَمْ أولا أنّ مُعْجزاتِ الْقُرآن / وآياتِه الْعِظام لا تَنْحَصِرُ ولا تُحْصَى، وَمِنْ جُمْلَتِها مَا انْطَوَى عليْهِ من الْغُيوب، ومنْهُ ما لا إشْكالَ فيه كقَوْلِه سُبْحانه : ﴿إنّ الّذي فرضَ عليْكَ الْقُرآنَ لرادُّك إلى مَعادٍ﴾[12] فأخبرَ سُبحانَه نَبيّه عَليه السَّلامُ حينَ هاجَرَ منْ مكّةَ وخرجَ عَنْها أنّه سيَردُّه إليها ويُملِّكُه إيّاها ويُرْغِمُ عدُوّه. وقَوْله سبحانَه : ﴿إنّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزئين﴾[13] وقد كانَ ﷺ وَجَدَ منْ أمرِهِمْ ووَدّ كِفايَتَهُمْ ففعَلَ اللّهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُمْ مِنْ حينِهم وأراحَ منْهُم وكانوا نَفَراً بمكّة يُنَفّرونَ النّاس عنه وَيُؤْذونَه فلمّا نزلَت الآياتُ بَشّر ﷺ أَصْحابَه بأنّ اللّهَ كفاهُ إيّاهمْ فهَلَكوا بجُمْلَتِهِمْ. وقَوْلِه سبحانه : ﴿وَعَدَ ٱللّهُ الذينَ آمَنوا مِنْكُمْ وعمِلوا الصّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهم في الأَرْضِ﴾[14]. وهذا خِطابٌ لِلْمُواجَهين المَوْجودين وقْتَ نُزولِ الْوَحْي لقولِه : «مِنْكُم». فاسْتَخْلَفَ مِنْهُمْ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ وَعُثْمانَ وَعَلِيّاً

(11) راجع عقد الدرر في أخبار المهدي المنتظر ليوسف بن يحيى المقدسي، تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، ط. مصر 1399هـ / 1979م.

(12) سورة القصص 85.

(13) سورة الحجر 95.

(14) سورة النور 55.

4ظ. كما وعَدَ سبحانه وقولِه سُبْحانه : ﴿قُلْ لِلمُخَلّفينَ / مِن الأعْرابِ سَتُدْعَوْن إلى قومٍ أولي بأْسٍ شَديدٍ﴾[15] فاسْتُدْعوا أيّامَ أَبي بكر رضيَ اللَّهُ عنه إلى قِتال مُسَيْلمة الكذَّابِ وأَصحابِهِ مِنْ أَهْلِ الْيمامة ؛ وقَوْلِه سُبْحانه : ﴿غُلِبَت الرُّومُ في أَدْنى الأَرْضِ وهُمْ مِنْ بَعْد غَلَبِهِمْ سَيَغْلبونَ في بِضْعِ سِنينَ﴾[16]. والبِضْعُ ما بَيْنَ الثّلاثِ إلَى التِّسع، فكانَ كذلِك، في قصَصٍ اسْتَوْفاها المفَسِّرون ؛ وقَوْلِه سُبْحانَه : ﴿فإنْ لَمْ تَفْعلوا ولَنْ تَفْعلوا﴾[17] فأخبرَ سُبْحانَه أنّهم لَنْ يفعلوا عَلى جِدّهم واجْتهادِهِمْ في إطْفاء نورِ آللَّه فَما نَبَسُوا بِبِنْتِ شَفَة ؛ وقولِهِ سُبحانَه لِيَهُود : ﴿وَلَنْ يَتَمَنّوهُ أَبداً﴾[18]. فَمَا تَمنّاهُ رجلٌ منهُمْ وَلاَ فاهَ بذلِكَ مَعَ قُرْب مَرَام ما طُلِبوا بِهِ وبُعْدِه عن التكَلّفِ جُمْلةً إلى ما وَرَدَ مِنْ هذا وَهُوَ كثيرٌ جدّاً وَبَيِّنٌ. وَمِنْهُ ما فيهِ إشْكالٌ وغُموضٌ وَكَثيرٌ مِنْه لا يَعْثُر عليْه إلاّ آحادٌ ممّنْ جدّ في الاعْتبار، وأَخْلصَ في السَّريرةِ الإضْمار، بعد الاجْتِهادِ وتَحْصيل الموادِّ الْعِلْمِيّة واللَّهُ يَخْتَصّ بفَضْلِهِ مَنْ يشاءُ.

5و. **وقَدْ كانَ بقُطْرنا الأَنْدَلُسيّ مَنْ يَسْتَخْرِجُ فِيهِ الْغُيوبَ مِن الْكَوائِنِ / والْوَقائِع وَيُعَيّنُ زَمانَها وَكَيْفِيّة اسْتِقْراءِ ذَلِك**[19] ؛ ومن الْقِسْم المُتوسِّطِ بينَ الغُموضِ والإشكالِ تَعَلُّقُنا فيما نَرومُه من الاسْتِدلال ؛ فلنَشْرَعْ فيه مُسْتعيذاً باللَّه سُبْحانَه ممّا يُنافِرُ الصَّوابَ ويُنافِيه.

البابُ الأوّلُ في الأدلّةِ القُرْآنِيّة :

أقولُ وأسألُ اللَّه التّوفيق : إنَّ ممّا يدُلّ على ما قَدّمناهُ مِنْ كتابِ آللَّهِ سُبْحانَه قولُه تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ

(15) سورة الفتح 16.

(16) سورة الروم 3.

(17) سورة البقرة 24.

(18) سورة البقرة 95.

(19) لعلّه يشير إلى مَسْلَمة المجريطي ومن جاء بعده، راجع مقدمة ابن خلدون.

الصّالِحون﴾[20]. واسْمُ الأَرْضِ عامٌّ لجَميعها، والصّالحون الْمومِنونَ مِنْ كُلِّ جِيل وفي كُلّ زَمان. والإخبارُ للأمّة لا يخُصّ قَرْنا دون قَرْن، وفي مَفْهومِنا هذا دَعاوٍ لابُدّ مِنْ بيانِها والإجابةِ عمّا يَرِد عَلَيْها : مِنْها أنّ المُرادَ أَرْضُ الدُّنْيا، وَمِنْها ادّعاءُ الْعُموم، فَلِقائلٍ أنْ يقولَ : المُراد أَرْضُ الجَنّة كَما في قَوْلِه تَعالى : ﴿وَأَوْرَثْنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ من الجَنّةِ حيْثُ نَشاء﴾[21]. أَوْ أَرْضُ الشّام، فَلاَ يكونُ عامّا. فَأَمّا الأَوَّل فَتَرْكٌ للظّاهِرِ السّابِقِ لِلْفَهْم لغَيْر حامِل، أَمَّا في قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأَوْرَثْنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِن الْجَنّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[22] فالسّياقُ دليلٌ عَلَى أَنّ المُرادَ أَرْضُ الجَنّة فالوَجْه في الآيةِ الأُخْرى / أنْ يكونَ إخْباراً عَنْ حالِهِم في الدُّنْيا. وأَمّا مَنْ قالَ هي أَرْضُ الشّام يَرِثُها أُمّةُ محمّدٍ ﷺ فَهذا أَقْرَبُ مِنَ الأَوَّلِ وَلَكِنْ يُباعِدُه آدّعاءِ التّخْصيص. 5ظ

فَإنْ قيلَ قَدْ وَرَدَ مثْلُه ممّا ظاهِرُه التّعميمُ مَع خُصوصِه، قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنا الْقَوْمَ الّذينَ كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَها﴾[23] وَلاَشَكَّ أَنّ المُرادَ الْخُصوص.

فالجوابُ أنّ الْعُموم هُنا مُنْتفٍ عَنْ كُلٍّ من المُضافَيْن، أَمّا المشارِقُ والْمَغارب فَبِإضافَتِها إِلَى أَرْضٍ مَخْصُوصَةٍ، وأَمَّا خُصوصُ الأَرْضِ فَبِوَصْفِها بِقَوْلِهِ : ﴿الّتي بارَكْنا فِيهَا﴾[24] وَذَلِكَ كِنايةٌ عن خِصْبِها وتلْكَ صفةُ الشّام، وأَيضاً فقولُه تعالى : ﴿إنّ فِرْعَوْنَ عَلا في الأَرْضِ﴾[25] واضِحٌ أَنّ المرادَ أَرْضٌ مخصوصةٌ، فَفيها وما جاوَرَها وَقَعَ إِرْثُ بَنِي إسْرائيل، فالوَجْهُ في قَوِله : ﴿أَنّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِي الصّالِحون﴾ أَنْ يُرادَ بها عُمومُ الأَرْضِ.

وَأَمّا الصّالحون فعامٌّ لكلٍّ مُتّصِفٍ بالإيمان مُتّقٍ لِلّه سُبْحانَه في كُلّ زمان.

---

(20) سورة الانبياء 105.

(21)، (22) سورة الزمر 74.

(23)، (24) سورة الأعراف 137.

(25) سورة القصص 4.

فإنْ قيلَ لعلّ المرادَ الصّحابةُ رَضي اللَّهُ عَنْهُم الَّذينَ خُوطبوا بقَوْلِه سُبْحانَه :
6و. ﴿وَأَوْرَثَكُمْ / أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُم﴾[26] الآية فهذِه كَتِلْكَ.

قُلْتُ : قولُه سُبْحانَه : ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ خبرٌ قدْ وقَعَ وكانَ وتخصّصَ بمَنْ جَرَى لَه. أمّا ﴿يَرِثُها﴾ فأمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فَهُو مُنْتَظَرٌ، ثُمّ إنَّ الإضافة قَدْ خَصّصَتْ في قَوْلِه : ﴿ أَرْضَهم وديارَهُمْ﴾ فلا عُمومَ ؛/ فَإنْ قُلْت إنّ قَوْلَه تَعالى : ﴿يَرِثُها﴾ إخْبارٌ للصّحابَة فِيما وَرِثوهُ بَعْدَ نَبِيّهِمْ عَلَيْه السّلام مِنْ بِلادِ كِسْرى وقَيْصَر وَغَيْرِها.

قُلْتُ هذا التَّخصيص لا دليلَ عليه ؛/ فَإنْ قيل إنّ الصّحابةَ رَضيَ اللَّهُ عنْهم أَوْلى النَّاسِ بِالدّخول تحتَ اسْم الصّالحين وهُمْ لم يَرِثُوا مَا تَزْعُم أَنْتَ أنّه يُنْتَظَرُ.

قلْتُ إذا وَرِثهُ خَلَفُهم وَذُرِّيّتُهم فَقَدْ وَرِثوه هُمْ وأيضاً فإنّ الكُلّ وارثٌ ومُتَّصِفٌ باسْم الصّلاحِ فلكُلٍّ قِسْطُه، فورِث الصّحابةُ رضي اللَّهُ عنهُمْ ما قُسم لهُمْ وَيَرِثُ غيرُهم ما قُسم لهُ، وقد أَخْبَر عليه السَّلاَمُ بهذا في قوله : «زُوِيت لِيَ الأَرْضُ» الحديث[27]. فقَدْ أَخْبَرَ أَنّ أُمّتَه يرثونَ بَعْدَهُ قِسْطا لَمْ يتحصّلْ لمن كان في حياتِه وللمُتَقَدّم فضلُ السَّبْقِية ولهُمْ رَضِي اللَّهُ عَنْهُم خُصوصُ الصُّحبةِ،
6ظ. وهذا أَمْرٌ لا / يُدْركُه غَيْرُهم وهُمْ مَسْرورونَ بِما يَفْتَح اللَّهُ عَلَى خَلَفِهِمْ ومُسْتَبشِرونَ به، والْخِطابُ عامٌّ لهُمْ ولمَنْ بَعْدهم إلى يَوْم الْقِيامة.

فإنْ قلْتَ إنّ مَن بَعْدَهم قَد قَصَّر عن اجْتهادِهم وبُعْد صِيتِهمْ في العِبادات والْمَقامات الدِّينيّةِ فهُمْ أهْلُ اسْم الصّلاحِ.

قُلْتُ بلْ اسْمُ الصَّلاحِ بفضْلِ اللّه شامِلٌ لهم ولغَيْرِهِم ممّنْ تَمَسَّكَ بهَدْيِهِمْ وإن لَمْ يَبْلُغْ شأْوَهُم فقدْ قالَ عليه السَّلامُ فيمَنْ تَأَخّر مِن أُمّتِه وقصّر عَنْ شَأْوِ

(26) سورة الأحزاب 27.

(27) يشير إلى حديث ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «ان الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها» الحديث. وهو في كتاب الفتن واشراط الساعة من صحيح مسلم وفي أبواب الفتن من صحيح الترمذي.

مَنْ تَقَدّم : للْعامِلِ منْهُمْ أَجْرُ خَمْسينَ مِنكُمْ ؛ وقال سبحانه فألْحَق بمَنِّهِ وفضْلِه الخالِف بالسَّالِف ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ يَدْخُلونَها﴾ بَعْدَ قولِه عنْهُمْ : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بالْخَيْراتِ﴾ ثمّ سَوَّى بيْنَهم في قوله : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ يَدْخلُونَها﴾ بعْدَ جَعْلِه سبْحانَه جُمْلتَهُم ورَثَةً مُصْطَفَيْنَ في قوله : ﴿ثُمّ أَوْرَثْنا الكتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ ثُمّ قال : ﴿فمِنْهُم ظالِمٌ لنفْسِه وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمنهُمْ سابقٌ بالْخَيْرات﴾[28] فقسّم الوَرثَةَ إلى الأَصنافِ الثّلاثة، والظالِمُ لِنفسِه منهُمْ هُو المُسْرِف والْجاني عَلى نَفْسِه بمعْصية ما بقي لَه / أَصْلُ إيمانه سالِماً. والمقْتَصِد هُو المذْكورُ في قَوْلِه : ﴿خَلَطوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً﴾[29] والسّابِقُ بالْخَيْراتِ هُو الْمُسارِعُ إلى أَعْمال الطّاعاتِ واجْتِناب الْمُخالَفات فتأمّلْ دُخولَ الأَصْنافِ الثّلاثَةِ تحْتَ آسْم الاصْطِفاء والإرْثِ ومنْ حيثُ يُطْلَقُ عليه انّه ممّن اصْطُفِي يصِحّ إطلاق الصّلاحِ عَلَيْه إطلاقاً نِسْبِيّا بِمَا لَهُ مِنْ إسْلامِهِ وتَسْليمِهِ لِرَبِّه سُبْحانَهُ واعْتِرافِهِ بذنْبِهِ، فَقَدْ فارقَ بِهذا مَن آرْتَسَم بالْكُفْرِ.

وَلَوْ قَدَّرْنا اجتماعَ العالَم بجُمْلَتِه وانْحِيازَ أَهْلِ الكُفْر على شتَّى مُرْتَكَباتِهم في جِهَةٍ وَعِلْيَةَ المُتَعَبِّدين والمُتَقَدِّمين في أَعْمال الْبِرّ الّذينَ لَمْ يَقَعْ مِنْ أَحَدٍ منهم مَعْصِيةٌ في جهَةٍ أُخرَى وبيْنَ الفريقَيْنِ أَهْل الْمعاصي والظُّلْم لأنفسهم غير مُخْتَلِطين بأحدٍ منَ الفَريقَيْن. ثُمَّ نَادَى بِهؤُلاء الْعُصاةِ مُنادٍ لا تُمْكِنُ مخالفتُه إلاّ ليَلْحَق كُلُّ إنسانٍ بِحزْبِه من الفريقَيْن لَلَحِقَ هؤُلاء العُصاة بِفَريقِ المُتّقين وَتمسّكوا بِهِمْ، وهذا شاهِدٌ لنا في دُنْيانا فإنّا نَرَى العاصي مِنْ هذه الأُمّة إذا نزلَتْ بِهِ أَزْمةٌ أَوْ أَصابَتْه / شِدّة لَجأَ إلى أَهْلِ التّقْوى وتعلّقَ بهِمْ لأَنّهم آلُهُ وَحِزْبُهُ ما أَبْقى اللّهُ عليْهِ إسْلامَه فإنْ فارقَ الإسلامَ وأَخَلّ بالمُعْتَقَد لَحِقَ بأَهْلِ الكُفْر لا مَحالَةَ، وَقَدْ قَسَم سُبْحانه الْخَليقة بَيْنَ قِسْمَيْن لا ثالثَ لَهُما فقالَ سُبْحانَهُ : ﴿هُو الَّذي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكم مومِنٌ﴾[30] فَشَمِل قَوْلُه سبحانَهُ : ﴿ومِنْكُمْ مومِنٌ﴾ أصنافَ أَهْلِ الإيمانِ منْ صالِحٍ وطالِحٍ كما شَمِلَ اسْمُ الكُفْرِ ضُروب الكُفَّار.

(28) سورة فاطر 32.

(29) سورة التوبة 102.

(30) سورة التغابن 2.

علَى أَنَّ هذا الانفِصال لَمْ نُضْطَرّ إِلَيْه، فَإِنّ الْمُعْتَبَر منْ كُلّ فِرْقَة الَّذي بِه تُنْصَرُ أَوْ تُخْذلُ إنّما هُمْ قادَتُها ورُؤُوسُها وَإِنَّمَا مَنْ سِواهُم في جَرْي الأَحْكام الدُّنْياوِيّة تَبَعٌ.

أمّا أولوا الأَمْر فاستِقامَتُهُم رَحْمَةٌ تَعُمّ، وَصَلاحُهم نعْمَةٌ تَشْمَلُ الدَّاني والْقاصِي وَتَضُمّ. فإنَّهمْ مِنَ الخلْقِ بمنزلَةِ الْقَلْبِ من الْجَسَدِ صَلاحُهُ صَلاحُ الْجَسَدِ وبالْعَكْسِ، فَمِنْ أَحْوالِهم يُرْجى أَوْ يُخاف وَبصلاحِهِمْ يَصِحّ إطْلاقُ الصّلاح وجَرْيُ حُكْمِهِ في الدّنيا عَلَى كلِّ مَنْ كَانَ تَحْتَ إيالَتِهم ؛ ونحنُ بحمد اللَّه مِنْ هذِه الحالِ علَى ما نَسْأَله سبحانَه المزيدَ مِنْ فَضْلِه لِمَنْ وَلاّه اللّهُ وَأَنْ يُعينَهُ عَلَى مَا وَلاّه / وَيَحْفَظَه فِيمَا أَتاهُ ويزيدَهُ مِنْ فَضلِه، وحَسْبُنا أنّا لا نَعْلَمُ لَهُ اليَوْمَ في مُلوكِ الأَرْض مَنْ يُدانيهِ، فَضْلاً عَمّنْ يُساويهِ، فَهُو أَيّده اللَّهُ وَنَصَرَهُ في الإِرْثِ المَنْطوقِ بِهِ في قَوْلِه سُبْحانَه : ﴿يَرِثُها عبادِي الصّالِحون﴾ عاصِبٌ لاَ يُزَاحِمُه أحدٌ. 8و.

فصلٌ وَمِمّا يَدُلُّ مِنْ كتابِ ٱللَّهِ سُبْحانَه عَلَى ما تقدّم قولُه تعالى : ﴿وَعَدَكُم اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تأخذونَها﴾[31] وَهَذا عَلَى إطلاقِهِ لا يتعيّنُ بوقْتٍ دونَ وقْت ؛ ثمّ قال تعالى : ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِه﴾ فأشار سبحانه إلى الحاصِلِ لِلمُخاطَبين المَوْجودِين حينَ نزولِ هذا الإخبار وَتَنَجّزَ لهمْ هذا الوعْدُ الْكريم بما مَلّكهُم سُبْحانَه وحصلوا عَلَيْه من الْغَنائِم والْفُتُوح.

ثُمّ يُمْكن هُنا مَفْهومان : أَحدُهما أَنْ يُرادَ مِنْ ذلك ما وَقَعَ منْهُ على الاتّصالِ مُدّةَ حياتِهِمْ في أَيَّامِه ﷺ وبعْدَ وفاتِه إلى أَنْ دَرَجَ آخرُهمْ مَوْتا فَيَدْخلُ تحتَ هذا مَا مُنِحُوه مِنْ فَتْح الْعِراقِ والشّامِ ومِصْر وغَيْرِها من الْبلاَدِ إلَى فَقْدِ آخِر صَحَابِيّ في الأَرْض ؛ وَمِنْ آخِرِ هذا الفَتْحِ المُسَجَّلِ فَتْحُ الأَنْدلُسِ الأَوّلُ[32]

(31) سورة الفتح 48.

(32) لا أدري ماذا يقصد بالفتح الأول فالمعروف أن فتح الأندلس كان في سنة 92هـ ولعلّه يشير إلى سرية أبي زرعة التي وصلت إلى طريف سنة 91هـ أو أنه يعتبر دخول طارق فتحاً أول ودخول موسى فتحا ثانيا.

8ظ. والمَغْرِبِ، وبذلكَ يَنْقضي خِطابُ / المُوَاجَهينَ الحاضِرين وَما بَقِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ فكأَنّ الْجُمْلَةَ باقيةٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جميعِهِمْ، ثمّ يَبْقى ما يفْضُلُ لِمَنْ يأتي بعْدُ حسَبَ التّفصيلِ في الخِطاب، قالَ تَعَالَى : ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِروا عَلَيْها﴾[33] أيْ وَفُتوحاتٌ وَمَغانِمُ أُخْرَى خِلاف الحاصِلِ لِلْمُواجَهين رَضِي ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ تحَصّل لهُمْ عَلَى هَذا الْمَفْهومِ بِلادُ فارِس وأَمْوالُ كِسْرَى وكُنوزُه حَتَّى سِيقَ تاجُه إلى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وانْقَطَعَ الأثَرُ في كِسْرى وآلِه تَصْديقاً لقَوْلِهِ ﷺ : «إذا هَلكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ»[34]، ولقولِهِ لِسُراقَةَ : «كَيْفَ بِكَ إِذَا وُضِعَ تاجُ كِسْرَى عَلَى رأْسِكَ»[35] فوضعَه عُمرُ رضِيَ اللَّهُ عنه عَلَى رَأْسِه حينَ سيقَ لَهُ، وَأَوْرَثَ اللَّهُ الْمُسْلِمينَ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ بِاسْتيلائِهِمْ عَلَى الْعِراقَيْن[36] وحُصولِهِمْ عَلَى مُلْكِ كِسْرَى بجُمْلَتِه وكانَتْ مَمْلكتُه أَعْظَمَ مَمْلَكَةٍ في الأَرْضِ وأَضْخَمَها فَعجّل اللَّهُ للْمُسلمينَ أَمْرَ كِسْرى وَأَخذَهُ، وَكانَ سَبَبُ التَعجيلِ أنّه

9و. لَمّا بلغَه كتابُ رسولِ اللَّه ﷺ يدْعوه إلى الإسلام مَزّقهُ فقالَ ﷺ : «اللهُمّ / مَزِّقْ مُلْكه»[37] فَعجَّلَ اللَّهُ أَخذَه وَمَزّقَ مُلْكه كلّ مُمَزّق ولَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ وَلاَ عَيْنٌ تَطْرِفُ، وكانَ مِنْ قَدَر اللَّهِ سُبْحانَه أنّ هِرَقْل عظيمَ الرُّوم ونَظيرَ كِسْرَى في ضخامَةِ مَمْلَكَتِه لَمّا بلغَه كتابُ رسول اللَّه ﷺ لَمْ يفْعَلْ مَا فَعَلَ كِسْرَى بَلْ تَحَفَّى بالْكِتاب الْكَريم وَأَعْظَمَ أَمْرَه ودَعا مَنْ بِبِلاَدِهِ مِن التجّارِ مِنْ كُفَّارِ قُريش وغَيْرِهم فأُحْضِروا لَه ثُمّ سأَلَهُمْ وَحَوْله عُظماءُ الرّوم : أَيُّهُم أَقْربُ نسباً به ﷺ وكانَ فيهِمْ أَبو سُفْيان بْنُ حَرْب، وهو يَوْمئذ عَلَى شِرْكِه ومُعاداتِه لِرسول اللَّهِ ﷺ، قالَ أَبو سُفْيان فقُلْتُ : أَنا أَقْربُ نَسَباً بِهِ، فَأَمَرَ بِإِدْنائِه وَجَعَلَ أَصْحَابَهُ

---

(33) سورة الفتح 21.

(34) سيورده المؤلف بتمامه، وهو عند البخاري في باب قول النبي ﷺ : «أحلت لكم الغنائم» وأورده مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(35) تقدم ذكره.

(36) تطلق هذه التثنية على الكوفة والبصرة ولكن المقصود هنا ما كان يدعى بالعراق العربي والعراق العجمي.

(37) تقدم ذكره.

وَرَاءَه، وقالَ لتَرْجُمانِهِ : قُل لهُمْ إنِّي سائِلٌ هذا ــ يَعْنِي أَبا سفيان ــ عَنْ هَذَا الرّجُل فإنْ كَذَبَني فكَذّبوه، ثمّ سأَلَه عَنْ أَحْوالِهِ ﷺ سؤالَ تَفصيل، لا يصْدُر إلاّ عَنْ ذِي عَقْلٍ واطّلاَعٍ وتَحْصيل ؛ فَلمّا أتمّ السّؤالَ، واسْتَطْلَع عَظيمَ ذلِكَ الْجَلال، أَجابَ عَنْ كلّ فَصْلٍ بِما هُوَ ٱلْحَقّ لَوْ أُتِمّتْ لَهُ الْهِدَايَةُ ثمّ قالَ عَقِب / 9ظ. جَوَابِهِ بِمَحْضر عُظماءِ دينِه وأَصْحابه : إنْ كانَ ما تقولُ حَقّاً فَسَيَمْلِك مَوْضِعَ قَدَمَيّ هاتَيْن، وقدْ كنتُ أَعلَمُ أنّه خارجٌ ولَمْ أَكنْ أَظُنّ أَنّه منْكُم، فلَوْ أَعْلَمُ أنّي أَخْلُصُ إلَيْهِ لتجَشّمْتُ لِقاءَهُ ولَوْ كُنتُ عِنْدَه لغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِه[38] ؛ فَبِهذا الإذعانِ أُخّر آلُه وقَوْمُه إلَى هَذا الزّمان. وقدْ ذُكِرَ أَنّه عليه السّلام دَعَا لَهُ وَقَدْ قَالَ عَلَيه السّلام : «الرُّومُ ذاتُ قُرونٍ إلى آخِرِ الدَّهر»[39] وَالْعاقِبَةُ بَعْدُ لِلْمُتّقينَ والْوَرَثَةُ يَطْلبونَ إرْثَهُم وَهُو حاصلٌ لهم لا محالَة، فالاستيلاءُ عَلَى كُنوزِ الرّوم ومَمْلكتِهِمْ وفَتْحِ بِلادِهِمْ عَلَى الاسْتيفاءِ مِمّا لَمْ يَكُنْ في أَيّام أَحَدٍ من الصّحابَة حَتّى دَرَج آخرُهمْ هُوَ الْمُشارُ إلَيْه بِقَوْلِه تعالَى : ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِروا عَلَيْها﴾[40] وأشارَ بقولِه سُبْحانَه : ﴿لَمْ تَقْدِروا عَلَيْها﴾ إلَى عَظيمِ أَمْرِها وَأَنّهَا أَكْثرُ ممّا تحصّلَ لهُمْ واسْتَوْلَوْا عَلَيه. هَذا أحدُ المَفْهومَيْن.

والمفهومُ الثّاني يكونُ الْمُرادُ بِما عَجّلَ لهُمْ فَتْحَ مَكّة وخَيْبَر وقُرَيْظَة والنّظيرِ والطّائِفِ وما فُتِح في أَيّامِه مُدّة حياتِه ﷺ، وَيَكونُ الْمُرادُ بالأُخْرى ما فُتِحَ لَهُمْ بَعْدُ مِمّا تقَدّمَ / وما يُفْتَحُ عَلَى مَنْ بَعْدَهُم إلى يَوْمِ الْقِيامة، وعَلَى هذا الْمَفْهُوم 10و. فَسّرهُ النّاس، قال المُفسّرونَ عن ابْنِ عَبّاس : المُرادُ فَتْحُ قُسْطَنْطِينية وَرُومِية ومَدائِن فارِس والرّوم والشّام. ذكرهُ الْغَزْنَوي[41]. وقالَ بَعضُهُمْ : المرادُ بِذَلِكَ

---

(38) تقدم ذكره.

(39) تقدم ذكره.

(40) سورة الفتح 21.

(41) يبدو أنه القرطبي صاحب «الجامع» وقد ذكره مرة بهذه النسبة أيضا في «ملاك التأويل» وذكره فيه أيضا باسم القرطبي مرتين، وكانت له به معرفة.
وقد ذكر ابن عبد الملك المرّاكشي أن القرطبي كان يكتب من مصر إلى ابن الزبير (الذيل 5 : 585) ولا أعرف الآن وجهاً لنسبة الغزنوي المذكورة، وأشير بعد هذا إلى أن الموجود=

أَرْضُ فارِس والرّوم[42]، ويَجْري مَعَ هذا ما وَرَدَ في الْخَبَر مِنْ قَوْلِه عليه السّلامُ : «تَغْزونَ فارِس فَتُفْتَح عليكُمْ وَتَغْزون الرّومَ فَتُفْتَح عليْكُمْ» الحَدِيث[43].

وعَلَى الْمَفْهومَيْن قَدْ حانَ إرْثُ مُلْكِهِمْ وَأَوانُ هُلْكِهِمْ والمُسْتَنَدُ قُرْآنِي لاَشَكَّ فِي مَفْهومِه، وكِيان مَعْلومِه، والْحَمْدُ لِلّه.

فَصلٌ ومِمّا يَدُلّ أيضا على ذلك مِنْ كِتاب اللّه سُبْحانَه قَوْلُه تعالَى : ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصوا﴾[44] أي كُلٌّ منّا ومنْكُمْ مُنْتَظِرٌ ما يَقَعُ بِعَدُوِّهِ، والْخِطابُ وإِنْ كانَ للمُواجَهِين الْحاضِرِين مِنْ كُفّار قُريش ومَنْ تابَعهم وكانَ عَلَى مِثْلِ حالِهِمْ فَتَعَدِّيهِ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَمَنْ سِوَى الْمَذْكورينَ إِلَى يَوْم الْقِيامَة هُوَ المُتَقَرِّرُ عَلَيْهِ خِطابُ الْكِتاب وَلاَ يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهُ عَنْ ذلك إلاّ أَنْ يُبَيِّن خُصوصَه بالْحاضِرينَ مِمَّنْ نَزَلَ فيهِمْ وَإِلا لَلَزِمَ أَنْ تَخْتَصَّ الأَوامِرُ / بالْحاضِرينَ وأَنْ لا تَخْلُص وتَتَعَدَّى إِلَى مَنْ بَعْدَهُم، وَقَدْ بُيِّنَ هَذا في مَوْضِعِه مِنْ أُصولِ الْفِقْه، ثُمَّ قولُهُ تعالى : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ وَعيدٌ واقِعٌ لا مَحالَةَ ويلْزَمُ الخَتْمُ بِه وتأخيرُه وإلاّ لَبَقِيت أُمَّةٌ وَقَرْنٌ غَيْر داخِلين تَحْتَ شَيْءٍ مِنْ حُكْمِهِ وهذا لا يُمْكِنُ، وقَدْ ذكَر الغَزْنَوي في تَفْسيرِه تَعْمِيم وَعِيد هَذِه الآيَةِ[45]، وجَري كَلامُ الزَّمَخْشَرِيّ أيضاً عَلَى ذَلِكَ[46].

10ظ.

فإن قِيلَ : وكَم مُدَّةٍ مَشَتْ في هذه الأُمّة انقَرَضَ فيها الْعالَمُ الْكَثِيرُ لَمْ يأْخذوا بحَظِّهِم مِنْ هذه الْبِشارَة وَلا شاهَدوا ظَفَراً يعُمّ جهةً أو جهاتٍ بحيث يَرْكَنُ إليه أهلُ أُفُق مِنَ الآفاق الإسلاميّةِ بِشارَةً أَوْ تَسْلِيةً ولا رَأَوْا مِنْ هذا

= في تفسير القرطبي هو كما يلي : «قال ابن عباس : هي الفتوح التي فتحت على المسلمين كأرض فارس والروم وجميع ما يفتحه المسلمون» (16 : 279).

(42) انظر تفسير القرطبي 16 : 279.

(43) هو في كتاب الفتن وأشراط السّاعة من صحيح مسلم وفي باب الملاحم من كتاب الفتن في سنن ابن ماجة وفي كتاب الملاحم والفتن من المستدرك للحاكم.

(44) سورة طه 135.

(45) روى عن ابن عباس ومجاهد أنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة (16 : 278).

(46) قال : وهي ما يفيء على المومنين إلى يوم القيامة (3 : 466).

الْوَعْدِ ما يُرْغِمُ أَعْدَاءَهم، وأَهْلُ عَصْرِنا عَلَى مِثالٍ منْ هذا بَيّنٍ فإنّا لَمْ نُشاهِدْ فِي أُفُقِنا الأَندلُسِيّ حَمَاهُ آللَّهُ نَحْنُ ولا آباؤُنا من الظّفَر بعَدُوّنا إلاّ تَلَمّحاً إنْ كَانَ لاَ يُرْوِي غَليلاً وَلاَ يَشْفِي عَليلا[47].

فالْجوابُ أَنّ رؤْيَة الخَلَفِ شِفاءُ نُفوسِ السَّلَفِ إذا فَرَضْنا تَمَكُّنَ الإيمانِ وحُصولَ ثَلَجِ الْيَقين فَإنّ المُتَلَقِّي للوَعْد أَو آلْوَعيد منَ الصّادِق المَقْطوع بِصِدْقِه عَلَى يَقينٍ مِنْ كِيانِه وَوُقوعِه لاَ مَحالَةَ فَتَرْكَنُ نفسُه لِذلك وَيَنْعَاشُ بِهِ ويَنْتَظِرُه إلَى أَنْ يَبْلُغَ إناهُ[48] / فيكونُ لمَنْ شاهدَهُ عِياناً ولِسَلَفِه ممّنْ كانَ يَنْتَظِرُه تَصْديقاً وَإيماناً، وعلَى هذا بِناءُ أَعمالِ الْمومنينَ لآخِرَتِهم فَإنَّهُمْ وُعِدوا وَأَيْقَنوا بِصِدْق ذَلِك وآمَنوا بِهِ غَيْباً وَأَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَه عَلَيْهِم بِذَلِكَ فَعَمِلوا عَلَى يَقينٍ واسْتَوى عِنْدَهم الحُكْمُ فِي الشَّاهِد الْمُعايَن الْعاجِل والمُخْبَر به المُنْتَظَر الآجِلِ؛ وبِناءً عَلَى هذا خُلِطت لهُم البِشارَتانِ ومُزِج الإخْبارَانِ فقالَ سُبْحانَه مُبشّراً الْمومِنِينَ ومُوعِداً لعَدُوّهم الكافِرين: ﴿قُلْ لِلّذينَ كَفروا سَتُغْلَبونَ وتُحْشَرونَ إلى جَهَنَّمَ وبِيسَ الْمِهَادُ﴾[49]. فَغَلَبُهم عاجِلٌ مُشاهَد فِي الدّنْيا وحَشْرُهم إلى جَهنّم آجِلٌ واقِع فِي الآخرَة غَيْبٌ فِي الدُّنْيا وإيمانُ الْمومِنِ بالأَمْرَيْنِ وَاحِدٌ وَتَلقِّيه صدْقَ الْخَبَرَيْن عَلَى حَدٍّ سَواء فَيُسَرُّ بالْخَبر وَيَحْيَى بِهِ وَيَنْعَاشُ كَما يُسَرّ وَيَحْيَى بالْواقِعِ المُشاهَدِ، وَقَدْ وُعِدَ أَهْلُ الإسْلاَمِ بجُمْلَتِهِمْ بفَتْحٍ مُبين وتَأْييدٍ مكينٍ واسْتيلاءٍ عَلَى عَدُوِّهِمْ عَلَى غايَةٍ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُمْ عَهْدٌ بِمِثْلِها وَلاَ شُوهِد فِي الإسْلامِ نَظيرُها يُهَيّءُ اللَّهُ لَها قَوْماً قَدْ رَضِيَ / عَنْهمْ واخْتارَهُمْ يُبَلّغُهُمْ فِي عَدُوِّهِمْ آمالَهُمْ وَيَكْتُبُ بِفَضْلِه فِي الصَّالِحاتِ أَعمالَهُمْ يَتَمنّى حالَهُم مَنْ كانَ قَبْلَهم ويَوَدّ مَنْ سَمِعَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ بِخَبَرِهم أَنْ لَوْ كانَ مَعَهُم وَيَتمادَى لَهُمْ الظّفَرُ بعَدُوِّهِمْ حتَّى يُقاتِلَ آخِرُهم الدّجّال وَأَنّ هذا العَدُوّ اللّعينَ يَقْتُلُه عِيسَى عَلَيْه السّلام وَيَقْتُل الْخِنْزِير ويكْسِر

(11و.) (11ظ.)

---

(47) كانت وقعة الأرك عام 591هـ آخر ظفر عرفه المسلمون بالأندلس.

(48) أي حينه ووقته.

(49) سورة آل عمران 12.

الصّليبَ وَيَصيرُ الدّينُ واحِداً لاَ ظُهور لغَيْرِه مَعَه[50]؛ وَفي الصَّحيح أنّ عيسَى عليْهِ السّلام يُدْعَى إلَى الصّلاة بِمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فيقولُ : لاَ. إمامُكُمْ مِنْكُمْ[51]. تَكْرِمة اللَّهِ لِهذه الأمّة ويَحْكُمُ بيْنَهُمْ بِكِتاب اللَّهِ وبسُنَّةِ نَبِيّنا ﷺ إذْ لا نُبُوّةَ بَعْدَ نَبِيِّنا وَلاَ شَريعَةَ مُتَجَدِّدةً بَلْ شريعَتُنا قائمةٌ وأَحْكامُ هذِه المِلّةِ ثابتَةٌ ماضِيةٌ إلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الأَرْضَ ومَنْ عَلَيْها. وَكأَنَّ عِيسى عَلَيْه السَّلامُ إذْذَاكَ بِمَنْزِلَةِ أَوْلِياءِ هذه الأمّةِ وعَامِلِي عُلَمائِها لاَ يُجَدّدُ حُكْماً، وَلا يَعْدِل عَمّا اسْتَقَرَّت عَلَيْه الشَّريعَةُ بُنْياناً ورَسْماً. فَإذا تُوفّي عيسَى علَيْهِ السّلام صَلَّى عَلَيْهِ المُسْلمونَ وتواتَرَت الشُّروطُ وتوالَتْ كسِلْكٍ انْقطَعَ وانْتَثَر، وَيَقْبِضُ / اللَّهُ عِبادَهُ الْمومِنينَ وَيَتَوَفّاهُمْ حَتّى لاَ تَبْقى إلاّ حُثالَة، فَعَلَيْهِم تَقومُ السَّاعَةُ[52]. فإذا كانَ أَمْرُ هذِهِ الأُمّةِ عَلَى مَا ذَكَرْنا مِنْ ظُهورِها آخِرَ أَمْرِها ظُهوراً لا يَبْقَى مَعَهُ لِمَنْ عاداها حُكْمٌ فقَدْ وضَح حُكْم الواقِع في الآيةِ منْ قَولِهِ : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ الواقِعِ بعْدَ التّهْديد الشّدِيدِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾[53] أيْ كُلٌّ منّا يَتَرَبَّصُ بصاحِبِه ويَنْتَظِر ما يَقَعُ بِه فَسَتَعْلَمونَ لِمَنِ الْعَاقِبَةُ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[54]. وَلاَشَكّ أَنّه لاَ يَشِذُّ أحدٌ من المُسْلمينَ عَنْ أَخْذِه بنَصيبٍ مما ذُكِرَ مِن الْبِشارَة بالْعاقِبة، فَلَوْ فُرِضَ خِتامُ أَمْرِ الْمُسلِمينَ عَلَى غَيْر ما ذَكَرْنا وَكانَ الظّهورُ لِغَيْرِهِمْ لكانَتْ تِلْكَ الفرْقَة المُتَأَخِّرة والقَرْن الخالِف قَدْ خرَجَ عَنْ حُكْمِ مَنْ بُشِّرَ وَهُمْ وَلاَبُدّ مِنْهُمْ وكانَ يَكونُ ذَلِكَ كاسِراً لِمُقْتَضَى ٱلآيَةِ ورافِعاً لما عَرَّفَتْ بِهِ والْعياذُ بِٱللَّهِ مِنْ تَوَهّمِ هَذا، فَقَدْ صَحّ مَا ذَكَرْنا ووَضُح وُضوحاً لاَ يَبْقى مَعَهُ شُبْهَة وَعَلَى جَرْيِ هَذِهِ ٱلآيَةِ يَجْرِي الْحُكْمُ فِيما هُوَ نَظِيرُها كَقَوْلِهِ تَعالَى :

(50) انظر صحيح البخاري في باب قتل الخنزير من كتاب البيوع وفي باب كسر الصّليب من كتاب المظالم وهو أيضا في أبواب الفتن من صحيح الترمذي.

(51) انظر صحيح مسلم في باب نزول عيسى من كتاب الإيمان.

(52) انظر صحيح مسلم في باب قرب الساعة من كتاب الفتن وأشراط الساعة وكذلك باب إذا بقي في حثالة من الناس في صحيح البخاري في كتاب الفتن.

(53) سورة طه 135.

(54) سورة الرعد 42.

12ظ. ﴿قُلْ هَلْ تَرَبّصونَ بِنا إلاّ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾(55) الآية / والكَلامُ فِيها وَفِي تَعْدِية الْحُكْمِ زَماناً وَأشْخاصاً كالْكَلام في الآية الْمَفْروغِ مِن الْكَلامِ فيها.

وَمِنْ ذلِك أيْضاً قَوْلُه تَعالى : ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ آللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبونَ﴾(56). هَذا إعْلامٌ مِنْه سُبحانَه لِعِبادِهِ الْمومِنِينَ. والإخْبارُ عامٌّ لا يَخُصّ قَرْناً دونَ قَرْنٍ وَلا طَائِفةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ دونَ أُخْرى، فَلَوْ فَرَضْنَا آخِرَ غَلَبَةٍ تكونُ لَهُمْ عَلَيْنا لكانَ ذَلِك مَخْرجاً لِمَنْ تأخّر منَ المُسلمين عَنْ حُكْم هذا الإخْبار وعَظيمِ هذه الْبِشارَة، والْكَلامُ في هذا كالمُتَقدّم في الآي قبلَهُ، وفي كِتاب اللَّهِ سُبْحانَه مِنْ ذلِكَ كثيرٌ فلْنَكْتَفِ بهذا الْقَدْرِ ونُتْبِعْهُ بما وَرَد في السّنّة مِنْ ذلِك مُسْتَعيناً باللَّهِ سُبْحانَه.

البابُ الثّاني في أدلَّةِ السُّنَّةِ.

أَقولُ وأَسْأَلُ اللَّهَ توْفيقَه : إنّ مِنْ أَوْضَح ذلِك عِنْدِي وأَبْيَنِه وأَجْرَاهُ مَعَ ما تقَدّم مِنَ آلآي لِمَنْ تَدَبّرَهُ واعْتَبَرَهُ عَلَى أُصولِ الشّريعَة وقواعِد الْمِلّة قَوْلَهُ ﷺ

13و. فيما رَوَيْناهُ في كِتابِ مُسْلِمٍ عَنْ نافِعٍ بْن عُتْبة قالَ : كُنّا مَعَ رَسولِ / اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، قال : فأتَى النّبِيّ ﷺ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغرِبِ عَلَيْهِمْ ثِيابُ الصّوف فوافَقوهُ عِنْد أَكَمةٍ فإنّهُمْ لَقِيامٌ ورسولُ آللَّهِ ﷺ قاعِدٌ إذْ قالتْ لِي نَفْسِي : إيتِهِمْ فَقُمْ بيْنَهُمْ وبيْنَه لاَ يَغْتالُونَ، قال : ثُمّ قُلْتُ لَعَلّهُ نَجيء معَهُمْ، فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبيْنَه، قالَ : فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلماتٍ أعُدّهُنّ في يَدِي، قالَ : «تَغْزونَ جَزِيرَةَ الْعَرَب فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ ثُمّ فارِسَ فَيَفْتَحُها اللَّهُ ثُمّ تَغْزونَ الدّجّالَ فَيَفْتَحُه اللَّهُ»(57)، وفي مُسْلِمٍ أيضاً عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيّب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ : قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : «قَدْ ماتَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَك قَيْصَرُ فَلا قَيْصَرَ بَعْدَه، والّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنّ كُنوزُهما في سَبِيلِ اللَّهِ»(58)؛ فَمُقْتَضى

(55) سورة التوبة 52.

(56) سورة الأنفال 36.

(57) الحديث في كتاب الفتن وأشراط الساعة من صحيح مسلم.

(58) أورده مسلم في الكتاب المذكور فوقه.

حَديثِ نافِع بْن عُتْبَة أَنّ الرُّومَ تُفْتَحُ كالْجارِي في جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وفارِس فَتْح اسْتِيلاءٍ واسْتِئصالٍ فكذلِك فَتْحُ الرّوم مِنْ غَيْرِ فَرْق، وبالاسْتيلاءِ وقَعَ الْوَعْد والإِخْبارُ الْكَرِيمُ، وَقَدْ حانَ أَوانُه، وَأَطَلَّ زَمانُه، وَلاَيَزالُ يَتوالَى / إِنْ شَاءَ آللَّهُ مِنْ وَقْتِنا هذا الَّذي ظَهَرَتْ فِيهِ أَمارَاتُهُ، وَبَدَتْ شَوَاهِدُه وَعَلاَماتُهُ، وَتَمْتَدّ بِهِ الأَيَّامُ، وَتَبْتَهِج بمَسَرَّاتِه الشّهورُ والأَعْوامُ، ويَنْتَظِمُ جِهاداً وجِدّاً يَشْمَلَ الإِسْلام، ويَشْمَلُ عدوهم الانْكِسارُ والاهْتِضامُ، ويَتّصلُ هذا الأَمْرُ بفضل اللَّهِ إلى فَتْحِ قُسْطَنْطِينِيةَ ورُومَةَ كَما وَعَدَ ﷺ مُوَضِّحاً لِما أَجْمَلَهُ الْقُرآنُ مِنْ ذَلِك، واللَّهُ أَعْلَمُ بالْكَيْفِيّة في فَتْح هَذَيْنِ القُطْرَيْنِ أَمِنْ جِهَةِ صُقعِنا الأَنْدَلُسِي، أَمْ مِن الْجِهَةِ الشّامِية، وَلَعَلَّها مُجْتَمَعُ الْفِئَتَيْنِ ومُلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ إِذْذاكَ أَوانَ ظُهورِ الْمَهْدِي رَضِيَ آللَّهُ عَنْهُ، وَإِنّما يَكونُ بِمُقْتَضَى رِوَايَاتِ الأَثْبات، فِي تِلْكَ الْجِهات، ولعَلّ أَخْذَ الرّومِ يَكونُ مِنَ الطّرَفَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَسَنُبَيّنُ إن شَاءَ اللَّهُ فِيمَا بَعْدُ أَنّ فَتْحَهُمَا كَيْفَما وَقَع فحَظّ الْقُطْرِ الأَنْدَلُسِيّ ــ عَصَمَ آللَّهُ وُلاتَهُ وَحُمَاتَه ــ في ذلِكَ الْفَتْحِ مَوْفورٌ، وَسَعْيُ أَهْلِها مَشْكورٌ، وَنَيْلُهم ممّنْ جاوَرَهم مِنْ عَدُوِّهم وَفَتْحُهُمْ بِلاَدَهُمْ مُعْتَضَدٌ مَأْثُور. وأَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ، وَأَرْبابُ ما هُنالِكَ، وَإِنّما رُومَةُ وقُسْطَنْطِينِيّة مِنْ مَوْصولِ بِلاَدِهِمْ / واللَّهُ أَعْلَمُ.

13ظ.

14و.

وَإِنَّما وَرَدَ الْخَبَرُ عَنْهُ ﷺ بأَنَّها تُفْتَحُ وَلَمْ يُبيّنْ لَنا ﷺ مِنْ أَيّ جِهَةٍ كَمَا لَمْ يُعَيّن لِذلك وَقْتا فَيَبْقَى النَّظَرُ والاسْتِقْراءُ مِنْ إشاراتِ الأَخْبارِ، وَمَظِنّة هَذا إِنّما هُوَ الْبابُ التّالِي لِهَذا الْمُمَهّدُ لمَقْصودِنا مِنْ هذا الكِتابِ، وهُناكَ يُذْكَرُ بِحَوْلِ آللَّهِ ما أَنْهَى اللَّهُ سبحانَه إِلى فَهْمِهِ وَوَفّق لاسْتِطْلاعِهِ مُسْتَعِيناً باللَّهِ تَعالَى.

فَإِنْ قُلْتَ ما الدَّليلُ عَلَى أَنّ مَحملَ حَديثِ الرُّومِ عَلَى ما أَخَذْتَهُ عَلَيْهِ، ولَعَلّ المُرَادَ بِذَلِكَ فَتْحُ الشّام فَإِنّها كانَتْ مِنْ أَعْظَمِ بِلادِهِمْ وَقَدْ أَخْرَجَهُم اللَّهُ عَنْهَا وَفَتَحَها عَلَى الْمُسْلِمينَ وَأَوْرَثَهُمْ إِيَّاها فَهِي الَّتِي وقَعَ فِيها الوَعْدُ وَحَصَلَ بِفَتْحها مَقْصُود الْحَديث فَمَا الْحامِلُ على أَخْذِ الْحَدِيثِ عَلَى ما أَخَذْتَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنّ الْمُرَادَ الاسْتِئصالُ ؟/ فالجَوابُ إنّ حَمْلَ هذا الْحَديث عَلَى أَنْ يكونَ الْمُراد بِهِ فَتْح الشّام مَرْدودٌ مِنْ جِهاتٍ ثَلاثٍ، إِحْداها إِخْراجُ لَفْظِ الْحَديث عَنْ طَرِيقِهِ

14ظ. وَمَوْضوعِه، والثَّانيةُ عَدَمُ تَلاَؤُمِهِ، والثَّالِثَةُ وُجُودُ النّظائِر شاهِدَةً لِمَا / حَمَلْتَهُ عَلَيْهِ مَانِعَةً مِنْ غَيْرِهِ مَنْعاً كُلِّياً فَوَجَبَ الاِعْتِمَادُ عَلَى مُقْتَضَى هَذِهِ الأَدِلَّةِ.

أَمَّا إِخْراجُ اللَّفْظِ عَنْ مَوْضُوعِهِ، فَإِنَّ لَفْظَ «فَيَفْتَحُهَا عَلَيْكُمْ» إِنَّما يَقْتَضِي الاِسْتِيلاَءَ عَلَى مَا فُتِحَ وَمَنْعَ أَيْدِ الْمُعْتَرِضِينَ وَٱلْمُنَازِعِينَ وَإِلاَّ فَلَيْسَ فَتْحاً، وَلَوْ أُرِيدَ ذَلِكَ الْمِقْدَارُ، لَقِيلَ : فَتَهْزِمُونَهُمْ أَوْ تَغْلِبُونَهُمْ أَوْ مَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا، وَهَذِهِ الْحَرْبُ قَدْ تَمَادَتْ بَعْدَ فَتْحِ الشَّامِ سِجَالاً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالرُّومِ، وَإِنَّما الْوَعْدُ بِفَتْحِ الرُّومِ لاَ بِفَتْحِ الشَّامِ فَقَطْ، فَهَذا تَخْصِيصٌ مُفْسِدٌ وَتَقْيِيدٌ مُخِلٌّ بِالْمَعْنَى غَيْرُ خَافٍ عَلَى مَنْ عَرَفَ لِسَانَ الْعَرَبِ، فَالْفَتْحُ مُضَادٌّ لِوُجُودِ عَوَارِضِهِ وَبَواقِي مَوَانِعِهِ.

وَأَمَّا عَدَمُ التَّلاَءُمِ فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ : «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللَّهُ»[59]، فَلَمْ يَقَعْ فِي عِبَارَتِهِ تَفَاوُتٌ وَلاَ تَخَالُفٌ فِيمَا فَصَّلَ فَتْحَهُ وَوَعَدَ بِهِ، فَكَذَا يَنْبَغِي فِي الْمَعْنَى، وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ قَدْ وَقَعَ فَتْحُهَا مُسْتَوْفًى، وَكَذَلِكَ فَارِسُ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ وَلاَ عَيْنٌ، وَكَذَا يَكُونُ فَتْحُ الدَّجَّالِ، وَقَدْ أَوْضَحَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ 15و. ذَلِكَ بالنَّصِّ، وَأَنَّ / عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَقْتُلُهُ بِبَابِ لُدٍّ[60]، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُسَلَّطُونَ عَلَى الْيَهُودِ أَتْبَاعِهِ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ يَامُسْلِم هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ[61] فَيُهْلِكُ ٱللَّهُ هَذَا ٱللَّعِينَ وَيَمْحُو أَثَرَهُ وَتَضْمَحِلَّ خُزَعْبِلاَتُه[62]، فإِذَا قُلْنَا إِنَّ الْمُرَادَ بِفَتْحِ الرُّومِ فَتْحُ الشَّامِ لاَ كُلِّ بِلاَدِهِمْ تَنَافَرَتْ أَطْرَافُ الْحَدِيثِ وَلَمْ تَتَلاَءَمْ وَخَرَجَ عَنْ مَهْيَعِ الْفَصَاحَةِ وَتَنَاسُبِ أَطْرَافِ الْكَلاَمِ، وَالْكَلاَمُ النَّبَوِيُّ الْجَلِيلُ يُحَاشَى عَنْ ذَلِكَ، وَهَذَا غَيْرُ خَافٍ.

---

(59) تقدم تخريجه.

(60) في معجم البلدان لياقوت : «قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ببابها يدرك عيسى ابن مريم الدجال فيقتله».

(61) راجع باب ذكر الدجّال من كتاب الفتن وأشراط الساعة في صحيح مسلم.

(62) الخزعبلات : الأباطيل.

وَأَمَّا شَهَادَةُ النَّظَائِرِ، فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ[63] أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُ لاَ يَقْبَلُ مِنْهُمْ إِلاَّ الإِسْلاَمَ أَوِ السَّيْفَ، لاَ أَنَّهُ يُسْقِطُ الْجِزْيَةَ، لأَنَّ ذَلِكَ تَغْيِيرٌ لِشَرِيعَتِنَا وَإِنَّمَا يَاتِي عَلَيْهِ السَّلاَمُ مُحْيِياً لِرُسُومِ الشَّرِيعَةِ مُقْتَدِياً بِهَا حَتَّى وَرَدَ فِي ٱلْخَبَرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يُصَلِّي وَرَاءَ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ إِذْذَاكَ، وَيَقُولُ : «إِمَامُكُمْ مِنْكُمْ» لِيُظْهِرَ دِينَ الإِسْلاَمِ ، وَيُرْغِمَ النَّصَارَى وَغَيرَهُمْ فِيمَا تَقَوَّلُوهُ وافْتَرَوْهُ، وَأَنَّهُ لاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ إِلاَّ دِينُ الإِسْلاَمِ ، فَهَذَا شَاهِدٌ أَنَّ الْمُرَادَ / بِفَتْحِ الرُّومِ مَا حَمَلْنَاهُ عَلَيْهِ مِنَ الإِطْلاَقِ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ أُخَرُ، وَكَذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ ٱلآيَاتِ وَمَا أَخَذْنَاهَا عَلَيْهِ، فَالْقَوْلُ بِتَخْصِيصِ فَتْحِ الشَّامِ قَوْلٌ لاَ يَصِحُّ وَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَوَّلَ عَلَيْهِ. 15ظ.

وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ : إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، فَالْقَوْلُ فِيهِ عَلَى نَحْوِ مِمَّا قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ، وَقَدِ انْقَطَعَ الأَثَرُ فِي كِسْرَى وَآلِهِ وَأَتْبَاعِهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ وَلاَ أَثَرٌ، فَكَذَلِكَ يَكُونُ الأَمْرُ فِي ٱلْقَيَاصِرَةِ، وَمَا بَقِيَ دِينُهُمْ ظَاهِراً وَأَتْبَاعُهُمْ مُنْحَازِينَ لأَنْفُسِهِمْ غَيْرَ دَاخِلِينَ فِي أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ، فَالْوَعْدُ مُنْتَظَرٌ، وَمَا بَقِيَتْ مُعْظَمُ بِلاَدِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ فَلَمْ تُنْفَقْ كُنُوزُهُمْ بَعْدُ وَإِنَّمَا أُنْفِقَ مِنْهَا بَعْضُهَا بِالإِسْتِيلاَءِ عَلى الشَّامِ ، وإِنَّمَا وَعَدَ الشَّارِعُ بِالْجمِيعِ حَتَّى لاَ يَشُذَّ إِلاَّ مَا لاَ خَطَرَ لَهُ إِنْ شَذَّ، هَذَا مُقْتَضَى اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ، وَإِخْرَاجُهُ عَنْ هَذَا تَأَوُّلٌ يُخْرِجُهُ عَنْ فَصَاحَتِهِ، وَالْكَلاَمُ عَلَيْهِ كَالْحَدِيثِ قَبْلَهُ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ، وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّهُ عَلَى مَا اعْتَمَدْنَاهُ فِيهِ؛ فَالإِسْتِيلاَءُ عَلَى كُنُوزِ قَيْصَرَ إِنَّمَا يَكُونُ بِفَتْحِ / أَقْطَارِهِمْ الْمُعْتَمَدَةِ وَمَعَاقِلِهِمْ الَّتِي رَسَخَ فِيهَا أَمْرُهُمْ، وَذَلِكَ مُنْتَظَرٌ وَاقِعٌ لاَ مَحَالَةَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ. 16و.

فَإِنْ قُلْتَ قَدْ كَانَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ كِلاَهُمَا عَدُوّاً لِلإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ، فَمَا بَالُ كِسْرَى عُجِّلَ هَلاَكُهُ وَتَأَخَّرَ هَلاَكُ الآخَرِينَ.

---

(63) انظر باب كسر الصليب من كتاب المظالم في صحيح البخاري وفي باب نزول عيسى عليه السلام من أبواب الفتن في صحيح الترمذي.

فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا قَدْ تَقَدَّمَ سَبَبُهُ، وَأَنَّهُ ﷺ كَتَبَ إِلَى مُلُوكِ الأَرْضِ لِيُبَلِّغَ الْجَمِيعَ كَمَا أُمِرَ، لِعُمُومِ رِسَالَتِهِ، فَلَمْ يَمُتْ ﷺ حَتَّى وَجَّهَ إِلَى الآفَاقِ وَكَتَبَ إِلَى مُلُوكِ الأَقْطَارِ(64) فَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ كَالنَّجَاشِي(65)، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّفَ(66) وَمِنْهُمْ مَنْ تَمَرَّدَ وَعَتَا(67)، وَهَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ عُجِّلَ أَخْذُهُمْ وَمِنْهُمْ كِسْرَى، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : اللَّهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ، وَأَوْرَثَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَرْضَهُ وَبِلاَدَهُ عَلَى انْتِشَارِهَا وَكَثْرَتِهَا، وَقَالَ لِسُرَاقَةَ : كَيْفَ بِكَ إِذَا أُلْبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى فَلَمَّا أُتِيَ بِهِمَا عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَلْبَسَهُمَا إِيَّاهُ وَقَالَ : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُما كِسْرَى وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقة، وَكَانَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّ هِرَقْلَ لَمَّا كَانَ / مِنْ قَوْمٍ أُولِي كِتَابٍ، وَأَرَادَ اللَّهُ الإِبْقَاءَ عَلَيْهِ وَتَأْخُرَ حَيْنِه، تَلَقَّى كِتَابَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ بِبِرٍّ وَتَلَطُّفٍ، وَقَالَ : لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَنْفُذَ إِلَيْهِ، لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ إِلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ هَذَا(68)، وَسُنَّةُ ٱللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، أَنَّهُ لاَ يُضِيعُ عَمَلاً لِعَبْدٍ فَإِمَّا أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَيْهِ فِي دُنْيَاهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يُؤَخِّرَهُ لَهُ إِلَى الآخِرَةِ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا، وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الْجَزَائَيْنِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَخَّرَ ٱللَّهُ هِرَقْلَ وَآلَهُ مِنَ الْقَيَاصِرَةِ وَمَتَّعَهُمْ إِلَى حِينٍ، وَأَرْجُو أَنَّهُ قَدْ بَانَ بِفَضْلِ ٱللَّهِ.

16ظ.

وَمِثْلُ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ مَا خَرَّجَهُ التِّرمِذِي مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَقُولُ، إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ وَمُصِيبُونَ وَمَفْتُوحٌ لَكُمْ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيَنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ،

(64) انظر في الملوك الذين بعث إليهم الرسول بكتبه إمتاع الاسماع للمقريزي 1 : 307 — 309 وقد ذكرهم العراقي في الفيته.

(65) أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وقد زوّجه رسول الله ﷺ بأمّ حبيبة بنت أبي سفيان.

(66) مثل المقوقس.

(67) منهم كسرى ابرويز والحارث بن أبي شمر الغسّاني وهوذة بن علي، وانظر في دعاء النبي ﷺ على كسرى باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر في صحيح البخاري.

(68) انظر الحديث الوارد في ذلك بتمامه في باب كيف كان بدء الوحي من صحيح البخاري وفيه : «فلو أنّي أعلم أني أخلص إليه لتَجَشَّمْتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه».

وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ ٱلنَّارِ، وَصَحَّحَهُ أَبُو عِيسَى[69]، وَالْكَلاَمُ فِيهِ كَالْكَلاَمِ فِي الْحَدِيثَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ، وَأَنَّهُ لاَ يَتِمُّ مَعْنَاهُ وَيَصِحُّ إلاَّ أَنْ
17و. يَعْقُبُوا ذَلِكَ وَيَكُونَ مِنْ آخِرِ أَمْرِهِمْ وَإِنْ تَكَرَّرَ / مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَوَقَعَ مَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنْهُ فَخِتَامُ أَمْرِهِمْ وَلاَبُدَّ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ ٱلأَحَادِيثُ مَا رَأَيْتُ أَنْ أَبْنِيَ عَلَيْهَا مَقْصُودِي فِي هَذَا الْكِتَابِ لِجَرَيَانِهَا مَعَ مَا قَصَدْتُهُ مِنْ عَدَمِ التَّطْوِيلِ، وَالِاحْتِيَاجِ إِلَى بَسْطِ التَّأْوِيلِ، وَمُقْتَضَاهَا بَعْدُ عَيْنُ مُقْتَضَى الآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ، وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثُ فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَةِ وَظُهُورِ الْمَلْحَمَةِ الْعُظْمَى وَخُرُوجِ الدَّجَّالِ إِلَى مَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا وَتَحْصُلُ مِنْهُ الشَّهَادَةُ فِيمَا أَرَدْتُهُ، إلاَّ أَنَّ أَلْفَاظَ الرُّوَاةِ اخْتَلَفَتْ فِي ذَلِكَ[70]، فَتَسْتَدْعِي طُولَ التَّأْوِيلِ، وَفِيمَا أَوْرَدْتُهُ كِفَايَةٌ، فَلْنَشْرَعْ فِي ٱلْفَصْلِ الثَّانِي.

الْفَصْلُ الثَّانِي فِي التَّمْهِيدِ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ.

الْبَابُ الأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يُفْهَمُ عَنْهُ فَضِيلَةُ هَذَا الصُّقْعِ الأَنْدَلُسِي بِقِيَاسٍ أَوْ فَحْوىً أَوْ إِشَارَةٍ، وَمَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِهِ وَسِيَرِهِمْ وَكَثْرَةِ عُلَمَائِهِمْ وَانْتِشَارِ فَضَائِلِهِمْ[71]، وَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِذَا ثَبَتَ قَوِيَ الظَّنُّ
17ظ. وَالرَّجَاءُ فِي كَوْنِ الْفَتْحِ الْمُنْتَظَرِ والنَّصْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ يَكُونُ مِنْ جِهَتِهِمْ[71] / وقَدْ ذكَرَ النَّاسُ أَحاديثَ في فَضَائِلِ الإِنْدَلُسِ عَلَى التَّعْيِينِ وَالتَّصْرِيحِ إلاَّ أَنَّها مَوْضوعَةٌ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا مَنْ لَهُ أَدْنَى بَصَرٍ، فَلِهَذَا لَمْ نُورِدْ هُنا مِنْها شَيْئاً، فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ هذا فِي الصّحيحِ قَوْلُه ﷺ : «لاَيَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظاهِرينَ عَلَى الْحَقِّ

(69) هو الترمذي والحديث في صحيحه، انظر عارضة الأحوذي 10 : 136.

(70) أخرج الحديث المذكور النّسائي والترمذي وأبو داود وغيرهم. انظر عقد الدّرر ص 212 وما بعدها.

(71) ممّن ألف في فضل الأندلس وأهلها أبو محمد ابن حزم وابن عمه أبو المغيرة واسحاق بن سلمة وغيرهم، ورسالة الأول مشهورة وفي ذخيرة ابن بسام فِقَر من رسالة أبي المغيرة أما رسالة الأخير فقد ذكرها واقتبس منها المؤرّخ ابن حيان في المقتبس ومنهم أيضا ابن سعيد الّذي ذيل رسالة ابن حزم وعبد الرحمن السّلمي الشاطبي المعروف بالمكناسي.

حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[72]، وَقَدْ تَأَوَّلَ ابْنُ ٱلْمَدِينِي[73] هَذَا عَلَى مَا يُخالِفهُ الْوُجُودُ والنَّصُّ، أَمَّا الْوُجُودُ فَإِنَّ أَهْلَ الْغَرْبِ وَهُمْ أَهْلُ السَّقْيِ بِالدَّلْوِ كَمَا تَأَوَّلَ لاَ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم الْحَدِيثُ بِوَجْهٍ لِفَسَادِ أَمْرِهِمْ وَاضْمِحْلاَلِ حَالِهِمْ وَتَبْدِيدِ أَثرِهِمْ وَغَلَبَةِ غَيْرِهِمْ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا النَّصُّ فَفِي بَعْضِ طُرُقِ هَذَا الْحَدِيثِ : «لاَيَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ»[74] بِهَذا اللَّفظِ، وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ وَشَهَادَةٌ جَلِيلَةٌ، والْقُطْرُ الأَنْدَلُسِيّ مِنْ أَمْكَنِ ٱلْبِلاَدِ فِي الْمَغْرِبِ مَعَ ٱلانْقِطاعِ واكْتِنافِ الْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَلَمْ يَزَلْ أَهْلُهَا مُنْذُ فَتَحَهَا ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ فِي رِبَاطٍ وَجِهَادٍ أَبداً حَالَي الاِجْتِماعِ والْفِتْنَةِ إِذْ لاَ يُمْكِنُهُمْ خِلافُهُ مَعَ خصَائِصِها وَمَآثِرِها في كَثْرَةِ عُلَمَائِهَا وصالِحِيها ونَجْدَةِ عامِرِيهَا /[75]. 18و

(*)

ﷺ يَقولُ : «إِنّ ٱلْفِتْنَةَ تَجِيء مِنْ هَاهُنا وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَان وَأَنْتُم يَضرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» الحديث، خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ[76] فِي الثَّنَاءِ عَلَى الشَّامِ وَدُعَائِهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ لَهَا وَالْحَضِّ عَلَى قَصْدِها وَسُكْنَاهَا وَذِكْرِ جِهَادِ أَهْلِهَا وَبَعْثِ الْجُيوشِ لِغَزْوِ الرُّومِ مِنْهَا إِلَى خُروجِ الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى وَفِي أَنَّ الْفِتْنَةَ مِنْ قِبَلِ ٱلْمَشْرِقِ وَذَمِّ الْعِرَاقِ وَأَنَّ رَأْسَ ٱلْكُفْرِ

(72) ورد بهذا اللفظ في كتاب الإمارة من صحيح مسلم.

(73) علي بن المديني أحسن الناس كلاماً على الحديث في وقته. ت. سنة 234.

(74) ورد بلفظ المغرب في بعض المصادر التاريخية المغربية، وقد صدّر به مؤلّف رياض النفوس وعده ممّا جاء في فضل افريقية والمنستير وذكره الطرطوشي وابن الزيات في التشوف وعبد الواحد المراكشي على أنه في فضل أهل المغرب الأقصى، وهاهو ابن الزبير يرى أنّ الأندلس أحق به، وراجع في هذا الحديث كتاب البيان المطرب للشيخ عبد الحي الكتّاني.

(75) راجع ما أورده المقري في فضل الأندلس وأهلها في نفح الطيب.

(*) ورقة مبتورة في الأصل.

(76) ورد الحديث المذكور في صحيح مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة.
وورد كذلك في صحيح البخاري في باب قول النبي ﷺ : الفتنة من قِبَل المشرق من كتاب الفتن.

هُناكَ، والْمُرَادُ بِهِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ الدَّجَّالُ فَإِنَّهُ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خُرَاسَانَ بِمَنْ يَتْبَعُهُ مِنَ الْيَهُودِ وَقَدْ «صَدّقَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ»[77]، فَقَلَّمَا ظَهَرَتْ بِدْعَةٌ أَوْ ضَلاَلَةٌ إِلاَّ مِنْ هُناكَ، وَقَدْ عَمَّ الْعِرَاقَيْنِ الْيَوْمَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَوَرَاءَهُما مِنْ بِلاَدِ الْمَشْرِقِ اسْتِيلاءُ الْعَدُوِّ عَلَيْهَا وَخَرَجَتْ عَنْ إِيَالَةِ ٱلإِسْلاَمِ إِلَى إِيَالَةِ الشِّرْكِ وَعَبَدَةِ النِّيرَانِ[78]، ثُمَّ مِنْهَا بَعْدُ خُرُوجِ الدَّجَّالِ وَيَاجُوجَ وَمَاجُوجَ والْمِحَنُ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ أَوَّلاً وَأَخِيراً فَارْتَفَعَ التَّكَلُّفُ لَنَا وَلِمَنْ تَأَخَّرَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عَنْ تَأْوِيلِ ٱلأَحَادِيثِ / الوارِدَةِ فِيهَا لِمُشَاهَدَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ مِنْ فِتْنَتِهَا وَغَلَبَةِ الْكُفْرِ عَلَيْهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ إِخْبارِهِ ﷺ عَنْهَا إِلاَّ ما نَصَّ عَلَيْهِ وَرَفَعَ الإِشْكَالَ فِي أَمْرِهِ مِنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، كَمَا بَانَ قَوْلُهُ ﷺ : «لاَيَزَالُ أَهْلُ الْمغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَى ٱلْحَقِّ الْحَدِيثِ». 19ظ.

فَإِنْ قِيلَ : مَا الشَّاهِدُ لِمَا قَصَدْتَهُ مِنْ أُثْرَةِ الْقُطْرِ الأَنْدَلُسِي وَفَضْلِهِ حَتَّى يَحْصُلَ قُوَّةُ الرَّجَاءِ فِي أَنَّ الْفَتْحَ الْمَوْعُودَ بِهِ والنَّصْرَ الْمُنْتَظَرَ يَكُونُ مِنْ جِهَتِهِ ؟

قُلْتُ : دَلِيلِي مِنْ هَذِهِ ٱلأَحَادِيثِ مِنْ جِهَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا جِهَةُ الْمَفْهُومِ، والثَّانِيَةُ جِهَةُ الشُّمُولِ وَالْعُمُومِ.

أَمَّا جِهَةُ الْمَفْهُومِ، فَإِنَّ الذَّمَّ لِلْمَشْرِقِ إِنْ قُلْنَا بِٱلْمَفْهُومِ، يُشْعِرُ بِكَوْنِ الْمغْرِبِ عَلَى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِن قُلْتَ : أَقْصَى الأَمْرِ فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ مِنْ مَفْهُومِ اللَّقَبِ، وَهُوَ أَضْعَفُ الْمَفْهُومَاتِ وَلاَ يَقُولُ بِهِ أَحَدٌ[79].

قُلْتُ : أُسَلِّمُ أَنَّهُ كَذَلِكَ، بَلْ أَقُولُ : إِنَّ مَفْهُومَ الصِّفَةِ ضَعِيفٌ إِذَا تَجَرَّدَ عَنْ

---

(77) من الأقوال السّائرة وقد استعملها المتنبي في قوله :

وأستكبِـرُ الأخبـارَ قيـلَ لقائـه ... فلمّا التقينا صدّق الخَبَرَ الْخُبْـرُ

(78) يعني بهم التتر.

(79) يقول ابن السبكي في جمع الجوامع : «المفاهيم إلاّ اللقبَ حجّة لغة، وقيل شرعا، وقيل معنى، واحتج باللقب الدقاق والصيرفي وابن خويزمنداد وبعض الحنابلة، وأنكر أبو حنيفة الكل مطلقاً، وقوم في الخبر، والشيخ الإمام في غير الشرع، وإمام الحرمين صفة لا تناسب الحكم وقوم العدد دون غيره».

2و. أَدَاةِ حَصْرٍ أَوْ قَرِينَةٍ وَاضِحَةٍ، فَضْلاً عَنْ مَفْهُومِ اللَّقَبِ / وَلَكِنْ إِذَا اقْتَرَنَ بِالْمَفْهُومِ قَرِينَةٌ قَوِيَ الْقَوْلُ بِهِ، وَهُنَا أَجَلُّ قَرِينَةٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ ﷺ : «لاَيَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ... الْحَدِيثِ»، وَلَوْ لَمْ نَقُلْ بِالْمَفْهُومِ الْبَتَّةَ لَقُلْنَا إِنَّ وَصْفَهُ ﷺ لِلْمَشْرِقِ بِمَا وَصَفَ وَسُكُوتَهُ عَنِ الْمَغْرِبِ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ كَالْمَشْرِقِ فِيمَا ذَكَرَ، فَيَكُونُ مَسْكُوتاً عَنْهُ، يُبَيِّنُ حُكْمَهُ الْحَدِيثُ الآخَرُ، وَهُوَ قَوْلُهُ : «لاَيَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ» وَلْنَكْتَفِ مِنْ هَذِهِ ٱلْجِهَةِ بِهَذَا الإِيمَاءِ، وَآخُذ فِي ٱلْجِهَةِ الأُخْرَى فَأَقُولُ :

أَمَّا جِهَةُ الشُّمُولِ وَالْعُمُومِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ﷺ : «وَفِي شَامِنَا»[80] يَتَنَاوَلُ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ الاِسْمُ وَمَا لَحِقَ بِهِ وَاتَّصَلَ وَشَارَكَهُ فِي أَخَصِّ صِفَاتِهِ **وَهُوَ الصُّقْعُ الأَنْدَلُسِي، فَإِنَّهُ مِنَ الشَّامِ اتِّصَالاً وَاتِّصَافاً وَحَالاً وَحُكْماً، وَالصِّفَةُ الْمُوجِبَةُ لِلْمَدْحِ وَالدُّعَاءِ بِالْبَرَكَةِ أَوْضَحُ فِي ٱلأَنْدَلُسِ مِنْهَا فِيمَا غَلَبَ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّامِ.**

فَإِنْ قُلْتَ : فَإِذَا كَانَ ٱلأَمْرُ عَلَى هَذَا فَلِمَ لَمْ يَذْكُرْهَا عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِاسْمِهَا الْخَاصِّ بِهَا وَيَكُونُ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّامِ تَبَعاً لَهَا، وَلِمَ جَعَلَهَا هِيَ تَبَعاً.

2ظ. فَالْجَوَابُ / أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ الْمَقْصُودُ عَلَى الْكَمَالِ إِلاَّ مَا فَعَلَهُ ﷺ، أَلاَ تَرَى أَنَّهُ لَوْ ذَكَرَهَا بِاسْمِهَا الْخَاصِّ بِهَا لَمْ يَكُنْ لِيَدْخُلَ فِي ذَلِكَ الشَّامُ بِوَجْهٍ، فَإِنَّ اسْمَ الأَنْدَلُسِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْجَزِيرَةَ الْمُكْتَنَفَةَ بِالْبَحْرِ الْكَبِيرِ وَٱلْبَحْرِ الرُّومِي[81] وَلاَ يَتَاوَلُ الشَّامَ بِوَجْهٍ، وَأَمَّا اسْمُ الشَّامِ فَإِنَّهُ يَصِحُّ اسْتِجْرَارُهُ إِيَّاهَا كَمَا تَقَدَّمَ.

وَوَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَدْ يَكُونُ ذَكَرَ الشَّامَ لِمَا عَلِمَ مِنْ تَعْجِيلِ فَتْحِهَا وَدُخُولِ الْمُخَاطَبِينَ إِيَّاهَا بِأَنْفُسِهِمْ فَلَمَّا كَانَتْ صَدْراً فِيهَا فُتِحَ مِمَّا يَدْخُلُ

(80) من حديث وَرَدَ ذكره في الورقة المقطوعة، ولفظه أن النبي ﷺ قال : اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا : وفي نجدنا، قال : اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا : يا رسول الله : وفي نجدنا، فأظنّه قال في الثالثة : هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان. انظر كتاب الفتن في صحيح البخاري وكتاب الفتن وأشراط السّاعة في صحيح مسلم ؛ وسيذكر المؤلف هذا الحديث مرة أخرى.

(81) البحر الكبير هو المحيط الأطلنطي والبحر الرومي هو البحر المتوسط ويدعى أيضا بالبحر الشامي.

تَحْتَ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَرَادَ حَضَّهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ـــ وَعَدُوُّ الشَّامِ هُمُ الرُّومُ وَهُمْ عَدُوُّ الأَنْدَلُسِ ـــ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِهَذَا وَهُوَ يُرِيدُ الشَّامَ وَالأَنْدَلُسَ، وَالعَرَبَ تُسَمِّي الشَّيْءَ بِاسْمِ صَدْرِهِ وَأَوَّلِهِ أَوْ مُعْظَمِهِ أَوْ أَغْرَبِ مَا فِيهِ، أَلاَ تَرَى تَسْمِيَةَ السُّورَةِ بِالْعُقُودِ لِذِكْرِ ذَلِكَ فِي مَطْلَعِهَا وَأَوَّلِهَا وَالأَنْفَالِ وَالإِسْرَاءِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنَ التَّسْمِيَةِ بِمُعْظَمِ الْوَاقِعِ فِي السُّورَةِ : الْقَصَصَ، وَمِنَ التَّسْمِيَةِ بِالأَغْرَبِ : سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَسُورَةُ الأَعْرَافِ، وَعَلَى هَذَا جَرَى كَلاَمُ الْعَرَبِ مِنَ الاكْتِفَاءِ فِي تَسْمِيَةِ الْجُمْلَةِ / بِبَعْضِ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ وَتَقَيَّدَتْ بِهِ مِنْ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ صِفَةٍ أَوْ مَا وَقَعَ صَدْراً فِي الْمُسَمَّى أَوْ كَانَ لَهُ شَأْنٌ مَعْرُوفٌ أَوْ نَادِرٌ، فَذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ الشَّامَ وَمُرَادُهُ الشَّامُ وَمَا اسْتَجَرَّتْ وَاسْتَتْبَعَتْ، وَلَمْ يَكُنْ اسْمُ الأَنْدَلُسِ لِيَسْتَجِرَّهَا فَذَكَرَ الأَوْلَى وَالأَعْطَى لِلْمَقْصُودِ. 21و

وَوَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَدَلَ عَنْ ذِكْرِهَا بِاسْمِهَا شَفَقَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَرَحْمَةً جُبِلَ عَلَيْهَا لِمَا فِي الأَنْدَلُسِ مِنَ انْقِطَاعِهَا عَنِ الْبِلاَدِ الْجَامِعَةِ إِذْ ذَاكَ لِبِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ وَبُعْدِهَا وَتَكَاثُفِ عَدُوِّهَا مَعَ انْقِطَاعِ أَهْلِهَا عَنْ إِخْوَانِهِمْ حَتَّى إِنَّهُ يُذْكَرُ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ أَنَّهُ رَامَ أَوْ تَحَدَّثَ بِنَقْلِ أَهْلِهَا عَنْهَا احْتِيَاطاً عَلَيْهِمْ وَإِشْفَاقاً[82] فَلَمْ يُسَمِّهَا ﷺ بِاسْمِهَا الْخَاصِّ جَرْياً عَلَى رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِحَالِهَا الْمُوجِبَةِ لِمَدْحَتِهَا وَالثَّنَاءِ عَلَى قُطَّانِهَا وَاكْتَفَى بِذِكْرِ مَا يُشْبِهُهَا فِي الْمُلاَصَقَةِ لِلْعَدُوِّ وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا فِي ذَلِكَ أَمْعَنُ مِنْ غَيْرِهَا فَهَذِهِ ثَلاَثَةُ أَوْجُهٍ / وَلَوْ عَرَضَ مَا يَمْنَعُنَا عَنِ التَّعَلُّقِ بِشُمُولِ الاسْمِ وَعُمُومِهِ لَعَدَلْنَا إِلَى طَرِيقَةٍ أُخْرَى مُتَّفَقٍ عَلَيْهَا مِنْ جِهَةِ عُلَمَاءِ الْمِلَّةِ الْمُعْتَبَرِينَ الْمُعْتَمَدِينَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْقِيَاسِ، وَلَمْ نَكُنْ لِنَأْخُذَ فِي ذَلِكَ بِطَرْدٍ وَلاَ 21ظ

(82) جاء في كتاب أخبار مجموعة ما نصّه : «وكان رأيه أنتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين، ولَيْتَ الله كان أبقاه حتى يفعل فإنّ مصيرهم إلى بوار إلاّ أن يرحمهم الله». أخبار مجموعة : 23 وجاء في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ما يلي : «وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد عهد إلى السمح بإجلاء المسلمين من الأندلس إشفاقاً مما دخل عليهم إذ خشي تغلب العدو عليهم فكتب إليه السمح بن مالك يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم وشرف معاقلهم فوجّه حينئذ جابرا مولاه ليخمس الأندلس» تاريخ افتتاح الأندلس : 38.

شَبَهٍ حَتَّى نُعَارِضَ فِي ٱلإِطْلاَقِ وَيَضْعُفَ قِيَاسُنَا بَلْ نَقولُ إِنَّ حُكْمَ الْفَضِيلَةِ إِذَا ثَبَتَتْ لِلشَّامِ فَٱلأَنْدَلُسُ مِثْلُها، وَالإِلْحَاقُ بِطَرِيقَتَيْنِ إِمَّا بِنَفْيِ ٱلْفَوَارِقِ كَمَا تَقَعَّدَ فِي عِلْمِ أُصُولِ ٱلْفِقْهِ وَإِمَّا بِتَحْقِيقِ الْمَنَاطِ وَتَخْرِيجِه، وَذَلِكَ بيِّن.

فَإِنْ قُلْتَ : قَدْ ذَكَرَ النَّاسُ في فَضَائِلِ الأَنْدَلُسِ أَحَادِيثَ أَسْنَدُوهَا وَفِيها ذِكْرُها بِالنَّصْرِ فَلِمَ عَدَلْتَ عَنِ الاسْتِدْلاَلِ بِهَا إِلَى مَا ٱحْتَجْتَ فِيهِ إِلَى مَا تَكَلَّفْتَ.

قُلْتُ : لَوْ صَحَّ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الأَحَادِيثِ لَمْ أَكُنْ لأَعْدِلَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا قَصَدْتُ فِي هَذا التَّعْلِيقِ بِنَاءَ مُضَمَّنِه عَلَى ما يُسَلِّمُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَلاَ يَتَوَقَّفُ فِيهِ إِلاَّ مَنْ قَصُرَ فِي عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ ؛ وَأَمَّا ما حَمَلْتُها عَلَيْهِ مِن التَّأْوِيلِ فَلَيْسَ بِتَكَلُّفٍ إِذْ لاَ تَحَمُّلَ فِيهِ عَلَى لَفْظٍ وَلاَ خُرُوجَ عَنْ طَرِيقَةِ الْجِلَّةِ النُّظّارِ وَأَرْبَابِ الْمَعَانِي وَأَيْضاً فَإِنَّا لَمَّا اسْتَدْلَلْنَا بِمَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ تَعَالَى / لَمْ يَكُنْ لِيُلاَئِمَ ذَلِكَ مِنَ ٱلاِسْتِدْلاَلِ بالسُّنَّةِ إِلاَّ مَا تَلْزَمُ الأَحْكَامُ بِمِثْلِهِ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُعْتَمَد، وَقَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ وَالْحَمْدُ لِلَّه. 2و

الْبابُ الثَّانِي من فَصْلِ التَّمْهِيد :

فِي فَضِيلَةِ الأَنْصَارِ وَمَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ لِنَبْنِيَ عَلَيْهِ مَقْصودَنا بِحَوْلِ ٱللَّهِ.

مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ جابِرِ بْنِ عَبْدِ ٱللَّه قَالَ : فِينَا نَزَلَتْ : ﴿إِذْ هَمَّتْ طائِفتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيّهما﴾[83] بَنُو سَلِمَة وَبَنو حَارِثَة وَمَا نُحِبُّ أَنَّها لم تَنْزِلْ لِقَوْلِ ٱللَّهِ : ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهما﴾ خَرَّجَه مُسْلم[84]، وَهُوَ أَعْظَمُ شاهِدٍ وَأَوْضَحُه عَلَى ما خَصَّهُمْ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ مِنْ عَظِيمِ الإِيمَانِ وَجَلِيلِ الْيَقِينِ الَّذِي خَصَّهُمْ ٱللَّهُ سُبْحَانَه بِهِ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَاللَّهُ وَلِي الْمُومِنِينَ﴾.

قُلْتُ وَقَعَ الإِيماءُ فِي هذِهِ الآيَةِ إِلَى الْعَتْب عَلَى الْفَشَلِ مَقْروناً مِن التَّأْنِيسِ

(83) سورة آل عمران 122.

(84) هو أيضا في صحيح البخاري في كتاب المغازي وكتاب التفسير وبنو سَلِمة ـــ بكسر اللام ـــ من الخزرج وبنو حارثة من الأوس.

والإعْلاَم بعَظِيم الْمَنْزِلَةِ لَدَيْهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ ﴿واللَّهُ وَلِيُّهُما﴾ بِنَحْوٍ مِن الْوارِدِ في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾(85) وَقُدِّمَ التَّأْنِيسُ في هذِهِ
22ظ. وَصُرِّحَ بِهِ لِخُصُوصِهِ الْعَظِيمِ ﷺ، وَأُخِّرَ في آيَاتِ الأَنْصَارِ وَضُمِّنَ مَعْنَى الْفَرْقِ / بَيْنَ ٱلْحَالَتَيْنِ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِثْلُ ذَلِكَ لأَحَدٍ غَيْرِهِمْ، وذلكَ فَضْلُ اللَّهِ يوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّما هذا في طائِفَتَيْنِ مِنَ ٱلأَنْصَارِ عَيَّنَهُما الْخَبَرُ، وَهُمْ بَنُو سَلِمَةَ وَبَنُو حارِثَةَ فَكَيْفَ تَزْعُمُ تَعَدِّي ذَلِكَ إِلَى جَمِيعِهِمْ.

قُلْتُ : إذا كانَ هَذا حالُ مَنْ هَمَّ أَنْ يَفْشَلَ مِنْهُمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ هَذَا. ﴿أولئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بروحٍ مِنْهُ﴾(86).

وَمِن الْخَصائِص الْجَلِيلَة مَا وَصَفَهُمْ سُبْحَانَهُ بِهِ في قَوْلِهِ : ﴿والَّذِينَ تَبَوَّأُوا ٱلدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتوا وَيوثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(87). وَصَفَهُمْ سُبْحانَه بسِتٍّ خِصالٍ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها كَافِيَةٌ في الحُصُولِ عَلَى غَايَةِ ٱلإِيمان، وَقُرْبِ الْمُتَّصِفِ بِهَا مِنَ الرَّحْمَانِ، وإِحْرَازِ عَظِيمِ ٱلْجَلاَلِ، والاسْتِيلاءِ عَلَى كُلِّ الْمَكَارِمِ الْعَلِيَّة والخِلال، وبُلوغِ الْغايَةِ الْقُصْوَى في الاتِّصافِ بِسَنِيِّ الْمَعالي وخُصوصِ
23و. الْكَمال، وهي أَنَّهُمْ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإيمانَ أي اعْتَقدوا الإيمانَ وَأَخْلَصوهُ وَتَقَدَّموا / غَيْرَهُمْ في ذَلِكَ، أَشارَ إلى هَذا قَوْلُهُ ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وَأَنَّهُمْ ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ لِعَظِيمِ إِيمانِهِمْ وَجَلِيلِ كَرَمِهِمْ وَأَنَّهُمْ قَدْ طَهَّرَ اللَّهُ قُلوبَهُمْ مِن الْحَسَد وَمَنَحَهُمْ حُبَّ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الْمُهاجِرِينَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَسُرُّونَ بِما يُعْطَى إِخْوَانُهُمْ مِن الْمُهَاجِرِينَ وَيُؤْثِرُونَ بِهِ وَلاَ يَلْحَقُ نُفوسَهُمْ إِرادَةُ ذلكَ الإعْطاءِ لَهُمْ دونَ إِخْوانِهِمْ بَلْ يَسُرُّهُم تَرْكُ ذَلِك لإِخْوَانِهِمْ وَأَنَّهُمْ يُوثِرُونَ بِما يَجِدُونَ وَإِنْ لَحِقَتْهُمُ الْحاجَةُ وَأَدْرَكَتْهُم الْخَصَاصَةُ تَصْدِيقاً بالْمَوْعودِ، وَإِحْرَازاً لِكُلِّ وَصْفٍ مَحْمودٍ،

---

(85) سورة التوبة 43.

(86) سورة المجادلة 22.

(87) سورة الحشر 9.

وَيَتَحَصَّلُ مِنْ هذِه الأَوصافِ الْجَليلَةِ والْمَآثِرِ الرَّفيعَة اسْتِيلاَؤُهُمْ عَلَى الْغايَتَيْنِ في التَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ والْمَطْلُوبَاتِ الإيمانِيَّةِ إِذْ هِيَ وَإِنْ تَشَعَّبَتْ راجِعَةٌ إِلَى ضَرْبَيْنِ : إِمَّا مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ وَإِمَّا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، فَبِوَصْفِهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَخْلَصُوا الإِيمَانَ تَحَصَّلَ لَهُمْ إِحْرَازُ ما بَيْنَهُمْ وَبَيْن اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُمْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَعْلَى حالَةٍ طَلَبَ بِها الْعِبَادَ، وَبِما وَصَفَهُمْ بَعْدُ مِنْ سائِرِ الأَوْصَاف أَحْرَزوا ما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ وَكَمُلَ لَهُم الاسْتِيلاَءُ الإِيمَانِي والْمَطْلَبُ الدِّينِيُّ، وَوَقَاهُم اللَّهُ شُحَّ أَنْفُسِهِمْ الْحامِلَ عَلَى الْحَسَدِ وَالْبَغْيِ وَإِيثارِ حَظِّ النَّفْسِ، قَالَ تَعالى تَسْجيلاً لَهُمْ بِالْفَلاح التّامّ : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ﴾[88]. 23ظ

وَمِنْ ذَلِك حَديثُ زَيْد بْنُ أَرْقَم قالَ قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : «اللّهُمّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ»[89].

وَحديثُ أَنَسٍ أَنّ رسولَ اللَّه ﷺ اسْتَغْفَرَ لِلأَنْصَارِ، قَالَ : وَأَحْسِبُهُ قَالَ : «وَلِذَرَارِيِّ الأَنْصَارِ وَلِمَوالي الأَنْصَارِ لاَ أَشُكُّ فيهِمْ»[90].

وَحَديثُ زَيْد بْنُ أَرْقَم أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَنَسِ بْن مَالِك يُعَزِّيهِ فيمَنْ أُصيبَ مِنْ أَهْلِه وَبَنِي عَمِّه يَوْمَ الْحَرّةِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ : إِنِّي أُبَشِّرُكَ بِبُشْرَى مِن اللَّهِ إِنِّي سَمعتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يَقولُ : «اللّهُمّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلِذَرَارِيِّ الأَنْصَارِ وَلِذَرَارِيِّ ذَرَارِيِّهِمْ» خَرَّجَهُ التِّرمِذِي وَقَالَ فِيهِ حَسَنٌ صَحِيحٌ[91].

وحديثُ الْبَرَاءِ بْنِ عازِب أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ أَوْ قَالَ : «قَالَ النَّبِيّ ﷺ في الإِنْصَارِ : «لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُومِنٌ وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ ٱللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ ٱللَّهُ»[92].

(88) سورة التغابن 16.

(89) انظره في باب فضائل الأنصار من كتاب الفضائل في صحيح مسلم.

(90) انظره كذلك في صحيح مسلم في الباب نفسه.

(91) انظره في باب فضل قريش والأنصار من أبواب المناقب في سنن الترمذي.

(92) هو في صحيح البخاري برواية أنس في كتاب مناقب الأنصار.

24و.   وَحَديثُ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ : «لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ / امْرءاً مِن الأَنْصَارِ»[93] وَعَنْ أُبي بْن كَعْبٍ بإِسْنادِ حَديث «لَوْلا الْهِجْرَةُ» الْمَذْكُورُ : «قَالَ ﷺ : لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيا أَوْ شِعْباً لَكُنْتُ مَعَ الأَنْصَارِ»[94].

وَحَدِيثُ أَنَسٍ قَالَ : «جَمَعَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ناساً مِنَ ٱلأَنْصَارِ وَقَالَ هَلْ فيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ قَالُوا لاَ إِلاَّ ابْنُ أُخْتٍ لَنا فَقَالَ : ابْنُ أُخْتِ ٱلْقَوْمِ مِنْهُمْ ثُمّ قَالَ إِنّ قُرَيْشاً حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيا وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَوْ سَلَكَ ٱلنَّاسُ وَادِياً أَوْ شِعْباً لَسَلَكْتُ وَادِيَ ٱلأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ» خرَّجه التِّرمِذي وصَحَّحَه[95].

وَحَدِيثُ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «الأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي وَإِنَّ النَّاسَ سَيَكْثُرون وَيِقِلّون فاقْبَلوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجاوَزُوا عَنْ مُسيئِهِمْ ؛ وَقَالَ مُسْلِم : واعْفُوا عَنْ مُسيئِهِمْ»[96]، وحديثُ أَنَسٍ أَيْضاً أَنّ النَّبِيّ ﷺ رَأَى

24ظ. صِبْياناً وَنِسَاءً مُقْبِلِينَ مِنْ عُرْسٍ فَقَامَ نَبِيّ / اللَّهِ ﷺ مُمَثِّلاً فَقَالَ : «اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيّ اللَّهُمّ إِنَّهُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيّ ــ يَعْنِي ٱلأَنْصَارَ ــ»[97] والأَحاديثُ في هذا الْبابِ كَثيرَةٌ وَقَدْ حَصَلَ مِمّا ذَكَرْنَا مِن الآياتِ والأَحاديثِ تَخْصِيصُهُمْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بِحِبِّهِ ﷺ وَدُعَائِهِ لَهُمْ ثُمَّ لأَعْقابِهِمْ وَفَضِيلَتِهِمْ بالسَّبْقِيَّةِ والإِيوَاءِ وَالنُّصْرَةِ.

البابُ الثَّالِثُ في أَنَّ ما ثَبَتَ لِسَلَفِهِمْ مِنَ ٱلْخَصَائِصِ وَالْمَآثِرِ والْحُبّ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ مَرْعِيٌّ مَوْجُودٌ في صالِحي خَلَفِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيامَةِ.

أَقُولُ وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَوْفيقَهُ إِنَّهُ قَدْ تَعاضَدَ الْمَعْقُولُ وَالْمَنْقولُ وَشَهِدا مَعاً أَنَّ الإِنْسَانَ يَسُرُّهُ ما يُدْرِكُ ذُرِّيَّتَهُ بَعْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالرِّفْعَةِ والشَّرَفِ وَجَليلِ الْحَالِ

(93) أورده البخاري في باب غزوة الطائف.

(94) أورده البخاري في الباب المذكور وفي كتاب المغازي.

(95) أورده البخاري أيضا في كتاب الفرائض.

(96) هو في كتاب مناقب الأنصار من صحيح البخاري ومعنى كَرْشِي وَعَيْبِي : جماعَتي وخاصّتي.

(97) انظر كتاب مناقب الأنصار في صحيح البخاري وباب فضائل الأنصار في صحيح مسلم.

وَأَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَتِهِ أَوْ أَكْثَر فيما يُرِيدُ لَهُمْ مِن الْخَيْرِ وَإِرَادَتُهُ تِلْكَ الْخَيْرِيَّةَ لاَ تَخُصُّ مَنْ قَرُبَ دُونَ مَنْ بَعُدَ بَل وَلَدُهُ الأَقْرَبُ وَمَنْ تَبَاعَدَ من حَفَدَةِ حَفَدَةِ الأَحْفَادِ سَوَاءٌ. غَيْرَ أَنَّ ما جُبِلَ عَلَيْهِ الإِنْسَانُ مِنْ إِيثارِ الْعَاجِلِ وَأَنَّ ما يُشاهِدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ وَلَدٍ أَوْ حَفيدٍ هُوَ الْمَوْجُودُ عِنْدَهُ وَلاَ يَدْري هَلْ يُعَقِّب أَمْ لاَ فَصَارَ مَنْ / تَبَاعَدَ مِنْهُ مِن الذُّرِّيَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْمَعْدومِ الّذي لاَ يُوجَدُ فَيَضْعُفُ تَعَلُّقُ الْبَالِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، أَمَّا لَوْ كَان عَلَى يَقينٍ مِنْ وُجُودِ مَنْ سَيوجَدُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَرَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَى ذَلِكَ بِمُسْتَنَدٍ قاطِعٍ لأَحَبَّ لَهُ ما يُحِبّ لِوَلَدِهِ الْقَرِيبِ وَكَرِهَ لَهُ مَا يَكْرَهُ، وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا كَما يَنْبَغِي لَمْ يَلْحَقْهُ فِيهِ شَكٌّ، وَعلَى ذَلِكَ جَرَى سُؤَالُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلآخِرينَ﴾[98] واسْتِفْهامُه ﷺ تَمَنِّياً وَوُدّاً حين قِيلَ لَهُ : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾[99] فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» وَلاَبُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : وَاجْعَلْ مِن ذُرِّيَّتِي، فَيَكونُ سُؤالاً وَطَلَباً أَوْ يريدُ : وَهَلْ تَجْعل مِنْ ذُرِّيَّتِي إِمَاماً، فَيَكُونُ اسْتِفْهاماً، والأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَعَلَى كُلِّ حالٍ فَهُوَ مُنْبِىءٌ بِحُبِّ الْخَيْرِ لِلذّرِّيَّةِ وَإِرادَتِهِ النُّبُوَّةَ لَهُمْ كَما لِنَفسِهِ مِنْ غَيْر فَرْقٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَيْضاً : «وَاجْنُبْنِي وَبَنِي أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ»[100]. لَمْ يُرِدْ بَنِيهِ الأَقْرَبِينَ فَقَط إِنَّما أَرَادَ مَا وُجِدَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ثُمّ سَلَّمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِمَا جَرَى بِهِ الْقَلَمُ وَسَبَقَ بِهِ ٱلْقَدَرُ فَقَالَ : «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي»[101] فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَقولُ : إِنَّما / أَدْعُوكَ رَاجِياً وَمُسَلِّماً لِقَضَائِكَ، وَمِنْ هَذَا دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[102] وَتَكَرَّرَ هَذَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَأَجَابَ ٱللَّهُ دُعَاءَهُمَا عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، فَمُعْظَمُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي مَشَارِقِ ٱلأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا

25و. (at line 5) — 25ظ. (at line 18)

---

(98) سورة الشعراء 84.

(99) سورة البقرة 124.

(100) سورة إبراهيم 35.

(101) سورة إبراهيم 36.

(102) سورة البقرة 128.

إِنَّمَا هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُعْظَمُ الرُّسُلِ والأَنْبِيَاءِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ إِلاَّ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ [لَكَفَى]، وَلِعَظِيمِ إِشْفَاقِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَا خُوطِبَتْ الْعَرَبُ بِالِانْتِمَاءِ إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾(103) وَنِعْمَ الأَبُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ.

وَمِنْ هَذَا دُعَاءُ زَكَرِيَاءَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾(104) لَمْ يَدْعُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِمَنْ بَاشَرَ وُجُودَه.

وَمِنْهُ مَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ مُعَرِّفاً لِعِبَادِهِ وَمُعَلِّماً لَهُمْ : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾(105) وَقَدْ سَوَّى سُبْحَانَهُ بَيْنَ الإِنْعَامِ بِالأَوْلاَدِ وَالإِنْعَامِ بِٱلْحَفَدَةِ، فَقَالَ : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾(106) وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ الأَقْرَبُ بِتَلَذُّذِ الْمُبَاشَرَةِ وَتَنَعُّمِ الرُّؤْيَةِ، وَإِلاَّ فَهُمْ وَمَنْ تَبَاعَدَ سَوَاءٌ.

26و. وَإِذَا وَضَحَ / أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَسُرُّهُ اخْتِصَاصُهُ بِالْخَيْرِ دُونَ مَنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَكُلُّ مَا سَلَفَ مِنْ دُعَائِهِ ﷺ لِلأَنْصَارِ عَامٌّ لَهُمْ وَلِمَنْ كَانَ عَلَى هَدْيِهِمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عَلَى أَنَّ هَذَا الذِي اسْتَقْرَيْنَاهُ بِالتَّأْوِيلِ والِاعْتِبَارِ، هُوَ الذِي أَفْصَحَ بِهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ : «وَلِذَرَارِيِّ الأَنْصَارِ».

وَمِمَّا يَشْهَدُ لأَنَّ الْحَفَدَةَ يُرَاعَى فِيهِمْ الأَجْدَادُ، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾(107) الآية. وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ هَذَا الأَبَ الْمَذْكُورَ فِي ٱلآيَةِ كَانَ سَابِعَ أَبٍ وَقِيلَ عَاشِراً، فَحَفِظَ اللَّهُ هَذَيْنِ الْغُلاَمَيْنِ رَعْياً لأَبِيهِمَا الْعَاشِرِ، فَحَصَلَ مِنْ هَذَا أَنَّ الآبَاءَ الْخِيرَةَ تَلْحَقُ بَرَكَتُهُمْ الذُّرِيَّةَ وَإِنْ

(103) سورة الحج 78.

(104) سورة آل عمران 38.

(105) سورة الفرقان 74.

(106) سورة النحل 72.

(107) سورة الكهف 82.

تَباعَدَ مَا بَيْنَهُمْ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَلَمْ يَرِدْ فِي آلآيَةِ بِظَاهِرِهَا سِوَى مُجَرَّدِ الْبَرَكَةِ، فَكَيْفَ إِذَا تَقَدَّمَ دُعَاءٌ وَسُؤَالٌ مِنْ سَيِّدِ الأَرْسَالِ ﷺ، وَمِنْ رَعْيِ مِثْلِ هَذَا وَإِنْ وَقَعَ التَّبَاعُدُ، وَصِيَّةُ نَبِيِّنَا ﷺ فِي قَوْلِهِ / لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «إِذَا اسْتَفْتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْراً، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً. أَوْ نَسَباً وَرَحِماً»(108) أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ، قِيلَ أَشَارَ إِلَى أَنَّ هَاجَرَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ كَانَتْ مِنْهُمْ فَتَأَمَّلْ كَيْفَ لَحِقَتْ بَرَكَتُهَا مَنْ تَبَاعَدَ مِمَّنْ يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى نَسَبٍ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا أَيْضاً مَا وَرَدَ فِي الضِّدِّ مِنْ حَدِيثِ الْمُمْتَحِنِ الْقَائِلِ لِرَسُولِ آللَّهِ ﷺ : اِعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ لَهُ ﷺ : وَيْحَكَ أَوْ وَيْلَكَ، إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، فَمَنْ يَعْدِلُ، فَأَرَادَ عُمَرُ قَتْلَهُ فَكَفَّهُ ﷺ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِيءِ هَذَا قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ إِلَى صَلاَتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمْيَةِ(109)، فَأَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَنَّ شُؤْمَ هَذَا الْمُمْتَحِنِ يَلْحَقُ آلَهُ وَذُرِّيَّتَهُ، فَكَانَ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَظَهَرَت الْخَوارِجُ مِنْ ضِئْضِيءِ ذَلِكَ الرَّجُلِ وَآلِهِ، وَقَتَلَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَتَلَ فِيهِمْ الْمُخْرَجَ الَّذِي نَعَتَهُ ﷺ لأَصْحَابِهِ وَسَمَّاهُ(110)، وَذَلِكَ مِنْ إِعْلاَمِهِ ﷺ بِمَا يَكُونُ بَعْدَهُ /.

26ظ.

27و.

فَقَدْ وَضَحَ وُضُوحاً لاَ إِشْكَالَ فِيهِ أَنَّ بَرَكَةَ السَّلَفِ تُدْرِكُ الْخَلَفَ وَأَنَّ مَا دُعِيَ لَهُمْ بِهِ مَرْجُوٌّ أَثَرُهُ فِي خَلَفِهِمْ إِلَى أَعْقَابِ الأَعْقَابِ.

فَإِنْ قُلْتَ مِنْ أَيْنَ يُسْتَشْعَرُ أَوْ يَقْوَى الرَّجَاءُ وَالظَّنُّ أَنَّ شَخْصاً مَّا أَوْ أَشْخَاصاً مِنْ ذُرِّيَّةِ رَجُلٍ صَالِحٍ أَوْ مَدْعُوٌّ لَهُ أَوْ جَامِعٍ لِلأَمْرَيْنِ كَمَا فِي قِصَّتِنَا قد ظَهَرَتْ فِيهِ أَوْ فِيهِمْ بَرَكَةُ مَنْ تَقَدَّمَهُ أَوْ أَثَرُ مَا دِعِيَ لَهُ بِهِ.

---

(108) رواه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ونقله عنه السيوطي في حسن المحاضرة 1 : 4. وفيهما : فاستوصوا بالقبط ؛ والحديث كما أورده المؤلف من صحيح الإمام مسلم 16 : 97.

(109) انظر تخريجه في المعجم المفهرس 6 : 204.

(110) الإشارة إلى حرقوص بن زهير كبير الخوارج، وهو المقتول بالنهروان، ويلقب بذي الثدية كسمية، وفيه قال سيدنا علي إنه مخدّج اليد أي ناقصها.

فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا غَيْرُ خَافٍ عَلَى ذَوِي الْبَصَائِرِ، فَإِنَّ الْخَالِفَ إِذَا أَشْبَهَ السَّالِفَ فِي خِصَالٍ حَمِيدَةٍ، وَصِفَاتٍ فِي ذَلِكَ السَّالِفِ عَدِيدَةٍ، وَأَخَصُّ تِلْكَ الصِّفَاتِ صِفَاتُ الإِيمَانِ الَّتِي تَسْتَجِرُّ الإِجَابَةَ فِي كُلِّ مَا دُعِيَ بِهِ، وَاسْتُشْعِرَتْ فِي هَذَا الْخَالِفِ إِجَابَةُ ذَلِكَ الدُّعَاءِ لِلسَّالِفِ وَعُرِفَتِ الْبَرَكَةُ.

فَإِن كَانَ بِحَسَبِ حَالِهِ وَوَصْفِهِ مَظِنَّةٌ لِاحْتِيَاجِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ وَظُهُورِ تِلْكَ الْبَرَكَةِ ثُمَّ ظَهَرَ مِنْهَا عَلَيْهِ أَثَرٌ عُلِمَ بِالْقَطْعِ مَا كَانَ يُرْجَى.

وَأَوْلَى الْخَلْقِ وَأَحْوَجُهُمْ بِالدُّعَاءِ مَنِ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ عِبَادَهُ وَجَعَلَ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ وَمَقَالِيدَ شُؤُونِهِمْ وَحَوَائِجِهِمْ. فَلاَ أَوْلَى مِنْهُ بِالدُّعَاءِ لِعَظِيمِ أَمْرِ الإِسْتِرْعَاءِ. وَحَقِيقٌ عَلَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ / سَلِيمٍ وَدِينٍ قَوِيمٍ، أَنْ يَخُصَّهُ بِمَرْجُوِّ أَوْقَاتِهِ. وَمَا يُخْلَقُ لَهُ مِنْ مَحْمُودِ حَالاَتِهِ. فَيُؤْثِرُهُ بِدُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ، وَيَعْتَقِدُ ذَلِكَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِهِ لِعُمُومِ الْمَرْجُوِّ إِجَابَتُهُ مِنْ ذَلِكَ الدُّعَاءِ، وَشُمُولِهِ مَنْ شَمِلَهُ عَظِيمُ ذَلِكَ الإِسْتِرْعَاءِ. 27ظ

وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : لَوْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ لَوَضَعْتُها فِي السُّلطانِ[111]، فَمِثْلُ هَذَا الْجَلِيلِ مِنَ الْخَلَفِ، أَوْلَى الْخَلْقِ بِالْبَرَكَةِ وَإِجَابَةِ مَا دُعِيَ بِهِ لِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ عَظِيمِ ذَلِكَ السَّلَفِ، فَتَعَيَّنَ أَخْذُ مِثْلِ هَذَا مِنْ تِلْكَ الْبَرَكَةِ وَالدُّعَاءُ بِأَوْفَرِ مَطْلُوبٍ، وَأَسْنَى مَرْغُوبٍ، فَهُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَالْمَعْنِيُّ قَطْعاً بِمَا سَنَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ بَرَكَةٍ وَدُعَاءٍ لِسَلَفِهِ أُولَئِكَ، فَقَدِ اتَّصَلَ النَّسَبُ وَقَوِيَ بِوَحْدَةِ الدِّينِ وَقُوَّةِ الْيَقِينِ، وَلِلْهَدْيِ الْمُبِينِ الْتَحَمَ ذَلِكَ الْمُنْتَمَى الْجَلِيلِ وَعَلَى ذَلِكَ النَّسَبُ، وَشَمِلَ السَّلَفَ وَالْخَلَفَ جَلِيلُ الإِعْتِنَاءِ النَّبَوِي وَالإِصْطِفَاء، وَقَوِيَ الرَّجَاءُ فِي الْحَظِّ الْعَظِيمِ مِنْ مَوْعُودِ خُصُوصِ الدُّعَاءِ. فَقَدْ رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ النَّسَائِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي فَضَائِلِ الأَنْصَارِ، أَنَّهُ ﷺ قَالَ : «قَضَوْا مَا عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ»[112].

---

(111) الكلمة للفضيل بن عياض، انظر نهاية الأرب 6 : 37.

(112) هو أيضا في كتاب مناقب الأنصار من صحيح البخاري.

28ظ وَإِذَا تَحصَّلَ بِفَضْلِ ٱللَّهِ / الإِسْتِنَانُ، فِيمَا أَلْزَمَتْهُ السُّنَّةُ وَالْقُرْآنُ، مِنْ حُكْمٍ لِلْمَسْنُونِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْمَتْرُوكِ وَالْفَرْضِ، فَتِلْكَ كَمَا قَالَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[113] وَالْبَرَكَاتُ شَامِلَةٌ، وَسَحَائِبُ الرَّحْمَةِ وَاكِبَةٌ هَامِلَةٌ، لاَشَكَّ وَلاَ ارْتِيَابَ، لِمَنْ تَدَبَّرَ وَاسْتَبْصَرَ وَأَنَابَ.

وَأَمَّا الرُّجُوعُ إِلَيْهِمْ وَدُعَاؤُهُمْ عِنْدَ الأَزَمَاتِ وَالشَّدَائِدِ، فَسُنَّةٌ مَاضِيَةٌ، وَرُتْبَةٌ سَامِيَةٌ، أَصْلُهَا مَا فَعَلَهُ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ كَانَ مِنْ سَرْعَانِ النَّاسِ وَأَخْلاَطِ الأَعْرَابِ مَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنَ التَّوَلِّي وَالإِدْبَارِ، فَقَالَ ﷺ : «يَا عَبَّاسُ أُصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السَّمُرَةِ، قَالَ : فَأَجَابُوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ»، قَالَ ابْنُ إِسْحَاق : حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مِائَةٌ اسْتَقْبَلُوا النَّاسَ فَاقْتَتَلُوا، قَالَ فَكَانَتِ الدَّعْوَى أَوَّلَ مَا كَانَتْ يَا لَلأَنْصَارِ، ثُمَّ خَلُصَتْ أَخِيراً يَا لَلْخَزْرَجِ. قَالَ : وَكَانُوا صُبُراً عِنْدَ الْحَرْبِ. وَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُومِنِينَ.

28ظ. فَمَا رَجَعَ سَرْعَانُ النَّاسِ مِنْ جَوْلَتِهِمْ إِلاَّ وَقَدْ قَضَى اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مِنَ / النَّصْرِ مَا وَعَدَهُ. وَهَزَمَ أَعْدَاءَهُ عَلَى شِدَّةِ شَوْكَتِهِمْ وَصُعُوبَةِ شَكِيمَتِهِمْ. فَهَزَمَهُمُ ٱللَّهُ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ، وَحَكَّمَ فِيهِمْ سُيُوفَ أَهْلِ التَّنْزِيلِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُومِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[114] وَكَانَ ﷺ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ. وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِثَفْرِهَا وَالْعَبَّاسُ آخِذٌ بِحَكَمَةِ الْبَغْلَةِ وَقَدْ شَجَرَهَا بِهَا، وَهُوَ ﷺ وَاقِفٌ بِمَكَانِهِ لَمْ يَبْرَحْ مَعَهُ قَلِيلٌ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَقَدْ عَمَّ النَّاسَ مَا قُدِّرَ عَلَيْهِمْ مِنْ تِلْكَ الْجَوْلَةِ. ثُمَّ نُودِيَ بِالأَنْصَارِ كَمَا تَقَدَّمَ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاق. وَاجْتَلَدَ النَّاسُ. فَوَاللَّهِ مَا رَجَعَتْ رَاجِفَةُ النَّاسِ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ حَتَّى وَجَدُوا الأُسَارَى مُكَتَّفِينَ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ، فَاسْتَوْلَتْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى سَلَبِهِمْ

---

(113) سورة آل عمران 34.

(114) سورة التوبة 25.

29و. وَسِلاَحِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ. وَقَدِ اسْتَوْفَى أَهْلُ السِّيَرِ خَبَرَهُمْ /[115].

فالاِسْتِغَاثَةُ بِخَلَفِ الأَنْصَارِ، اسْتِنَانٌ بِسَيِّدِ الأَبْرَارِ، لأَنَّهُ إِذَا عُدِمَ السَّلَفُ، رُجِعَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنِ اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ وَحَذَا حَذْوَهُمْ مِنَ الْخَلَفِ، وَالاِقْتِدَاءُ بِأَفْعَالِهِ ﷺ وَأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَإِقْرَارِهِ سُنَّةٌ لاَ يَعْدِلُ عَنْهَا إِلاَّ مَخْذُولٌ.

فَإِن قِيلَ، إِنَّمَا هَذَا فِي التَّكَالِيفِ وَحَيْثُ أُمِرْنَا بِذَلِكَ، وَفِيهِ قِيلَ لَنَا : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[116] وَفِيهِ أُمِرْنَا بِطَاعَتِهِ وَحُذِّرْنَا مِنْ مَعْصِيَتِهِ، أَمَّا مَا شَأْنُهُ غَيْرُ التَّكْلِيفِ فَمَتَى يَلْزَمُ فِيهِ مَا ذَكَرْتَ مِنَ التَّوْقِيفِ.

قُلْتُ اتِّبَاعُهُ وَالاِقْتِدَاءُ بِهِ مُطْلَقاً شَأْنُ الْمُتَوَرِّعِينَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِسُنَّتِهِ وَالْمُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِ، وَأَثَرُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي هَذَا وَمُرْتَكَبُهُمْ مَعْلُومٌ، مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ أَنَسٍ أَنَّ خَيَّاطاً دَعَا رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ إِلَى طَعَامٍ، فَقَدَّمَ إِلَيْهِ خُبْزَ شَعِيرٍ وَمَرَقاً فِيهِ دُبَّاءٌ، قَالَ فَرَأَيْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَيِ الْقَصْعَةِ، فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّهَا مِنْ يَوْمَئِذٍ[117]، وَأَدَارَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نَاقَتَهُ فِي مَوْضِعٍ بَعْدَ أَنْ وَقَفَ بِهِ، 29ظ. فَقِيلَ لَهُ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا، فَقَالَ وَٱللَّهِ مَا أَدْرِي إِلاَّ أَنِّي رَأَيْتُ / رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ بِهَذَا الْمَكَانِ وَأَدَارَ نَاقَتَهُ، فَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ[118]، وَهَذَا كَثِيرٌ، وَهُوَ فِي أُمُورٍ لاَ شَوْبَ عِبَادَةٍ فِيهَا. فَكَيْفَ فِيمَا فِيهِ شَوْبُ عِبَادَةٍ أَوْ هُوَ عِبَادَةٌ، بَلْ قَوْلُهُ ﷺ : «الأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي»[119]، يُوجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَمِدَ مِنْهُ مَا يَجِبُ اعْتِمَادُهُ، وَدُعَاؤُهُ ﷺ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصِ سَالِفٍ عَنْ خَالِفٍ، وَإِطْلاَقُهُ الْحُبَّ فِي جَمِيعِهِمْ إِلَى غَيْرِ هَذَا.

فَاتِّبَاعُ مَنْ هَيَّأَهُ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ لِلاِتِّبَاعِ، وَحَلاَّهُ مِنْ مَوَاهِبِهِ الاِصْطِفَائِيَّةِ

---

(115) راجع على سبيل المثال باب قول الله تعالى : ﴿ويوم حنين...﴾ في صحيح البخاري.

(116) سورة النور 63.

(117) هو في باب جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين من صحيح مسلم 13 : 223.

(118) انظر ترجمة عبد الله بن عمر في الاستيعاب 3 : 950، وفيه ما أشار إليه المؤلف هنا.

(119) من حديث في كتاب مناقب الأنصار من صحيح البخاري، ومعناه أنهم جماعتي وخاصتي، وقد تقدم.

بِمَا تَحْسُنُ بِهِ أَحْوَالُ الأَتْبَاعِ، وَأَظْهَرَ الْخَيْرَاتِ عَلَى يَدَيْهِ، وَجَعَلَ تَدْبِيرَ خَلْقِهِ وَفْقاً عَلَيْهِ، حُكْمٌ يَجِبُ الْتِزَامُهُ، وَيَتَعَيَّنُ إِلْزَامُهُ، فَهَذَا مَا نَرَاهُ دِيناً، وَنَسْلُكُهُ طَرِيقاً مُسْتَقِيماً، وَهَذَا الْقَدْرُ كَافٍ لِمَنْ وَفَّقَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى فَصْلِ التَّمْهِيدِ، بَيَانُ كَوْنِ صُقْعِنَا الأَنْدَلُسِي أَحَقُّ بِالتَّخْصِيصِ بِالنَّصْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ وَالْفَتْحِ الْمُبَشَّرِ مِنَ الْقُطْرِ الشَّامِي، وَإِنْ كُنَّا نَنْتَظِرُ ذَلِكَ مُطْلَقاً مِنْ غَيْرِ تَقَيُّدٍ بِنَصْرٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَلْنُبَوِّبْ عَلَيْهِ.

30و. **الْبَابُ الرَّابِعُ فِيمَا يُقَوِّي أَنَّ الأَنْدَلُسَ / أَوْلَى بِأَنْ يَتَنَاوَلَهَا الْخَبَرُ الْمَوْعُودُ بِهِ مِنْ غَيْرِهَا.**

أَقُولُ مُسْتَعِيناً بِاللَّهِ : لاَ خَفَاءَ أَنَّ هَذَا الصُّقْعَ فِي مُجَاوَرَةِ الرُّومِ أَوْغَلُ وَأَمْكَنُ مِنَ الْقُطْرِ الشَّامِي وَإِنْ تَسَاوَيَا فَهَذَا أَحْوَجُ، لِاتِّصَالِهِ بِالْعَدُوِّ مِنْ غَيْرِ حَاجِزٍ، وَانْقِطَاعِهِ عَنْ بِلاَدِ الإِسْلاَمِ، وَاتِّصَالِ عَدُوِّهِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ مِنْ غَيْرِ تَحَاجُزٍ، وَفِي الأَرْضِ الْمُتَّصِلَةِ بِهِ رُومَةُ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةُ الْعُظْمَى، فَالفَتْحُ مِنْ هُنَا أَمْكَنُ وَأَوْغَلُ فِي الإِسْتِيلاَءِ عَلَى ٱلأَعْدَاءِ، إِلاَّ أَنَّ الأَحَادِيثَ تَظَاهَرَتْ بِمَا يَحْصُلُ مِنْهُ أَنَّ فَتْحَهَا إِنَّمَا يَكُونُ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ جِهَةِ أَرْضِ الشَّامِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ مِنْ مُجَرَّدِ فَتْحِهَا الإِسْتِيلاَءُ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : «ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لِبَقَاءِ بِلاَدِ الرُّومِ الْمُتَكَاثِفَةِ الأَقْطَارِ، وَالْخَارِجَةِ عَدّاً عَنِ الإِحْصَاءِ وَالإِنْحِصَارِ، تَتَوَالَى وَتَتَّصِلُ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ وَالْبَحْرِ الشَّامِي أَخْذاً إِلَى الْمَغْرِبِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى أُشْبُونَةَ وَمَا فِي مُوَازَنَةِ غَرْبِ الْعُدْوَةِ مِنَ الأَنْدَلُسِ.

فَإِنْ قِيلَ : لَعَلَّ هَذَا الْفَتْحَ مُتَّصِلٌ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ هَذِهِ الْبِلاَدَ.

30ظ فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا غَيْرُ الظَّاهِرِ لِوَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي مُدَّةً طَوِيلَةً / بَعْدَ فَتْحِهَا وَسِنِينَ عِدَّةً، وَلاَبُدَّ مِنْ طُولِ الْمُدَّةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ لِاتِّسَاعِ الأَقْطَارِ وَتَكَاثُفِهَا وَتَبَاعُدِهَا، وَالْخَبَرُ فِي فَتْحِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ لاَ يَقْتَضِي طُولَ مُدَّةٍ بَعْدَ فَتْحِهَا الْبَتَّةَ. فَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُمْ إِذَا فَتَحُوهَا بَيْنَمَا هُمْ يَقْسِمُونَ الْغَنَائِمَ وَرَدَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرُ

بِخُرُوجِ الدَّجَّالِ وَرَاءَهُمْ، وَأَنَّهُ قَدْ خَلَفَهُمْ فَيَرْجِعُونَ. وَفِي الْخَبَرِ الآخَرِ : الْمَلْحَمَةُ الْعُظْمَى وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينَةِ وَخُرُوجُ الدَّجَّالِ فِي سَبْعَةِ أَشْهُرٍ. خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِي وَغَيْرُهُمَا(120)، فَهَذِهِ مُدَّةٌ لاَ تَتَّسِعُ لِشَيْءٍ مِمَّا وَرَاءَهَا. أَمَّا إِذَا كَانَ غَزْوُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَلاَ يَلْزَمُ مِنْ طُولِ الْمُدَّةِ مُعَارَضَةُ الأَحَادِيثِ، لأَنَّ فَتْحَ الْقُسْطَنْطِينِيَةِ يَكُونُ آخِرَ ذَلِكَ. فَلاَ يُعَارِضُ طُولَ الْمُدَّةِ قَبْلَهُ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّا قَدْ قَدَّمْنَا فِيمَا مَضَى أَنَّ الْقُطْرَ الأَنْدَلُسِي أَوْلَى الأَقْطَارِ بِتَوَفُّرِ الْحَظِّ مِنْ ذَلِكَ الْوَعْدِ الْكَرِيمِ، وَبَسَطْنَا فِي ذَلِكَ مَا فِيهِ شِفَاءٌ. وَاعْتَذَرْنَا عَنْ مَا يُتَوهَّمُ مِنْهُ مُعَارَضَةٌ.

فَإِذَا أَرَدْنَا الْجَمْعَ بَيْنَ هَذِهِ الأَحَادِيثِ بَنَيْنَا هَذِهِ الْكَرَّةَ وَالْعَوْدَةَ عَلَى الْبَدْأَةِ أَوَّلَ الإِسْلاَمِ فِي غَزْوِ هَذَا الْعَدُوِّ.

وَذَلِكَ أَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ إِنَّمَا غَزَوْهُمْ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَفَتَحُوا مَا يَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بِلاَدِهِمْ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، فَغَزَوا الشَّامَ / وَكَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ بِلاَدِ الرُّومِ وَأَكْثَفِهَا عَدُوّاً، وَفَتَحَهَا ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغُوا الْقُسْطَنْطِينِيَةَ وَمَاتَ بِهَا أَبُو أَيُّوبِ الأَنْصَارِي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(121)، وَدَخَلَ طَارِقٌ الأَنْدَلُسَ مِنَ الطَّرَفِ الْغَرْبِي بُعَيْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا مَا فَتَحَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مُسَطَّرٌ(122)، فَكَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْبَدْأَةُ كَذَلِكَ تَكُونُ هَذِهِ الْعَوْدَةُ إِلاَّ أَنَّهَا أَكْثَرُ انْتِهَاءً وَأَعْظَمُ اسْتِيلاَءً وَأَشَدُّ عَلَى الرُّومِ مَوْقِعاً. فَإِنَّهَا قَاصِمَةٌ ظُهُورَهُمْ إِلَى الأَبَدِ وَلاَ كَرَّةَ لَهُمْ بَعْدَهَا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ.

31و.

وَإِلَى هَذَا الْفَتْحِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُومِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾(123) وَمَعَ آخِرِ هَذَا الْفَتْحِ الْمُتَطَاوِلِ الْمُدَّةِ، الْمُتَوَالِي مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعٍ فِي

(120) الحديث في أبواب الفتن من صحيح الترمذي، انظر عارضة الأحوذي 9 : 91 وانظر فيمن خرجه جمع الجوامع للسيوطي 1 : 448.

(121) كان استشهاد أبي أيوب سنة 52هـ وضريحه يزار إلى اليوم في اسطنبول.

(122) انظر على سبيل المثال أخبار فتح الأندلس في نفح الطيب.

(123) سورة الروم 4.

سِنِين عِدَّةٍ، يَكُونُ ظُهُورُ الْمَهْدِي الْمَذْكُورِ فِي ٱلْحَدِيثِ. وَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ سَبْعَةَ أَعْوَامٍ، وَظُهُورُهُ مِنْ تِلْكَ الْبِلاَدِ يَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ، وَعَلَى عَقِبِ ذَلِكَ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ أَصْبِهَانَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ فِي الإِفْصَاحِ بِالْمَقْصُودِ، وَرَفْعِ لَهْفِ الظَّمْآنِ بِالشُّرُوعِ فِي الْوُرُودِ، / وَيَنْطَوِي عَلَى تَمْهِيدٍ وَأَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ. 31ظ.

بَابُ التَّمْهِيدِ :

أَقُولُ وَأَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ وَالْعَوْنَ : إِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ فِي شَرِيعَتِنَا إِخْفَاءَ أُمُورٍ عُلِمَ كِيَانُهَا، وَأُبْهِمَ زَمَانُهَا وَأَوَانُهَا. ثُمَّ لَمْ تَمْنَعِ الشَّرِيعَةُ أَهْلَ الاِعْتِبَارِ، وَذَوِي التَّيَقُّظِ مِنَ الْعُلَمَاءِ النُّظَّارِ، مِنَ الاِجْتِهَادِ فِي ٱلْبَحْثِ وَالتَّنْقِيرِ، فِي هَذَا الضَّرْبِ الْخَطِيرِ، وَاقْتِفَاءِ غَوَامِضِ الأَثَرِ، لِلاِطِّلاَعِ عَلَى خَفِيِّ ذَلِكَ الْخَبَرِ، فَمِنْ مُحَوِّمٍ مُقَارِبٍ. وَمِنْ مُبَاعِدٍ مُجَانِبٍ، كُلٌّ بِحَسَبِ مَا هُيِّئَ لَهُ فِي قَصْدِهِ، وَوُفِّقَ فِي سَمَاءِ رَصْدِهِ، وَالأَجْرُ جَارٍ بِحَسَبِ النِّيَّةِ وَالْعَمَلِ، وَتَوَفُّرُهُ أَوْ نَقْصُهُ جَزَاءُ وِفَاقٍ، وَمُنَاسَبَةُ اتِّفَاقٍ، فِي الإِصَابَةِ والزَّلَلِ، إِذِ الْكُلُّ مَعَ خُلُوصِ الضَّمِيرِ مَحْسُوبٌ فِي ذَوِي الاِعْتِبَارِ، وَمُقْتَفٍ أَثَرَ الْقُدْوَةِ النُّظَّارِ.

فَمِنْ أَعْظَمِ مَخْفِيَاتِ الشَّرِيعَةِ أَمْرُ السَّاعَةِ، وَمَعَ أَنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ أَحَدٍ مِنْ أَوَانِ كِيَانِهَا عَلَى الْيَقِينِ، فَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ ﷺ فِي سُؤَالِ جِبْرِيلَ : وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا، فَأَرَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَانُوناً فِي مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ، وَهُوَ أَنَّ الْبَحْثَ وَالاِسْتِدْلاَلَ، شَأْنُ ذَوِي الْكَمَالِ، وَأَنَّ / أَقْرَبَهُمْ إِصَابَةً، أَجْنَحُهُمْ إِلَى الاِعْتِبَارِ وَالتَّنْقِيرِ إِنَابَةً. 32و.

وَمِنْ ذَلِكَ السَّاعَةُ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ وَالصَّلاَةُ الْوُسْطَى، فَهَذِهِ الأَرْبَعَةُ مِنْ مَشْهُورِ مَخْفِياتِ الشَّرِيعَةِ مَعَ اتِّفَاقِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الاِجْتِهَادِ فِي أَمْرِهَا وَطَلَبِ الْعُثُورِ عَلَى التَّعْيِينِ وَتَعَرُّفِ الأَوَانِ، وَخِلاَفُهُمْ فِي الثَّلاَثِ الأَخِيرَةِ مَشْهُورٌ مُتَدَاوَلٌ، وَأَمَّا أَمْرُ رَابِعَتِهَا وَهِيَ السَّاعَةُ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ فِيهَا مِنَ التَّعْيِينِ الْوَقْتِي

مِثْلُ مَا جَرَى فِي الأُخَرِ مِنَ الإِخْتِلاَفِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ﷺ : «وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا» صَرِيحُ إِذْنٍ مِنْهُ ﷺ فِي الاِجْتِهَادِ عَلَى التَّحْوِيمِ وَإِنْ لَمْ يَقَع التَّعْيِينُ، وَأَيْضاً فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ إِنَّمَا يَمْنَعُ الاِطِّلاَعَ الْمُتَيَقَّنَ وَادِّعَاءَهُ، وَلِهَذَا لَمْ يَقَعْ لأَحَدٍ مِنَ الْمُتَشَرِّعِينَ ادِّعَاءُ تَعْيِينِ الْوَقْتِ قَطْعاً، وَإِنَّمَا حَوَّمُوا عَلَى ظَنٍّ.

وَأَقْرَبُ مَا فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ظَنُّ مَنْ تَعَلَّقَ فِي تَعَرُّفِ طُولِ مُدَّةِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالْحُرُوفِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ إِذَا أُسْقِطَ الْمُتَكَرِّرُ مِنْهَا، وَيَجْمَعُهَا قَوْلُكَ : «أَلَمْ يَسْطَعْ نَصُّ حَقٍّ كُرِهَ» وَلِجَمِيعِهَا مِنَ الْعَدَدِ عَلَى مَا تَعَارَفَهُ وَتَنَاقَلَهُ مُعْتَمِدُوهَا فِي الْحِسَابِ[124] / وَجَرَى ذِكْرُ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَمَّتْ يَهُودُ بِالتَّعَلُّقِ بِهِ، فَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ﷺ وَلاَ أَقَرَّ، وَذَلِكَ حِينَ سَمِعَتْ يَهُودُ بِنُزُولِ الٓمٓ فَقَالُوا كَيْفَ نَتَّبِعُ مَنْ أَقْصَى مُدَّةِ أَمْرِهِ أَوْ كَمَا قَالُوا إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً، فَلَمَّا نَزَلَ الٓمٓصٓ والٓمٓرٰ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ عَظُمَ عَلَيْهِمْ وَتَحَيَّرُوا، وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِمْ كَمَا لَمْ يُنْكِرْ هُوَ ﷺ، فَتَعَلَّقَ بِهَذَا بَعْضُ الجِلَّةِ[125] وَاعْتَبَرَهُ، فَوَجَدَ الْمُتَحَصِّلَ مِنَ الْعَدَدِ فِي هَذِهِ الْحُرُوفِ إِذَا أُسْقِطَ الْمُتَكَرِّرُ ثَمَانَ مِائَةٍ وَأَرْبَعاً وَتِسْعِينَ سَنَةً[126]، وَاعْتَمَدَ عَلَى أَنَّا إِذَا ضَمَمْنَا إِلَى هَذَا مَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : «إِنْ صَلَحَتْ أُمَّتِي فَلَهَا يَوْمٌ وَإِنْ فَسَدَتْ فَلَهَا يَوْمٌ وَالْيَوْمُ أَلْفُ سَنَةٍ»[127] قَالَ : وَقَدْ حُزْنَا نِصْفَهُ وَظَهَرَ صَلاَحُ الأُمَّةِ بِخَيْرِيَةِ سَلَفِهَا وَاجْتِهَادِهِمْ

32ظ.

(124) عددها بحساب الجمل حسب الترتيب المغربي هو تسعمائة وثلاثة. انظر تفصيل ذلك في روض الأنف 2 : 37 وانظر كذلك مقدمة ابن خلدون : 315، ط. القاهرة 1320.

(125) هو السهيلي في الروض الأنف، وقد نقل ابن الزبير هنا محتوى المطلب الوارد في الكتاب المذكور، ج 2، ص 37 وسيعود المؤلف فيذكر السهيلي باسمه في آخر هذه الرسالة.

(126) هذه النتيجة غريبة ولا ندري سبب وقوعها هكذا هنا فالذي في الروض الأنف أن المتحصّل من الحروف التي يجمعها قولنا : «ألم يسطع نص حق كره» هو تسعمائة وثلاثة، وتفصيل ذلك أن ق مائة ور مائتان وبس ثلاثمائة فهذه ستمائة وع سبعون وص ستون فهذه سبعمائة وثلاثون ون خمسون وكـ عشرون فهذه ثمانمائة وتسعون وح ثمانية وهـ خمسة فهذه تسعمائة وثلاثة. راجع الروض الأنف 2 : 37؛ ومقدمة ابن خلدون : 315.

(127) في الروض الأنف 2 : 37 : «وقد روى أن المتوكّل العبّاسي سأل جعفر بن عبد الواحد =

فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالَ : فَحَصَلَ رَجَاءُ كَمَالِ الْيَوْمِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ﷺ، قَالَ : وَقَدْ قَالَ ﷺ : «أَنَا أَكْرَمُ عَلَى رَبِّي مِنْ أَنْ أَلْبَثَ تَحْتَ الأَرْضِ أَلْفَ سَنَةٍ»[128] 33و.
فَإِذَا أَعْمَلْنَا هَذَيْنِ الضَّرْبَيْنِ مِنَ الْوَارِدِ عَنْهُ، وَقُلْنَا / لَهَا يَوْمٌ بِمُقْتَضَى الْحَدِيثِ الأَوَّلِ فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ إِلَى آخِرِهِ لِنَجْمَعَ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ، فَإِذَا اعْتَمَدْنَا هَذَا الإِعْتِبَارَ وَجَدْنَا اسْمَ الْيَوْمِ يُطْلَقُ عَلَى الأَكْثَرِ لُغَةً وَعُرْفاً لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِمَدَّةِ هَذِهِ الإِمَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ، فَلاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ، أَيْ لاَ يُظْهِرُهَا جَلِيَّةً لاَ إِشْكَالَ وَلاَ إِلْبَاسَ فَضْلاً عَنِ الظَّنِ إِلاَّ مُقَدِّرُهَا جَلَّ وَتَعَالَى، وَهَذَا الإِعْتِبَارُ مِنْ هَذَا الْقَائِلِ لاَ مَانِعَ مِنْهُ شَرْعاً إِلاَّ أَنَّ قُصَارَاهُ ظَنٌّ لاَ قَطْعٌ، وَكَذَا يَقُولُ الْمُحَقِّقُونَ فِي سَائِرِ مَا قُدِّمَ مِنْ مَخْفِيَاتِ الشَّرْعِ، وَلَوْ قُطِعَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لاَرْتَفَعَ الْخِلاَفُ.

وَمُرَادُنَا نَحْنُ مِنْ هَذَا إِنَّهُ إِذَا تَمَهَّدَ هَذَا وَسَلَّمَهُ الشَّرْعُ وَأَخَذَ بِهِ أَئِمَّتُنَا فِيمَا ذُكِرَ، فَلاَ مُعَارِضَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِيمَا نَأْخُذُ بِهِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الإِعْتِبَارِ، لاَسِيَمَا وَقَدْ تَعَرَّضَ الشَّارِعُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِذِكْرِ وَقْتِهِ بِأَبْيَنَ مِمَّا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِهِ، فَهَذَا أَقْرَفُ لِلْوُقُوفِ عَلَى الْقَطْعِ فِي تَعْيِينِ وَقْتِهِ، فَلْنَعْتَمِدْ مَا ذَكَرْتُهُ دَلِيلاً، وَنَأْخُذُ فِي الْمَقْصُودِ بِحَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ / **الْبَابُ الأَوَّل** فِي اسْتِخْرَاجِ مَا نَرُومُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ : زَعَمَ بَعْضُ مَنْ بَلَغَنَا كَلاَمُهُ[129] أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ 33ظ.

= القاضي وهو عبّاسي أيضا عمّا بقي من الدنيا فحدّثه بحديث يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال : إن أحسنت أمتي فبقاؤها يوم من أيام الآخرة وذلك ألف سنة وإن أساءت فنصف يوم».

(128) سئل السيوطي عن هذا الحديث فأجاب بأنه باطل لا أصل له، وقد ألف رسالة سماها : الكشف، عن مجاوزة هذه الأمة الألف، وهي رسالة في أشراط الساعة.

(129) لا نعرف الآن من هو هذا الذي يشير إليه، ويفهم من كلامه أنه من معاصريه، ومما يتصل بهذا الموضوع ما أورده ابن الزبير أيضا في ترجمة أبي زكرياء يحيى اللبلي من صلة الصلة (ص 187) قال : «وهو الذي استخرج من تفسير أبي الحسين ابن برجان من كلامه على سورة «الم غلبت الروم» فتح بيت المقدس في الوقت الذي فتح فيه على المسلمين وحقّق وعيّن ما كان أغمض فيه ابن برّجان وأبهم ووقف عليه المنصور فبقي مرتقبا له ومعتنيا في نفسه به حتى كان ذلك على حسب ما قاله فأمر أن يحضر مجلسه ويرتسم في جملة طلبته»، وكان فتح بيت المقدس في سنة 583هـ، ونلاحظ أن ابن الزبير لم يذكر من أين استخرج يحيى اللبلي التاريخ المذكور.

الرُّومِ ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى انْتِهَاءِ الإِدَالَةِ الَّتِي قَضَى اللَّهُ لِلرُّومِ عَلَى أَهْلِ الإِسْلاَمِ فِي الْغَالِبِ مِن الأَمْرِ، وَأَنَّهُ يَعْقُبُ ذَلِكَ ابْتِدَاءُ بَشَائِرِ النَّصْرِ الْمُخْبَرِ بِهِ الْمُعْقَبِ بِالْفَتْحِ، فَإِنَّ الْعَدَدَ الْحَاصِلَ مِنْ حُرُوفِ ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ يَبْلُغُ سِتَّمِائَةٍ وَاثْنَيْنِ وَسِتِّينَ[130].

قَالَ : وَإِذَا اعْتَمَدْنَا بِنَاءَ تَارِيخِنَا عَلَى هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، صَدَقَ هَذَا الْعَدَدُ مُوَافِقاً لِابْتِدَاءِ أَخْذِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْغَالِبِ بِاللَّهِ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ فِي مُحَارَبَةِ الرُّومِ بِالْقُطْرِ الأَنْدَلُسِي وَاسْتِدْعَائِهِ مَنِ اسْتَدْعَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَهْلِ الْعُدْوَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِمَا أَلْهَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَيَّأَهُ لَهُ[131]، قَالَ هَذَا الْقَائِلُ : فَهَذَا مَا كَانَ يُتَحَدَّثُ بِهِ وَيُنْتَظَرُ، لِمُوَافَقَةِ الْخُبْرِ الْخَبَرَ. وَهُنَا انْتَهَى مَا وَقَرَ فِي الآذَانِ مِنْ قَوْلِ هَذَا الْقَائِلِ، وَهُوَ مُمْكِنٌ، وَلَمْ يَبْلُغْنَا زِيَادَةٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ مِنْ قَائِلِهِ.

34و. فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يُقَالُ بِإِمْكَانِهِ وَهُوَ غَيْرُ جَارٍ عَلَى مُقْتَضَى اللِّسَانِ الْعَرَبِي،/ فَإِنَّ الْبِضْعَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَاقِعٌ عَلَى مَا بَيْنَ الثَّلاَثِ إِلَى التِّسْعِ، وَقَدْ أَوْقَعَهُ هَذَا الْقَائِلُ عَلَى سِتِّمِائَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ، وَلَمْ تُرِدِ الْعَرَبُ بِهِ ذَلِكَ.

فَالْجَوَابُ أَنَّ إِمْكَانَ مَا قِيلَ صَحِيحٌ. وَالْبِضْعُ وَاقِعٌ عَلَى مَوْضُوعِهِ لُغَةً، وَذَلِكَ بِصَرْفِ الْعَدَدِ إِلَى الْمِئَاتِ لاَ إِلَى الآحَادِ، فَكَأَنَّهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ فِي بِضْعِ مِئِي سِنِينَ، وَأَنْتَ إِذَا عَدَدْتَ الْمِئَاتِ، فَقُلْتَ : ثَلاَثُ مِائَةٍ إِلَى تِسْعِ مِائَةٍ، فَمَا بَيْنَ الثَّلاَثِ إِلَى التِّسْعِ وَاقِعٌ عَلَيْهِ الْبِضْعُ، وَكَذَا لَوْ عَدَدْتَ الآلاَفَ، كَانَ مَا بَيْنَ ثَلاَثَةِ آلاَفٍ إِلَى تِسْعَةِ آلاَفٍ وَاقِعاً عَلَيْهِ الْبِضْعُ، كَمَا وَقَعَ مَا بَيْنَ ثَلاَثٍ

(130) تفصيل ذلك أن الفاء = 80 والياء = 10 والباء = 2 والضاد = 90 والعين = 70 والسين = 300 والنون = 50 والياء = 10 والنون = 50 ومجموع ذلك 662. ومن هذا القبيل ما ذكره ابن عربي في الفتوحات من أن أحد الأولياء بفاس استخرج نصر المسلمين في وقعة الأرك قبل وقوعها من قوله تعالى : ﴿فتحا مبينا﴾ لأن مجموع حروفها يُساوي 591 وهي سنة الأرك. انظر الاستقصا 2 : 193 — 194.

(131) في الذخيرة السنية : 68 والبيان المعرب : 430 — 432 أنّ أوّل دخول للمجاهدين من بني مرين إلى الأندلس كان سنة 662هـ، وقد تفاوت المؤرّخون في عدد أولئك المجاهدين من 300 إلى 3000.

إِلَى التِّسْعِ فِي ٱلآحَادِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بِوَجْهٍ، فَلاَ يُقَالُ إِنَّهُ غَيْرُ جَارٍ عَلَى مُقْتَضَى اللُّغَةِ، بَلْ هُوَ عَلَى صَرِيحِ وَضْعِ اللُّغَةِ.

فَأَقُولُ مُسْتَعِيناً بِٱللَّهِ سُبْحَانَهُ وَسَائِلاً مِنْهُ التَّوْفِيقَ وَالْعِصْمَةَ مِنَ الزَّلَلِ بِفَضْلِهِ. إِنَّ هَذَا الْمُرْتَكَبَ عَلَى مَا بَيَّنَاهُ مُمْكِنٌ لاَ مَانِعَ مِنْهُ، وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يُعْضَدَ وَيُقَوَّى بِأَنْ يُقَالَ إِنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ : ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ إِخْبَارٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ 34ظ. بِبِشَارَةِ الْمُومِنِينَ بِغَلَبِهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنَ الرُّومِ فِي أَدْنَى الأَرْضِ أَيْ أَقْرَبِها / إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَهِيَ الشَّامُ، فَالإِشَارَةُ إِلَى مَا فُتِحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ دَاخَلَهُمْ مِنَ الْمُخَضْرَمِينَ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ مِنْ غَلَبَةِ عَدُوِّهِمْ مِنَ الرُّومِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، وَمَا اتَّصَلَ بِهِ يَلِيهِ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَأَخْذِهِمْ بِلاَدَهُمْ وَاسْتِيلاَئِهِمْ عَلَى الشَّامِ بِجُمْلَتِهَا، وَكَانَ فَتْحاً عَظِيماً وَنَصْراً مُبِيناً فِي أَقْرَبِ الْبِلاَدِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ إِذْذَاكَ، ثُمَّ تَتَابَعَ ذَلِكَ وَانْتَشَرَ إِلَى أَخْذِهِمْ مِنَ الطَّرَفِ الآخَرِ بِفَتْحِ الأَنْدَلُسِ وَالْجَزَائِرِ الْبَحْرِيَةِ، وَانْتَهَى هَذَا الفَتْحُ إِلَى مَا قَدْ عُلِمَ، وَلَمْ يَنْقَطِعِ الصَّحَابَةُ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى شَاهَدُوا آخِرَهُ كَمَا شَاهَدُوا أَوَّلَهُ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿غُلِبَتْ الرُّومُ﴾ وَوَقَعَ بِلَفْظِ الْمَاضِي تَحْقِيقاً لِلأَمْرِ كَمَا وَقَعَ ﴿أَتَى أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وَكُلُّ مَقْطُوعٍ بِهِ فَشَأْنُهُ فِي الْكَثِيرِ أَنْ يَاتِيَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِلَفْظِ الْمَاضِي تَحْقِيقاً لِوُقُوعِهِ، وَمِنْهُ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ وَشِبْهُ ذَلِكَ، فَفَتْحُ الشَّامِ وَمَا وُصِلَ بِهِ مِنَ الفَتْحِ فِي الطَّرَفِ الآخَرِ كَمَا ذُكِرَ، هُوَ الْمُرَادُ الْمُبَشَّرُ بِهِ فِي الآيَةِ، وَإِنَّمَا يُبَشِّرُ اللَّهُ الْمُومِنِينَ بِمَا هُوَ لَهُمْ وَيَخُصُّهُمْ، وَقِيلَ بِأَدْنَى الأَرْضِ لِيَقَعَ الإِخْبَارُ بِمَا 35و. شَاهَدَهُ مُعْظَمُ الصَّحَابَةِ وَكِبَارُهُمْ / وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مِن اسْتِجْرَارِ مَا اتَّصَلَ بِهِ عَلَى التَّوَالِي كَمَا ذُكِرَ.

وَأَمَّا مَا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ هَذَا الْمَوْضِعَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا كَانَ مِنْ غَلَبَةِ فَارِسَ لِلرُّومِ وَأَنَّهُ سَيَكُونُ لِلرُّومِ عَلَيْهِمْ عَوْدَةٌ فِي زَمَانٍ قَرِيبٍ، وَهُوَ مَا بَيْنَ ثَلاَثَةِ أَعْوَامٍ إِلَى تِسْعٍ، الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْبِضْعُ فَصَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِيهِ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ وَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَقَرَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ مَفْهُومِ أَبِي

بَكْرٍ[132]، وذَلِكَ مِنْ مُقْتَضَى الآيَةِ وَمَقْصُودِهَا، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ وَكَانَ، ثُمَّ إِنَّ عُمُومَ الْعِبَارَةِ يَسَعُ مَا ذَكَرْنَا، وَقَدْ أَخْبَرَ بِهِ هُوَ ﷺ فِي طَيِّ قَوْلِهِ : «زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ» وَقَوْلِهِ : «عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ» وَلاَ يُحِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَلاَ يَحُضُّ إِلاَّ عَلَى حَاصِلٍ لأُمَّتِهِ، إِلَى أَخْبَارٍ أُخَر، وَلَمَّا كَانَ غَلَبُ فَارِسَ لِلرُّومِ مِنْ جُمْلَةِ مَقْصُودِ الآيَةِ وَأُعْجِلَ مَا وَقَعَ مِنْ مُضَمَّنِهَا، وَتَكَلَّمَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا عَرَّفَتْ بِهِ الآيَةُ، أَقَرَّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَلَيْهِ وَلَمْ يُنْكِرْ فَهْمَهُمْ، وَقَدْ عَلِمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنْهَا مَا أَخْبَرَ بِهِ وَبَشَّرَ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ مِمَّا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِهِ وَمَا هُوَ أَوْلَى لَهُمْ وَأَحَبُّ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ بِشَارَةَ الْمُومِنِينَ إِنَّمَا تَكُونُ بِمَا / يَخُصُّهُمْ، وَكِلاَ الْمَأْخَذَيْنِ وَالْقَوْلَيْنِ قَدْ قِيلَ بِهِ وَأُخِذَ الْمَوْضِعُ عَلَيْهِ، وَقَصْدُ جَمِيعِ ذَلِكَ مِنْ عُمُومِ الأَخْبَارِ أَصَحُّ وَأَوْلَى، وَمِثْلُ هَذَا لاَ يُنْكَرُ مِنْ إِعْطَاءِ الْكَلاَمِ الْفَصِيحِ الْوَجِيزِ الْمَعْنَيَيْنِ مَعاً فِي حَالٍ وَاحِدة، وَكَأَنَّهُ مِنْ ضَرْبِ تَعْمِيمِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ وَلَيْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُشْبِهُ الْمُتَوَاطِىءَ وَهُوَ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ، وَإِذَا أَخَذْنَاهُ عَلَى هَذَا لَمْ نُخَالِفِ الْمُفَسِّرِينَ، إِنَّمَا زِدْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ وَأَخْبَرَ بِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، مِنْ غَيْرِ دَفْعٍ لِمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ. (35ظ)

فَإِذاً تَقَرَّرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ إِخْبَارٌ عَمَّا يَكُونُ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِشَارَةٌ لِمَا كَانَ مِنْ إِدَالَتِهِمْ حَتَّى اسْتَرْجَعُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَكَثِيراً مِنْ بِلاَدِ الشَّامِ مِمَّا كَانَ أُخِذَ مِنْهُمْ وَاسْتِيلاَئِهِمْ أَيْضاً عَلَى الْكَثِيرِ مِمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ تَهَافُتُهُمْ عَلَى الْبِلاَدِ الْمَأْخُوذَةِ مِنْهُمْ وَاسْتَحْكَمَ ذَلِكَ بِالصُّقْعِ الأَنْدَلُسِي وَالْجَزَائِرِ الْبَحْرِيَةِ[133] إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي هِيَ الآنَ عَلَيْهَا بِبِلاَدِنَا، وَإِنْ كَانَتِ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَثْنَاءَ هَذِهِ الْمُدَّةِ سِجَالاً

---

(132) يشير ابن الزبير إلى المناحبة التي كانت بين أبي بكر وأبي بن خلف، انظر على سبيل المثال : الكشاف 3 : 197.

(133) يقصد صقلية وسردينية ورودس واقريطش وميُرقة ومنرقة وهي كلّها كان المسلمون قد افتتحوها ومكثوا فيها مدداً ثم استردها الروم في تواريخ مختلفة وقد سبق ذكرها آنفاً في البلاد المفتوحة.

يُصِيبُونَ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُمْ وَقَدْ فُتِحَ بِالْبِلاَدِ الشَّامِيَةِ عَلَى رَأْسِ المِائَةِ الْخَامِسَةِ، وَاسْتُرْجِعَ طَائِفَةٌ مِمَّا كَانَتْ لَهُمُ / الإِدَالَةُ فِيهِ، وَفُتِحَ بِجِهَاتِنَا إِذْذَاكَ مَوَاضِعُ، 36و.
إِلاَّ أَنَّ غَالِبَ الإِدَالَةِ بِبِلاَدِنَا ــ وَنَحْنُ الأَوْغَلُ فِي مُجَاوَرَتِهِمْ ــ إِنَّمَا كَانَتْ لَهُمْ، وَلَيْسَ يُعْطِي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أَنَّهُمْ غَالِبُونَ فِي كُلِّ هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّمَا يُعْطِي أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ لَهُمْ وَلاَ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَلاَ أَنَّ الْحَرْبَ تَكُونُ سِجَالاً، وَإِنَّمَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ عَلَيْهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ، وَيُعْطِي أَنَّ أَكْثَرَ ذَلِكَ لَهُمْ فِي هَذِهِ المُدَّةِ الْمُتَحَصَّلَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وَذَلِكَ سِتُّمِائَةٍ وَاثْنَتَانِ وَسِتُّونَ سَنَةً.

وَكَمَا لَمْ تَتَعَرَّضْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ لأَكْثَرَ مِمَّا ذُكِرَ، كَذَلِكَ لَمْ تَتَعَرَّضْ عَلَى التَّنْصِيصِ وَالتَّعْيِينِ أَنَّ نَصْراً يَكُونُ وَلاَبُدَّ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ تِلْوَهَا وَمُتَّصِلاً بِهَا، وَإِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَذِهِ النِّهَايَةَ هِيَ مُدَّةُ مَا يَكُونُ ظُهُورُهُمْ فِيهَا، مَعَ أَنَّ الأَمْرَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ لَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾(134) وَالْمُرَادُ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَمِنْ بَعْدِهَا، وَلاَ يَشُكُّ مُومِنٌ أَنَّ الأَمْرَ لِلَّهِ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَمِنْ بَعْدِهَا وَأَثْنَاءَهَا، فَإِنْ أَخَذْنَا الْكَلاَمَ عَلَى ظَاهِرِهِ، قُلْتُ فَائِدَتُهُ لِلْعِلْمِ بِذَلِكَ، وَكَلاَمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ / مِنْ أَنْ تَقِلَّ فَائِدَةُ شَيْءٍ مِنْهُ، 36ظ.
وَأَنْ يَجِيءَ الشَّيْءُ مِنْهُ مَعَ إِحْرَازِ الإِيجَازِ فِيهِ وَحِفْظِ بَلاَغَتِهِ ضَعِيفَ الْفَائِدَةِ، فَإِنَّمَا وَجْهُ تَخْصِيصِ هَذَيْنِ الظَّرْفَيْنِ مِمَّا قَبْلَ هَذِهِ المُدَّةِ وَمِنْ بَعْدِهَا الإِشَارَةُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِلَى جَرْيِ الأُمُورِ فِي الظَّرْفَيْنِ عَلَى مَا أَذْكُرُهُ.

أَمَّا الظَّرْفُ الأَوَّلُ، فَأَوَانُ خَرْقِ الْعَادَاتِ وَظُهُورِ الْمُعْجِزَاتِ مِنْ لَدُن بِعْثَتِهِ ﷺ إِلَى وَفَاتِهِ، فَجَرَى فِي ذَلِكَ مَا بَهَرَ الْعُقُولَ وَأَعْجَزَ الْخَلْقَ وَأَوْضَحَ الدِّلاَلَةَ عَلَى صِدْقِهِ ﷺ، وَذَلِكَ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَضُمَّهُ إِخْبَارٌ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ.

وَأَمَّا الظَّرْفُ الثَّانِي فَجَرَى فِيهِ أَشْيَاءُ مُسْتَغْرَبَةٌ وَوَقَائِعُ طَرِيفَةٌ تَكَادُ تَكْسِرُ

---

(134) سورة الروم 4.

الْقَوَانِينَ الْجَارِيَةَ، وَتَقَلَّبَتِ الأَحْوَالُ تَقَلُّباً لاَ يَكَادُ يَرْجِعُ لِقَانُونٍ مَأْلُوفٍ وَلاَ سَنَنٍ مَعْرُوفٍ، وَأَطَلَّ أَثْنَاءَهَا شَوَاهِدُ.وَإِنْ خَفِيَتْ عَلَى مَنْ غَفَلَ وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهَا لَمْ تَجْرِ عَلَى مَا كَانَتْ تَجْرِي عَلَيْهِ.

وَلَوْلاَ أَنْ يَطُولَ الْكَلاَمُ لَبَسَطْنَا مِنْ هَذَا الأَمْرِ وَأَوْضَحْنَا مَا لاَ تَوَقُّفَ فِيهِ، مِنْ جَرَيَانِ الْكَثِيرِ مِنْهُ عَلَى غَيْرِ أَقْيِسَةِ الْبَشَرِ.

وَلَمَّا كَانَ الْجَارِي أَثْنَاءَ الْمُدَّةِ الْمَذْكُورَةِ مُطَّرِداً عَلَى عَادَاتِ الْبَشَرِ الَّتِي عَوَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كَوْنِ الْوَقَائِعِ / وَالأُمُورِ مُقَيَّدَةً بِحَسَبِ تَدْبِيرِهِمْ وَاعْتِبَارِهِمْ، تَتَعَلَّلُ وَتَرْتَبِطُ بِأَسْبَابِهَا، فَاطَّرَدَ الأَمْرُ فِيهَا عَلَى هَذَا النَّهْجِ فِي الأَعَمِّ وَالأَغْلَبِ حَتَّى تُنْسَبَ إِلَيْهِمْ، وَلِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ إِصَابَةٍ أَوْ خَطَإٍ عُبِّرَ عَنْ ذَلِكَ بِغَلَبِهِمْ وَغَلَبِ غَيْرِهِمْ مَنْسُوباً فِعْلُهُ إِلَيْهِمْ، وَحَقِيقَتُهُ عِنْدَ الْمُوقِنِينَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَكِنْ خُوطِبَ الْخَلْقُ بِمَا يَفْهَمُونَ. (37و)

وَلَمَّا خَرَجَ الأَمْرُ فِي الظَّرْفَيْنِ عَنْ ذَلِكَ الاِرْتِبَاطِ حَسَبَمَا ذُكِرَ، عُبِّرَ عَنْهُ بِمَا الأَمْرُ عَلَيْهِ فِي حَقِيقَتِهِ، فَقِيلَ : ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ فَمِنْ قَبْلُ إِشَارَةٌ إِلَى الْجَارِي قَبْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ مِنْ أُمُورِهِ ﷺ وَبِعْثَتِهِ الْعَامَّةِ الرَّحْمَةِ، وَخَرْقِ الْعَادَاتِ الَّتِي لَمْ يُؤْلَفْ مِثْلُهَا وَانْكِسَارِ الْقَوَانِينِ الْمُطَّرِدَةِ مِنْ لَدُنْ بَدْأَةِ الْوَحْيِ وَنُزُولِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَالْعُرُوجِ بِهِ إِلَى السَّبْعِ الطِّبَاقِ وَإِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى مَا لاَ يُحْصَى مِنَ الآيَاتِ قَبْلَ هِجْرَتِهِ ﷺ وَبَعْدَهَا إِلَى أَنْ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَظْهَرَ دِينَهُ وَقَرَّرَ مِلَّتَهُ وَشَرِيعَتَهُ ﷺ، لِيَجْرِيَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ تَدْبِيرِ الْبَشَرِ وَقُدَرِهِمْ مِمَّا لاَ طَمَعَ فِيهِ لأَحَدٍ وَلاَ يَكِعُّ[135] عَنْهُ إِلاَّ مَنْ طُرِدَ.

(37ظ) وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ فَإِشَارَةٌ / إِلَى أَنَّ الْجَارِيَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الْمَضْرُوبَةِ وَالأَمَدِ الْمَحْدُودِ، يَجْرِي فِيهِ أَيْضاً لَوَامِعُ مِنْ تِلْكَ الآيَاتِ، يَعْجِزُ عَنْهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تَدْبِيرُ الْبَشَرِ، وَيُقِرُّ لَهَا النَّاظِرُ الْمُعْتَبِرِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ شِرْكَةَ فِيهَا لِمَخْلُوقٍ، وَأَنَّهَا شَوَاهِدُ بِانْفِرَادِهِ تَعَالَى أَوَّلاً وَآخِراً بِالْحُكْمِ وَالتَّدْبِيرِ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ،

---

(135) كع : جبن وضعف.

فَقِيلَ : ﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ إِشَارَةٌ لِمَا شَهِدَتْ بِهِ شَوَاهِدُ الظَّرْفَيْنِ مِنَ الْقَاطِعِ لِذَوِي الإِلْحَادِ وَالْمَيْنِ، وَنَظِيرُ هَذَا وَمُوَضِّحُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ وَتَسْمِيعُ الْعِبَادِ ذَلِكَ حِينَ تَنْقَطِعُ الدَّعَاوِي وَيَقَعُ الاِعْتِرَافُ مِنَ الكُلِّ، وَقَدْ عَلِمَ ذَوُو التَّوْفِيقِ وَالسَّالِكُونَ بِهِدَايَةِ ٱللَّهِ سَوَاءَ الطَّرِيقِ، أَنَّ الأَمْرَ لِلَّهِ، وَلَهُ الْمُلْكُ أَبَداً أَوَّلاً وَآخِراً، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ مَا وَقَعَ فِي سُورَةِ الرُّومِ، لاَ يَبْعُدُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ مَا ذُكِرَ، وَقَدْ أَتْبَعْنَاهُ بِمَا يُلاَئِمُ وَيُقَوِّي.

ثُمَّ إِنِّي عَثَرْتُ بَعْدُ عَلَى مَا يَجْمَعُ بَيْنَ تَقْوِيَةِ ذَلِكَ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وَيُشِيرُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى اسْتِجْرَارِ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبَةِ الرُّومِ فَارِسَ، وَغَلَبَةِ فَارِسَ الرُّومَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فَهَذِهِ الآيَةُ وَعِيدٌ لِلْكُفَّارِ / 38و.
وَإِنْ خُوطِبَ بِهَا فِي ٱلسَّابِقِ مِنَ الظَّاهِرِ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَسَائِرُ كُفَّارِ الْعَرَبِ، فَلاَ مَانِعَ مِنْ تَعْمِيمِ الْوَعِيدِ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ كُفَّارِ الأَرْضِ وَأَوْلَى ذَلِكَ الرُّومُ، لِمَا تَقَدَّمَ، فَحُرُوفُ آفَاقِ وَأَنْفُسِهِمْ إِذَا أُسْقِطَ حَرْفُ الْوِعَاءِ وَهُوَ فِي، وَأَدَاةُ التَّعْرِيفِ واعْتُدّ بالأَلِفِ الرّاجعة عِنْدَ نَقْلِ حَرَكَةِ هَمْزَةِ «آفَاق» إلى لاَمِ التَّعْرِيفِ وَعُدَّتِ الْهَمْزَةُ أَلِفَيْنِ عَلَى مَا سَيَاتِي بَيَانُهُ تَبْلُغُ سِتَّمِائَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ[136] كَما فِي بِضْعِ سِنِينَ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ وَلاَ مُخَالَفَةٍ، فَهِيَ عَاضِدَةٌ لِمَا فُهِمَ مِنْ تِلْكَ الآيَةِ بِلاَ رَيْبٍ وَلاَ إِشْكَالٍ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُومِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وَلَعَلَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا يَقَعُ مِنْ عَظِيمِ الْفَتْحِ الْمُبَشَّرِ بِهِ الَّذِي يَقْصُرُ عَنْهُ مَا قَبْلَهُ، سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِمِائَةٍ[137] بِمَا تُعْطِيهِ طَرِيقَةُ الاِعْتِبَارِ الْمُتَقَدِّم مِنْ إِشَارَةِ هَذِهِ الحُرُوفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

---

(136) لم يتضح لنا وجه حسابه.

(137) لم يقع شيء مما بشّر به المؤلّف وكل ما وقع في السنة المذكورة هو وفاة السلطان محمد الفقيه وكان يستعد للقيام بجملة واسعة على قشتالة. (الأندلس في عهد النصريين، ر. اريه : 83). هذا ولم يبد لنا وجه أخذ العدد المذكور من الحروف المشار إليها.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ، لِمَنْ شَاءَ مِنْ عَبِيدِهِ وَاخْتَارَهُ وَهَيَّأَهُ مِنْ وُلاَةِ أُمُورِهِمْ وَمُتَوَلِّي إِحْرَازَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَحِفْظَ آخِرَتِهِمْ وَأُولاَهُمْ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ عَلَى مَنْ سِوَى مَنِ اخْتَارَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَعُنْوَانُ ذَلِكَ مَا يَضَعُ لَهُ مِنَ الْحُبِّ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، قَالَ ﷺ : «خِيَارُ أُمَرَائِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتَدْعُونَ لَهُمْ وَيَدْعُونَ لَكُمْ»[138] وَذَلِكَ لِجِدِّهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ فِي كُلِّ مَا يَؤُولُ إِلَى صَلاَحِ مَنِ اسْتَرْعَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى / وَآكَدُ 38ظ. صَلاَحِهِمْ كِفَاءُ أَعْدَائِهِمْ وَمُفَارِقِيهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَرَفْعُ اسْتِطَالَتِهِمْ وَاسْتِحْوَاذِهِمْ.

وَأَحْوَجُ أَهْلِ الأَرْضِ إِلَى ذَلِكَ، أَهْلُ الصُّقْعِ الأَنْدَلُسِي مَا أَرَادَ اللَّهُ إِبْقَاءَهُ، لِغَلَبَةِ عَدُوِّهِم الْمُجَاوِرِ لَهُمْ الْقَاطِنِ مَعَهُمْ فِي بِسَاطٍ وَاحِدٍ وَجَزِيرَةٍ مُنْقَطِعَةٍ عَنْ بِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ، مُتَّصِلٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، مُتَدَاخِلَةِ الْقَوَاعِدِ وَالْحُصُونِ، مُتَقَارِبَةِ الأَصْقَاعِ مُتَكَاثِفَةِ الْعِمَارَةِ، لاَ حَاجِزَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ إِلاَّ السَّيْفُ وَالْمُصَابَرَةُ عَلَى طُولِ الْجِهَادِ وَالرِّبَاطِ، مَعَ أَنَّ مُعْظَمَ بِلاَدِهَا بَلْ كُلُّهَا إِلاَّ الْقَلِيلُ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ وَمُتَّصِلَةٌ بِمَا وَرَاءَهَا مِنْ بِلاَدِهِمْ مِمَّا لاَ يُحْصَى كَثْرَةً، فَعَدُوُّهُمْ أَبَداً لاَ يُعْوِزُهُ الاِسْتِمْدَادُ مَتَى أَرَادَ ذَلِكَ، وَقَلَّ مَا يُمْكِنُ ذَلِكَ لِمَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لِحِيَالِ الْبَحْرِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ وَانْقِطَاعِ الْبِلاَدِ، وَرُبَّمَا نَجَمَتْ فِتْنَةٌ وَاشْتَدَّتِ الْمِحْنَةُ، فَلَوْلاَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ تَكَفَّلَ بِهَا وَاخْتَارَ لِحِفْظِهَا وَتَدْبِيرِهَا مَنْ أَيَّدَهُ بِخُلُوصِ النِّيَّةِ وَجَلِيلِ الطَّوِيَّةِ، لأَصْبَحَ أَمْرُهَا سُدًى، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا لِحِرْصِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَانْتِشَارِهِمْ بِمُتَكَاثِفِ أَقْطَارِهَا الْعِدَا، فَبَقَاؤُهَا آيَةٌ، وَسَلاَمَةُ مَا بَقِيَ مِنْهَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ / وَعِنَايَةٌ. 39و.

وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَراً[139].

فَإِنْ قِيلَ إِنَّ أَرْضَ الشَّامِ أَيْضاً مُتَّصِلَةٌ بِالرُّومِ الْمَذْكُورِ غَزْوُهُمْ وَالظُّهُورُ عَلَيْهِمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَلَعَلَّهَا الْمَقْصُودَةُ بِمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْبَابِ، وَذَلِكَ أَقْرَبُ، لاِتِّصَالِهَا

---

(138) من حديث في صحيح الترمذي، انظر عارضة الأحوذي 9 : 120.

(139) هذا عجز بيتٍ مشهور للنابغة الجعدي، راجعه في ديوانه : 68.

بِمُعْظَمِ بِلاَدِ آلإِسْلاَمِ وَأَوَّلِهَا، وَمِنْهَا بَدَأَ الْفَتْحُ، وَقَدْ سَمَّاهَا ﷺ بِاسْمِهَا حِينَ قَالَ : «عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ»(140) إِلَى غَيْرِ هَذَا.

قُلْتُ أَمْرُ الشَّامِ عَلَى النَّقِيضِ مِنْ بِلاَدِنَا، فَإِنَّ الْمُسْتَقِرَّ بِسَوَاحِلِهَا وَأَطْرَافِهَا هُمُ الْمَقْطُوعُونَ عَنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ، أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَبِلاَدُهُمْ مُتَّصِلَةٌ مُتَكَاثِفَةٌ، وَاسْتِصْرَاخُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَتَعَاوُنُهُمْ أَقْرَبُ شَيْءٍ، إِذْ لاَ قَاطِعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ بِخِلاَفِ بِلاَدِنَا.

وَلَيْتَ شِعْرِي، مَا الْمَانِعُ مِنَ التَّعْمِيمِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَرَادَ الطَّرَفَيْنِ وَالْجَمِيعَ، فَلاَ مَانِعَ فِي أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ مِنْ ذَلِكَ الْبَتَّةَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ لاَ يَمْتَنِعُ أَنْ يُرِيدَهَا عَلَيْهِ السَّلاَمُ جَمِيعَهَا، **إِذِ الأَنْدَلُسُ شَامِيَةٌ بِالاتِّصَالِ وَالصِّفَاتِ وَالْخَوَاصِّ وَمُخَالَطَةِ الْعَدُوِّ الْمَذْكُورِ**(141)، وَإِنْ فَرَضْنَا أَنَّ الإِسْمَ لاَ يَتَنَاوَلُهَا فَنَقُولُ، إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَصَّ تِلْكَ الْجِهَةَ بِالذِّكْرِ، لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ قُرْبِهَا وَقُرْبِ 39ظ. أَمْرِهَا / وَإِدْرَاكِ الصَّحَابَةِ شَأْنَهَا وَكَوْنِ فَتْحِهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ وَوُجُودِ مُعْظَمِهِمْ، وَقَدْ مَرَّ مِنْ هَذَا مَا فِيهِ شِفَاءٌ، وَعَلَى كِلاَ الطَّرِيقَتَيْنِ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَوْقَعَ اسْمَ الشَّامِ عَلَى الْجَمِيعِ أَوْ خَصَّ اسْمَ الشَّامِ، وَإِنْ لَمْ يُرِدْ بِهَا الْجَمِيعُ لِلْعِلَّةِ الَّتِي أَوْضَحْنَا فَقَدْ تَنَاوَلَهَا الْخَبَرُ وَشَمِلَهَا عُمُومُهُ، فَهِيَ حَاصِلَةٌ فِي إِخْبَارِهِ ﷺ وَبِشَارَتِهِ.

وَآكَدُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ مَقْصُودِهِ ﷺ وَمُرَادِهِ لِمَا تَقَدَّمَ، **عَلَى أَنَّا قَدْ كُفِينَا مَؤُونَةَ تَدْقِيقِ هَذَا النَّظَرِ بِمَا شَرَحَ وَصَدَّقَ مِنَ الْخُبْرِ الْخَبَرَ، فَقَدْ فَتَحَ آللَّهُ عَلَى إِخْوَانِنَا بِالشَّامِ فِي وَقْتِنَا هَذَا مَا اشْتَهَرَ مِنْ بِلاَدِ السَّاحِلِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى عَكَّةَ**(142)، **وذَلِكَ فَتْحٌ عَظُمَ خَطْراً وَجَلَّ قَدْراً، فَالأَمْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَمْشِي**

(140) في عارضة الأحوذي 9 : 45 : وروى أبو عيسى صحيحا أن ناراً تخرج من بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس قالوا يارسول الله فما تامرنا قال : عليكم بالشام، قال ابن العربي : هذا حديث صحيح السند صحيح المعنى.

(141) يقول أبو عبيد البكري :. الأندلس شامية في طيبها وهوائها.. ويقول أبو عامر السالمي : الأندلس من الإقليم الشامي وهو خير الأقاليم.. نفح الطيب 1 : 126.

(142) كان الافرنج استولوا عليها أول مرة سنة 497هـ وظلت بأيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين =

فِي أَخْذِ الرُّومِ مِنْ طَرَفَيْهِمْ ـــ كَمَا بَدَأَ أَوَّلاً حِينَ فُتِحَتِ الشَّامُ وَالأَنْدَلُسُ ـــ حَتَّى يَتَلاَقَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى قُسْطَنْطِينِيَةَ بِحَوْلِ اللَّهِ.

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ مِنْ جُمْلَةِ مَا بَنَيْتَ عَلَيْهِ وَاعْتَمَدْتَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ قَوْلَه ﷺ : «خِيَارُ أُمَرَائِكُمْ» الحديث، فَلاَبُدَّ مِنَ الأَهْلِيَّةِ ـــ لِمَا أَطْلَقَ ﷺ مِنَ الإِمْرَةِ والْخَيْرِيَةِ./ والأَهْلِيَّةِ ـــ فِيمَنْ إِلَيْهِ الأَمْرُ بالشَّامِ فِي الوَقْتِ كَمَا قَدْ عُلِمَ، إِذْ لَيْسُوا مِنَ الْعَرَبِ[143]، فَكَيْفَ يَصْدُقُ عَلَيْهِ الخَبَرُ وَلاَ يُقَالُ مِثْلُهُ إِلاَّ فِي مُتَوَلٍّ بِحَقٍّ، أَمَّا صُقْعُنَا الأَنْدَلُسِي فَقَدِ اخْتَصَّ الآنَ فِي الأَرْضِ وَعِمَارَةِ الإِسْلاَمِ بِمَنْصُوصٍ عَلَى أَهْلِيتِهِ، لِمَعْلُومِ انْتِمَائِهِ وَعَلِيِّ اعْتِزَائِهِ، فَالْخَبَرُ مُتَنَاوِلُهُ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ الْوَصْفِ الْعَظِيمِ وَأَهْلُهُ، وَأَمَّا مِنْ هُنَاكُمْ فَكَمَا ذَكَرْنَا. (40و.)

فَالْجَوَابُ إِنَّ هَذَا صَحِيحٌ وَلَكِنْ لاَ يَلْزَمُ مِنَ الْوَاقِعِ هُنَاكَ خُلْفٌ وَلاَ فَسَادٌ، فَإِنَّ الشَّارِعَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَدْ وَسَّعَ عِنْدَ الاِضْطِرَارِ، وَطَلَبِ الاِعْتِصَامِ مِنْ فِتْنَةٍ يُذْهِبُ ظَلاَمُهَا الْعَيْنَ وَالآثَارَ، فَقَالَ : «وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِي»[144] فَهَذَا عِنْدَ عَدَمِ السَّبِيلِ إِلَى الْمُتَأَهِّلِ بِشَرْطِ إِمَامَةِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، عُذْرٌ يَجُوزُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ بِلاَ خِلاَفٍ، وَإِلَى وُقُوعِ هَذَا الْجَائِزِ وَكِيَانِهِ فِي أُمَّتِهِ، أَشَارَ ﷺ بِقَوْلِهِ : «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ»[145] إِنَّمَا أَشَارَ ﷺ لِاسْتِيلاَءِ غَيْرِهِمْ حَيْثُ قُدِّرَ مِنَ الأَرْضِ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ، **فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُتَأَمِّلُ خُصُوصَ هَذَا / الصُّقْعِ الأَنْدَلُسِي بِمَا خُصَّ تَشْرِيفاً لَهُ وَحِفْظاً، لِيَصْدُقَ عَلَيْهِ وَيُعْلَمَ قَطْعاً بِمَجْمُوعِ الْخَصَائِصِ وَقَرائِنِ الأَحْوَالِ وَشَوَاهِدِ الْوُجُودِ، أَنَّهُ الْمُرَادُ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ** ﷺ : «**لاَيَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ**». (40ظ.)

= سنة 583هـ وعاد إليها الافرنج سنة 587هـ ثم استرجعها منهم الأشرف خليل بن قلاوون سنة 690هـ وإلى هذا الفتح يشير ابن الزبير وخلاله وقع استرجاع طرابلس الشام أيضا.

(143) يقصد المماليك الذين كانوا يحكمون مصر والشام، وأصلهم مماليك مجلوبون من بلاد القفجاق اشتراهم الأيوبيون وتولّوا الحكم بعدهم.

(144) جزء من حديث يوجد عند الدارمي وابن ماجة وابن حنبل، انظر المعجم المفهرس 4 : 112.

(145) من حديث صدّر به الإمام مسلم كتاب الفتن وأشراط السّاعة.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي تَمَامِ هَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ قَبْلُ، أَنَّ ذَلِكَ لاَ يَمْنَعُ الأُمَّةَ مِمَّنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِمَّا هُيِّءَ لَهَا مِنْ نَصْرٍ عَلَى عَدُوِّهَا أَوْ فَتْحٍ، فَقَالَ : «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالإِبْهَامِ» وَسَمَّاهُ فَتْحاً إِشْعَاراً بِالْخَيْرِيَةِ كَمَا جَرَى وَأَرَادَ مِنْ جِهَةِ الرَّدْمِ وَهُوَ السَّدُّ الْمَعْرُوفُ، وَأَشَارَ إِلَى مَنْ يَسْتَوْلِي مِنْ هُنَاكُمْ مِنَ الْخُرَاسَانِيِّينَ وَالتُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ وَقُطَّانِ مَا يَلِي السَّدَّ، أَمَّا السَّدُّ نَفْسُهُ فَلاَ يُفْتَحُ إِلاَّ فِي الْوَقْتِ الْمَوْعُودِ فِيهِ بِخُرُوجِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَهَذَا بَيِّنٌ مِنَ الْحَدِيثِ لِتَقْلِيلِهِ بِإِشَارَتِهِ وَتَسْمِيَتِهِ فَتْحاً، فَهَذَا كُلُّهُ عُذْرٌ يُنْفَصَلُ بِهِ عَمَّا تَقَدَّمَ، فَقَدِ ارْتَفَعَ الإِشْكَالُ، وَبَانَ الاِنْفِصَالُ أَنْ تَكُونَ إِقَامَةُ الدِّينِ لِمَنْ هُنَاكَ مِنَ الْمُومِنِينَ بِمَنْ لاَذُوا بِهِ وَاعْتَصَمُوا لِلْعُذْرِ الْمَذْكُورِ بِسَبَبِهِ، **أَمَّا نَحْنُ** 41و. **بِفَضْلِ اللَّهِ فَنَعْتَرِفُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ / وَنُقِرُّ بِالْعَجْزِ عَنِ الشُّكْرِ عَلَى مَا أَسْدَاهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمَنَّ بِهِ مِنَ الْكِيَانِ تَحْتَ إِيَالَةِ مَنْ تَأَهَّلَ مِنْ نِجَارِهِ الْكَرِيمِ، وَسَلَفِهِ الْعَظِيمِ، وَخَلَفِهِ الْقَوِيمِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَتَعَاضَدَ الْخُبْرُ وَالْخَبَرُ، وَشَهِدَ الْجَارِي مِنَ السَّعْيِ الْعَظِيمِ فِي رِضَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِمَا نَطَقَ بِهِ الأَثَرُ، فَلَوْ جَاوَرَنَا أُولَئِكَ لَلَزِمَتْهُمْ طَاعَتُهُ امْتِثَالاً، وَلَمْ يَجِدِ الْمُتَدَيِّنُ انْحِرَافاً عَنْ ذَلِكَ وَلاَ زَوَالاً، إِلاَّ أَنْ يُضْطَرَّ، أَوْ يُفْتَتَنَ فَيَغْتَرَّ، وَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا أَحَدُ الشَّوَاهِدِ بِأَنَّنَا مَقْصُودُونَ بِالْخَبَرِ الْمُبَشَّرِ بِهِ، وَالْفَتْحِ الْمَعْلُومِ الْمَقْطُوعِ بِسَبَبِهِ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِفَضْلِهِ مَنْ يَشَاءُ**[146].

الْبَابُ الثَّانِي فِي شَوَاهِدِ السُّنَّةِ وَمَا وَرَدَ فِي الآثَارِ مِمَّا يَعْضُدُ هَذَا الْمَقْصَدَ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى الْكِيَانِ وَالْمَكَانِ وَالزَّمَانِ.

مِنَ الْمَعْلُومِ الْمَقْطُوعِ بِهِ أَنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ مِمَّا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ وَبَعْدَهُ بِمَا لاَ يُحْصَى، وَأَوْضَحُ حَدِيثٍ وَرَدَ فِي التَّعْرِيفِ بِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِهَذَا، مَا حَدَّثَ بِهِ عُثْمَانُ 41ظ. بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ جَرِيرٍ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : «قَامَ فِينَا / رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِماً، فَمَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ

(146) هذا على أسلوب الآية الكريمة : ﴿والله يختصّ برحمته من يشاء﴾ البقرة 105.

إِلاَّ حَدَّثَهُ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عُلِّمَهُ أُصْحَابِي هَؤُلاَءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ»(147).

ثُمَّ إِذَا تَأَمَّلْنَا مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ مِنَ الْغُيُوبِ، انْحَصَرَ فِي ثَلاَثَةِ أَقْسَامٍ :

قِسْمٌ فِي الْجَارِي فِي حَيَاتِهِ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا فَقَدْ كَانَ وَانْقَضَى الْخَبَرُ وَالْمُخْبَرُ بِهِ.

وَقِسْمٌ أَخْبَرَ بِهِ أَصْحَابَهُ عَمَّا يَكُونُ لَهُمْ وَفِي أَيَّامِهِمْ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وَقِسْمٌ أَخْبَرَ بِهِ عَمَّا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ بَعْدَ انْفِصَالِ أَصْحَابِهِ وَخُلُوِّ الأَرْضِ مِنْهُمْ، وَهَذَا الْقِسْمُ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

ضَرْبٌ عَرَّفَ بِهِ أَنَّهُ وَاقِعٌ وَكَائِنٌ لاَ مَحَالَةَ مِنْ غَيْرِ إِشْعَارٍ بِتَأَخُّرِهِ.

وَضَرْبٌ شَهِدَتْ لَهُ قَرَائِنُ وَأَمَارَاتٌ بِتَأَخُّرِهِ، فَتَعَيَّنَ تَقَدُّمُ الأَمْرِ الْمُبْهَمِ، وَمَقْصُودُنَا مِنَ الْجُمْلَةِ هَذَا الْقِسْمُ الأَخِيرُ فَعَلَيْهِ بِنَاءُ مَا نُرِيدُهُ، فَلْنَذْكُرِ الضَّرْبَ الأَوَّلَ مِنْهُ لِيَبِينَ بِوُقُوعِهِ وَانْقِضَائِهِ أَنَّ الثَّانِي تَالٍ لَهُ وَفِي ذَلِكَ حَاجَتُنَا، فَمِنْ أَعْرَفِ ذَلِكَ وَأَشْهَرِهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِي عَنْ عُرْوَةَ / عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ صَفِيَّةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، أَنَّ النَّبِي ﷺ اِسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ لاَ إِلاَهَ إِلاَّ ٱللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً، قُلْتُ يَارَسُولَ ٱللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ، قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ(148).

42و

وَفِي حَدِيثِ يُونُسَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ : أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ

(147) حديث عثمان بن أبي شيبة المذكور واردٌ في كتاب الفتن وأشراط الساعة من صحيح الإمام مسلم.

(148) صدر به الإمام مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة.

زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : خَرَجَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ يَوْماً فَزِعاً مُحْمَرّاً وَجْهُهُ يَقُولُ : لاَ إِلاَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِأُصْبُعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ، قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ[149].

هَذَا حَدِيثٌ مَحْمِلُهُ عِنْدَ الْحُذَّاقِ، عَلَى مَا وَقَعَ وَجَرَى فِي أَوَّلِ الإِسْلاَمِ عَقِبَ انْفِصَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ ظُهُورِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ فَارِسَ وَالتُّرْكِ وَالطَّوَائِفِ الَّتِي تَلِي السُّدَّ، وَغَلَبَتِهِمْ فِي الاِخْتِصَاصِ بِمُلُوكِ الإِسْلاَمِ وَشِدَّةِ مُدَاخَلَتِهِمْ وَالْتِحَامِهِمْ / حَتَّى صَارَ الأَمْرُ بِأَيْدِيهِمْ عِلْماً وَوِزَارَةً وَتَدْبِيراً وَسِيَاسَةً وَمُدَاخَلَةً لِمُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِيلاَءً عَلَى تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ، فَصَارَتِ الْعَرَبُ مِمَّنْ سِوَى الْمُلُوكِ فِي هَذَا دُونَهُمْ وَرَاجِعِينَ إِلَى مَا يَخْرُجُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَسَادُوا فِي ذَلِكَ غَيْرَهُمْ وَانْتَشَرَ ظُهُورُهُمْ، حَتَّى سَادُوا فِي الإِسْلاَمِ نَظَراً وَعِلْماً وَدِيناً وَخِدَماً وَاخْتِصَاصاً حِينَ قَصَّرَ غَيْرُهُمْ عَنْ مُنْتَحَلاَتِهِمْ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[150] وَلَمَّا كَانَ اسْتِيلاَؤُهُمْ خَيْراً فِي الإِسْلاَمِ وَظُهُوراً وَفُشُوّاً لِعُلُومِهِ وَاتِّسَاعاً فِي تَدْبِيرِهِ، سَمَّاهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَتْحاً، وَإِنَّمَا قَالَ : «وَيْلٌ لِلعَرَبِ» مِنْ حَيْثُ تَوَلِّيهِمْ وَاسْتِيلاَءُ غَيْرِهِمْ وَخُرُوجُ مَا ذُكِرَ عَنْ أَيْدِيهِمْ وَصَيْرُورَتُه إِلَى سِوَاهُمْ، وَقَوْلُهُ : «مِنْ شَرٍّ قَدِ اِقْتَرَبَ» إِعْلاَمٌ بِالْجُمْلَةِ أَنَّهُ شَرٌّ فِي حَقِّ مَنْ تَوَلَّى بِاسْتِيلاَءِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ خُصُوصاً بِالْعَرَبِ، أَوْ إِعْلاَمٌ بِأَنَّهُ بِالْجُمْلَةِ عَلاَمَةٌ عَلَى اقْتِرَابِ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْفِتَنِ وَأَهْوَالِ السَّاعَةِ وَشُرُوطِهَا، فَيَكُونُ مَا أُشِيرَ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ عَامّاً غَيْرَ خَاصٍّ بِالْعَرَبِ، إِلاَّ أَنَّ الأَوَّلَ أَوْلَى، لِيَكُونَ لِذِكْرِ الْعَرَبِ فَائِدَةٌ، وَعَلَى الْمَأْخَذِ الثَّانِي لاَ فَائِدَةَ ظَاهِرَةً فِي تَخْصِيصِهِمْ /.

42ظ.

43و.

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ مُجَرَّدِ تَأْخِيرِهِمْ وَاسْتِيلاَءِ غَيْرِهِمْ لاَ شَرَّ فِيهِ فِي ظَاهِرِهِ، فَكَيْفَ يُقَالُ : وَيْلٌ لَهُمْ.

(149) أورده الإمام مسلم بعد الحديث السابق.

(150) سورة محمد 38.

فَالْجَوَابُ أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ وَرَدَ بِجَعْلِهِ تَأْدِيباً لَهُمْ وَتَهْدِيداً، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ فَكَيْفَ لاَ يُقَالُ فِي حُلُولِ هَذَا وَكِيَانِهِ إِنَّهُ شَرٌّ، وَمِنْ نَحْوِهِ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَاتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[151].

وَمِنْهُ حَدِيثُ ثَوْبَانَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَأَنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، هَذَا حَدِيثُ ثَوْبَانَ[152]، وَفِي حَدِيثِ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ ﷺ، أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، / دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ : «سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»[153] هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضاً مِمَّا حَصَلَ مُعْظَمُهُ عَلَى الاِسْتِيفَاءِ، وَتَمَّ وَكَمُلَ بَعْدَ انْفِصَالِ الصَّحَابَةِ، أَمَّا مَا زُوِيَ مِنَ ٱلأَرْضِ وَرَآهُ، فَقَدْ بَلَغَهُ مُلْكُ أُمَّتِهِ بَعْدَهُ كَمَا نَصَّ وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ، وَانْتَشَرَتْ كَلِمَةُ الإِسْلاَمِ مِنَ السُّدِّ إِلَى بَحْرِ طَنْجَةَ وَأُشْبُونَةَ[154]، وَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ الطَّرَفَيْنِ مَا وَقَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَشَوُّفٌ، وَفِي تَخْصِيصِهِ ﷺ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ بِالتَّنْصِيصِ وَالذِّكْرِ، إِشْعَارٌ لِبَقَاءِ مَا بِأَيْدِي غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنَ الْهُنُودِ وَالنُّوبَةِ والإِفْرَنْجِ وَغَيْرِهِمْ بِطَرَفَيِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، فَتَأَمَّلْ مَا أَجَلَّ هَذَا الإِخْبَارَ وَمَا أَحْرَزَهُ لِلْمَقْصُودِ وَأَوْفَاهُ بِالْمُرَادِ، إِلَى

43ظ

(151) سورة المائدة 54.

(152) حديث ثوبان هذا واردٌ في كتاب الفتن وأشراط الساعة من صحيح مسلم.

(153) هو في صحيح مسلم بعد الحديث قبله.

(154) أشبونة أو لشبونة هي اليوم عاصمة البرتغال، وقد خرجت من يد المسلمين سنة 542هـ — 1147م وبحر طنجة وأشبونة هو المحيط الأطلنطيكي.

مَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنْ جَلِيلِ الْعِبَارَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : «أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ»، فَأَرَادَ بِهِ أَنَّ هَذَيْنِ الْجَوْهَرَيْنِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ هُمَا نُقُودُ أُمَّتِهِ، وَبِهِمَا قِوَامُ مَعَايِشِهِمْ

44و. وَإِحْرَازُ مَقَادِيرِ / أَمْوَالِهِم وَأَثْمَانِ مَبِيعَاتِهِمْ وَسِكَّتِهِمْ، لاَ يُعْلَمُ أَنَّ أَحَداً مِنَ الأُمَّةِ عَدَلَ عَنْهُما مُعْتَمِداً [غَيْرَهُمَا] فِي مَا ذُكِرَ، وَهُمَا خَيْرُ الْجَوَاهِرِ الْمَعْدِنِيَةِ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَ غَيْرُ الأُمَّةِ غَيْرَ هَذَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ، أَمَّا أُمَّتُهُ فَلاَ، وَأَمَّا هَلاَكُ أُمَّتِهِ بِالسِّنِينَ، فَقَدْ أَمَّنَهُمْ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَمَتَى قُحِطَ جَانِبٌ مِنْ مَعْمُورِ أُمَّتِهِ أَخْصَبَ غَيْرُهُ، وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ، وَهُوَ تَوَالِي الْقُحُوطِ وَعُمُومُ ذَلِكَ، وَقَدْ نَقَلَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ تَوَالِي السِّنِينَ الْعَامَّةِ فِي غَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مَا نَقَلُوا، وَلَمْ يَفْعَلْهُ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ الأُمَّةِ، مَعَ أَنَّهُمْ يُذَكَّرُونَ بِسِنِينَ، لِيَتَّعِظَ أَهْلُ التَّوْفِيقِ، وَيَتَذَكَّرَ مَنْ قُدِّرَ لَهُ بِسُلُوكِ سَوِيِّ الطَّرِيقِ، إِلاَّ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ بِجِهَةٍ دُونَ أُخْرَى، يُؤَدِّبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَكُفُّهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ، وَيَحْفَظُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دَعْوَةَ نَبِيِّهِمْ فِيهِمْ، فَلاَ يَعُمُّهُمْ ذَلِكَ الأَمْرُ، **وَمِنْ عَجِيبِ مَا نُشَاهِدُهُ بِقُطْرِنَا الأَنْدَلُسِي أَنَّهَا تِمْطِرُ بِالرِّيحَيْنِ، فَغَرْبِيُّهَا بِالرِّيحِ الْغَرْبِيَةِ، وَشَرْقِيُّ بِلاَدِهَا بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَةِ**(155)**، وَلَمْ يَعُمُّهَا فِي الإِسْلاَمِ قَحْطٌ كَمَا جَرَى قَبْلَ الإِسْلاَمِ، وَأَمَّا**

44ظ. اسْتِبَاحُ بَيْضَتِهِمْ بِتَسْلِيطِ عَدُوٍّ مِنْ غَيْرِهِمْ / عَلَيْهِمْ، فَقَدْ أَمَّنَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَابْتَلَى بِهِ غَيْرَهُمْ، فَقَدْ سُلِّطَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بُخْتُ نَصَّرَ، حَتَّى أَفْنَاهُمْ عَلَى انِتِشَارِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ، وَغَيْرُ بُخْتِ نَصَّرَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ، وَوَقَى آللَّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهَا.

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدِ اسْتُبِيحَتْ أَمْصَارٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَقَالِيمُ، فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُعَارِضٍ وَلاَ قَادِحٍ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِنَّمَا دَعَا أَنْ لاَ تُسْتَبَاحَ الْبَيْضَةُ بِجُمْلَتِهَا، وَمِنْ مَفْهُومِ الدَّعْوَةِ أَنَّ مَا عَدَا الْبَيْضَةِ لاَ يَتَنَاوَلُهُ السُّؤَالُ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ

(155) نقل المقري عن الرازي والنظام أن الأندلس أند لسان : غربي يمطر بالريح الغربية وشرقي يمطر بالريح الشرقية، قال النظّام : «وذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الأندلس الغربي وقحط الأندلس الشرقي ؛ ومتى استحكمت الريح الشرقية مطر الأندلس الشرقي وقحط الغربي»، نفح الطيب 1 : 132.

(156) انظر أخبار بني إسرائيل في المجلد الثاني من العبر لابن خلدون : 152 — 240.

بِالْخَسْفِ فِي جِهَاتٍ وَهَلاَكِ جِهَاتٍ، وَأَخْبرَ بِبِنَاءِ بَغْدَادَ وَانْتِهَاءِ أَمْرِهَا وَأَنَّهَا يُخْسَفُ بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا حَسْبَمَا أَخْبَرَ[157]، وَلَيْسَ بِمُعَارِضٍ لِمَا تَقَدَّمَ، لأَنَّ اسْتِبَاحَ الْبَيْضَةِ عِبَارَةٌ عَنِ الاِصْطِلاَحِ الْكُلِّي حَتَّى لاَ يَبْقَى شَيْءٌ أَوْ مَا لَهُ خطَرٌ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَعَا فِيهِ وَأُعْطِيَهُ، وَجَرَى فِي غَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ. وَحَدِيثُ بَغْدَادَ وَإِنْ كَانَ مَعْلُولاً فَقَدْ صَدَّقَ الْوُجُودُ فِيهِ الْخَبَرَ، وَلَسْنَا إِذَا حَكَمْنَا بِعِلَّةِ حَدِيثٍ مَنَعْنَا إِمْكَانَ صِدْقِهِ.

وَأَمَّا الْوَاقِعُ فِي حَدِيثِ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ «فَمَنَعَنِيهَا» فَقَدِ ارْتَكَبَ النَّاسُ فِي هَذَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ / 45و. عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَ أُمَّتَهُ أَنَّ الدَّاعِيَ مِنْهُمْ إِذَا دَعَا كَمَا شَرَعَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَأَوْضَحَ مِنْ حَالِ الدَّاعِي وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَهُ، غَيْرَ أَنَّ الاِسْتِجَابَةَ تَنْقَسِمُ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ مَا سَأَلَ، وَإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ لآخِرَتِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِمَّا طَلَبَ، وَإِمَّا أَنْ يُصْرَفَ عَنْهُ مِنَ الْبَلاَءِ بِقَدْرِ مَا سَأَلَ مِنَ الْخَيْرِ، قَالُوا : فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي دُعَائِهِ جَارٍ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ الَّذِي أَعْلَمَ بِهِ، وَإِنَّمَا سَبِيلُ أُمَّتِهِ فِي ذَلِكَ سَبِيلُهُ.

وَلَعَلَّ قَائِلَ هَذَا يَعْضُدُهُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَاسْتَعْجَلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي خَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ»[158] الْحَدِيث. فَيَقُولُ هَذَا الْقَائِلُ، إِخْبَارُهُ ﷺ بِهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا سِوَى تِلْكَ الدَّعْوَةِ الَّتِي ضُمِنَتْ لَهُمْ فِيهَا الإِجَابَةُ، حالُهُ فِيهَا عَلَى مَا شَرَعَ وَبَيَّنَ لأُمَّتِهِ.

فَأَقُولُ إِنَّ هَذَا الْمأخذ مِمّا لاَ أُسَلِّمُهُ وَلاَ أَقُولُ بِهِ بَلْ أَقُولُ إِنَّ دُعاءَهُ عَلَيْهِ السَّلام إِمَّا أَنْ يَكونَ لِلْمَدْعُوِّ لَهُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِ، فَأَمَّا مَا كَانَ لِلْمَدْعُوِّ لَهُ وَهُوَ الدُّعَاءُ بِالْخَيْرِ وَالإِيمَانِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَبداً فِيهِ مُجَابٌ / 45ظ. مُعَجَّلٌ مُعْطَى فِيهِ مَا سَأَلَهُ لاَ يَنْكَسِرُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ هُنَا «فَمَنَعَنِيهَا» مُنَزَّلٌ عَلَى حُكْمٍ تَقَدَّمَ لَهُ بِمَكَّةَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ

---

(157) لعلّه يشير إلى ما حصل لها بعد دخول التتر سنة 656هـ.

(158) الحديث في كتاب الإيمان من صحيح الإمام مسلم.

فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[159] فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»[160]، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾[161] قَالَ ﷺ : «هَاتَانِ أَهْوَنُ» أَوْ «هَاتَانِ أَيْسَرُ»[162] فَسَلَّمَ لِرَبِّهِ وَرَضِيَ بِهَذِهِ، لِيَكُونَ طُهْراً لأُمَّتِهِ وَوِقَايَةً لِعَذَابِهَا فِي الآخِرَةِ، كَمَا ذُكِرَ فِي أَحَادِيثَ أُخَرَ، فَلَمَّا سَأَلَ بِالْمَدِينَةِ وَجَرَى سُؤَالُهُ عَلَى مُقْتَضَى الآيَةِ سُؤَالاً سُؤَالاً، أُجِيبَ فِيمَا قَدْ كَانَ تَقَدَّمَ مِنْهُ الاِسْتِعَاذَةُ فِيهِ، وَكَأَنْ قَدْ قِيلَ لَهُ فِي الثَّالِثَةِ إِنَّكَ قَدْ سَلَّمْتَ هَذَا، فَقَوْلُهُ «فَمَنَعَنِيهَا» يُرِيدُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَمَنَعَنِيهَا لِتَسْلِيمِي فِيهَا قَبْلَ هَذَا، وَقَدْ حَفِظَ اللَّهُ هَذَا النَّبِيَ الْكَرِيمَ فِي دُعَائِهِ وَمَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ مِنْ ذَلِكَ حِفْظاً يَسْتَقِلُّ دَلِيلاً وَآيَةً لِمَنْ تَدَبَّرَ، أَلاَ تَرَى دُعَاءَهُ ﷺ فِي إِسْلاَمِ عُمَرَ حِينَ قَالَ : «اللَّهُمَّ أَيِّدِ الإِسْلاَمَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ»[163] فَقَيَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ نَبِيِّهِ / 46و. عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِطَلَبِ إِسْلاَمِ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ فَكَانَ عُمَرَ، وَلَمْ يَقُلْ عَلَيْهِ السَّلاَمُ اللَّهُم أَيِّدِ الإِسْلاَمَ بِهِمَا، لِمَا كَانَ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ لاَ يُومِنُ، فَأَلْهَمَ نَبِيَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ، فَجَرَى دُعَاؤُهُ مُقَيَّداً بِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ، وَفِي هَذَا كِفَايَةٌ فِيمَا نُرِيدُهُ، وَمِنْ نَحْوِ قِصَّةِ الدُّعَاءِ لِعُمَرَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَشْكُو إِلَيْهِ أُمَّهُ وَتَوَقُّفَهَا عَنِ الإِسْلاَمِ فَلاَ يَزِيدُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَلَى الأَمْرِ بِالرِّفْقِ بِهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ وَقْتُ إِسْلاَمِهَا شَكَا إِلَيْهِ أَنَّهَا قَدْ أَسْمَعَتْهُ فِيهِ ﷺ مَا يَكْرَهُ، فَتَبَسَّمَ ﷺ، فَاغْتَنَمَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ، وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَرَجَعَ مِنْ حِينِهِ وَقَدْ قَطَعَ بِالإِجَابَةِ، فَأَلْفَاهَا تَتَطَهَّرُ وَأَسْلَمَتْ[164]، وَمِنْ هَذَا مَا لاَ يُحْصَى، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : «اللَّهُمَّ بَارِكْ

---

(159) سورة الانعام 65.

(160) راجع المحرّر الوجيز 6 : 70.

(161) سورة الانعام 65.

(162) راجع المحرر الوجيز 6 : 70.

(163) هو حديث خباب بن الارت الذي سمع رسول الله ﷺ يقول : «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب»، السيرة لابن كثير 2 : 35.

(164) راجع الحديث في كتاب الفضائل من صحيح الإمام مسلم.

لَنَا فِي يَمَنِنَا، قَالُوا وَفِي شَامِنَا، قَالَ وَفِي شَامِنَا، قَالُوا وَفِي نَجْدِنَا، فَقَالَ : هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»(165) فَتَأَمَّلْ حِفْظَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي

46ظ. دُعَائِهِ، وَهَذَا الْبَابُ لاَ يَكَادُ يَسَعُهُ مَكْتُوبٌ، وَلاَ يُعَارِضُهُ قَوْلُهُ عَلَيْه السَّلاَمُ :/ فَمَنَعَنِيهَا بِوَجْهٍ، فإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَمَا أَخْبَرَ، فَقَدْ تَقَدَّمَهُ تَسْلِيمُهُ، فَهُوَ ﷺ الْمُبَلَّغُ سُؤْلَهُ فِيمَا دَعَا بِهِ لِلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ دُعَائِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَلَى مَنْ دَعَا عَلَيْهِ، فَهَذَا إِذَا اسْتُقْرِىءَ وُجِدَ عَلَى ضَرْبَيْنِ، إِمَّا جَارٍ فِيهِ الإِجَابَةُ لاَ مَحَالَةَ، وَذَلِكَ عَلَى السَّنَنِ الْمَعْرُوفِ مِنْ دُعَائِهِ وَإِمَّا مُعْلَمٌ فِيهِ بِسَابِقِ عِلْمِ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي تِلْكَ الْقَضِيَةِ الْمَدْعُوِّ فِيهَا وَمَا عَلَيْهِ الْقَدَرُ فِي أَمْرِها، كَقِصَّةِ دُعَائِهِ ﷺ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَنَزَلَ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾(166) فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُتَأَمِّلُ مَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَأَعْلَمَ سُبْحَانَهُ بِظُلْمِهِمْ وَأَهْلِيَتِهِمْ فِي حِينِ دُعَائِهِ عَلَيْهِمْ، لِذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ فِي دُعَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ الْمُنَزَّهُ بِتَوْفِيقِ رَبِّهِ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى غَيْرِ مُسْتَحِقٍّ بِظَاهِرِ أَمْرِهِ لِلدُّعَاءِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَجْرِيَ مِنْهُ مَا يَجْرِي مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِنْ غَلَبَةِ هَوىً أَوْ إِيثَارِ غَرَضٍ، جَلَّ قَدْرُ نَبِيِّ ٱللَّهِ عَنْ ذَلِكَ.

وَمِنْ هَذَا دُعَاؤُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَلَى رَعْلٍ وَذَكْوَان(167)، فَمَا لَمْ يَجْرِ فِيهِ

47و. التَّعْرِيفُ فَمُجَابٌ فِيهِ، وَكَأَنَّهُ صَلَّى / اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُ فِي هَذَا بِعَلِيِّ حَالِهِ من الرَّأْفَةِ والرَّحْمَةِ والْحِرْصِ عَلَى خَلاَصِ الْخَلْقِ وَنَجَاتِهِم، وَلِيَجْرِيَ الأَمْرُ فِي ذَلِكَ عَلَى مُقْتَضَى سَبْقِيَةِ الرَّحْمَةِ الْغَضَبَ، وَقَدْ أَخَذَ هُوَ ﷺ فِي هَذَا بِمَا يُلاَئِمُ خُلُقَهُ الْعَظِيمَ وَحَالَهُ الْكَرِيمَ، فَقَالَ : «اللَّهُمَّ إِنِّي بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّ رَجُلٍ لَعَنْتُهُ أَو سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً»(168) فَهَذَا كُلُّهُ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ

(165) تقدّم ذكره.

(166) سورة آل عمران 128.

(167) رعل وذكوان قبيلتان يمنيتان من قبائل سليم.

(168) الحديث عند أبي داود وأحمد بن حنبل، راجع المعجم المفهرس 4 : 525.

يُطْلِعُ عَلَى عَجَائِبَ مِنْ حِفْظِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَيُوَضِّحُ أَنَّ دُعَاءَهُ أَبداً لاَ يُرَدُّ، فَمَنْ سَاوَى فِي ذَلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَّتِهِ فَمُخْطِىءٌ لاَ مَحَالَةَ.

وَمِنْ بَابِنَا حَدِيثُ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِي وَغَيْرُهُمَا[169]، وَأَشكَلَ عَلَى مُفَسِّرِي الْحَدِيثِ، فَضَمَّهُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْحَدِيثِ الآخَرِ، وَهُوَ حَدِيثُ النَّارِ الَّتِي تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ، **وَقَدْ كَفَانَا مَؤُنَةَ التَّأْوِيلِ ظُهُورُ هَذِهِ النَّارِ وَخُرُوجُهَا فِي عَصْرِنَا، وَمُشَاهَدَةُ أَهْلِ وَقْتِنَا لَهَا مِمَّنْ كَانَ بِالْحِجَازِ / إِذْذَاكَ، وَكَانَ خُرُوجُهَا سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَدَامَتْ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي أَرْضٍ جَدْبَةٍ ذَاتِ صَفَاءٍ وَحِجَارَةٍ، لاَ عُشْبَ فِيهَا وَلاَ نَبَاتَ وَلاَ شَجَرَ، بَدَأَتْ دُخَاناً صَاعِداً فِي صُدُوعٍ بَيْنَ تِلْكَ الأَحْجَارِ مُنْفَسِّيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ، ثُمَّ انْضَافَ إِلَيْهَا مُنَافِسٌ حَتَّى كَمُلَتْ سَبْعَةَ أَعْمِدَةٍ شِبْهَ الصَّوَامِعِ الْعِظَامِ، ثُمَّ عَادَتْ أَلْيَنَ نَارٍ، ثُمَّ الْتَحَمَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَصَارَ ذَلِكَ كَالسُّورِ الْعَظِيمِ نَاراً، تَلْتَهِبُ وَتَرْتَفِعُ مَعَهَا أَحْجَارٌ تَتَطَايَرُ مِنَ الأَرْضِ فَتَصْعَدُ ثُمَّ تَهْوِي فَيُسْمَعُ لَهَا دَوِيٌّ عَظِيمٌ وَأَهْوَالٌ مُفْزِعَةٌ، فَاسْتَغَاثَ النَّاسُ إِلَى الْحَرَمِ، ثُمَّ إِلَى الْقَبْرِ وَلَجَؤُوا إِلَى الرَّوْضَةِ الطَّاهِرَةِ، وَتَشَفَّعُوا بِالْقَبْرِ الْمُقَدَّسِ، لَمَّا رَأَوْهَا تَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ عِظَماً وَتَقْرُبُ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى هَمَّ أَهْلُهَا بِالْفِرَارِ، فَنَبَّهَهُمْ مَنْ كَانَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَالُوا لَهُمْ إِنَّمَا يَفِرُّ النَّاسُ فِي الْحَشْرِ وَأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ إِلَى نَبِيِّنَا الْكَرِيمِ، وَيَسْتَشْفِعُونَ بِهِ فِي دَفْعِ مَا يَخَافُونَهُ، وَهَا هُوَ مَعَكُمْ، فَلَجَؤُوا إِلَى الْقَبْرِ وَتَضَرَّعُوا وَأَظْهَرُوا التَّوْبَةَ وَاسْتَشْفَعُوا بِهِ ﷺ، فَتَوَقَّفَ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ طَفِئَتْ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَو أَزْيَدَ، وَتَرَكَتْ / آثَاراً مُهْوِلَةً وَصُدُوعاً فِي الأَرْضِ وَحِيشَةً، وَحِجَارَةً سَوْدَاءَ، وَأَخَادِيدَ هَائِلَةَ الْمَنْظَرِ، وَكَانَ ارْتِفَاعُهَا فِي الْجَوِّ عَظِيماً، وَاللَّيْلُ فِي مَا دَنَا مِنْهَا مِنَ الأَرْضِ كَالنَّهَارِ**[170]،

(47ظ) (48و)

(169) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(170) استند المؤلف في حديثه عن نار الحجاز على أخبار الحجّاج الأندلسيين الذين شهدوها وممن تحدّث عن هذه النار أيضا المفسّر القرطبي في التذكرة وهو من أهل ذلك العصر وكانت=

كَمَا وَصَفَ ﷺ فِي قَوْلِهِ، تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الإِبِلِ بِبُصْرَى، فَهَذِهِ هِيَ النَّارُ الَّتِي وَعَدَ بِهَا ﷺ وَأَخْبَرَ عَنْهَا، ظَهَرَتْ وِفْقَ مَا أَعْلَمَ، وَقَدْ أَعْيَي مَنْ تَقَدَّمَ خَبَرُهَا وَتَفْسِيرُ الْمُرَادِ بِهَا، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الآيَاتِ وَأَجْلَى الْبَرَاهِينِ.

وَمِنْهَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قِتَالِ التُّرْكِ، فَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي عَنْهُ «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»، «وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ» هَذَا حَدِيثُ سُفْيَانَ عَنِ الزُّهْرِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ[171]، وَفِي رِوَايَةِ يُونُسَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلَكُمْ أُمَّةٌ نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ، وُجُوهُهُمْ كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ»[172]، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ»، «وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً صِغَارَ الأَعْيُنِ ذُلْفَ الأُنُوفِ»[173]، وَفِي رِوَايَةِ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ «لاَ تَقُومُ / السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ التُّرْكَ قَوْماً وُجُوهُهُمْ كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ، يَلْبَسُونَ الشَّعَرَ وَيَمْشُونَ فِي الشَّعَرِ»[174] وَفِي حَدِيثِ بِشْرِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ «تُقَاتِلُونَ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ قَوْماً نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ، كَأَنَّ وُجُوهَهَمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ، حُمْرُ الْوُجُوهِ صِغَارُ الأَعْيُنِ»[175] هَذَا جُمْلَةُ مَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى اخْتِلاَفِ أَصْحَابِهِ عَنْهُ، أَوْرَدَ جَمِيعَهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَغَيْرُهُ، وَقَدْ وَقَعَ قِتَالُهُمْ فِي كَرَّاتٍ اسْتَوْلَوْا فِي آخِرِهَا عَلَى الْعِرَاقَيْنِ وَاسْتَوْفَوْا بِلاَدَهَا، وَدَخَلُوا أُمَّ بِلاَدِ الْعِرَاقِ وَأَعْظَمَ قَوَاعِدِ الإِسْلاَمِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَمْلَكَتِهَا وَمَا بَيْنَهَا إِلَى أَنْ

= له صلة بابن الزبير، ومنهم العماد ابن كثير الذي يقول : أخبرني قاضي القضاة صدر الدين الحنفي عن والده الشيخ صفي الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غير واحد من الأعراب صبيحة تلك الليلة التي ظهرت فيها هذه النار أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم على ضوء تلك النار. انظر مختصر التذكرة : 133.

(171) هو في كتاب الفتن وأشراط الساعة من صحيح الإمام مسلم.

(172) ورد في صحيح مسلم مباشرة بعد الحديث قبله.

(173) هو كذلك في صحيح مسلم بعد الذي قبله.

(174) هو كذلك في صيح مسلم في الموضع نفسه.

(175) المصدر نفسه، وقد أورد المؤلف هذه الأحاديث حسب ترتيبها في صحيح مسلم.

بَلَغُوا الشَّامَ وَفَرَّ أَهْلُ دِمِشْقَ قَاعِدَةِ الشَّامِ وَأُمِّ بِلاَدِهَا وَأَمِرَ أَمْرُ التُّرْكِ حَتَّى اهْتَزَّتْ بِلاَدُ الرُّومِ، وَانْتَشَرَ الرُّعْبُ وَهَالَ أَمْرُهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْبِلاَدِ الْمِصْرِيَةِ، وَقَاتَلُوهُمْ فَهَزَمَ اللَّهُ التُّرْكَ، وَمَكَّنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رِقَابِهِمْ حَتَّى رَمَوْهُمْ بِالْعِرَاقِ وَأَخْرَجُوهُمْ عَنِ الشَّامِ، وَنَالُوا مِنْهُمْ أَجَلَّ النَّيْلِ وَأَعْظَمَهُ[176]، وَخَصَّ اللَّهُ أَهْلَ مِصْرَ بِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ لِكَوْنِهِمْ مَغْرِباً لأُوْلَئِكَ، فَنَالَتْهُمْ بَرَكَةُ الْخَبَرِ، وَحَفِظَ آللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ قَوْلَ نَبِيِّهِ / ﷺ : «لاَيَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأتِيَ أَمْرُ اللَّهِ». 49و.

وَقَدْ تَقَدَّمَ وَبَيَّنَّا أَنَّ أَهْلَ قُطْرِنَا الأَنْدَلُسِي أَوْلَى النَّاسِ بِأَنْ يَتَنَاوَلَهُمْ هَذَا الْخَبَرُ، لِجَمْعِهِمْ بَيْنَ مُتَنَاوَلِ اسْمِ الْمَغْرِبِ، وَمُجَاوَرَةِ عَدُوِّهِمْ وَالْكَيْنُونَةِ مَعَهُمْ فِي بِسَاطٍ وَاحِدٍ، فَتَأَمَّلْ هَذَا كُلَّه وَاعْتَبِرْهُ، كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُعْتَبَرَ قَوْلُهُ ﷺ : «رَأْسُ الْكُفْرِ قِبَلَ الْمَشْرِقِ»[177] وَقَوْلُهُ : «وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ» فَيَا شَدَّ مَا لَحِقَ الْمُسْلِمِينَ وَالإِسْلاَمَ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ[178]، قَالَ ﷺ : «هُنَالِكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[179] وَأَمَّا أَهْلُ صُقْعِنَا الأَنْدَلُسِي فَمُسْتَطْلِعُونَ بَرَكَاتِ إِعْلاَمِهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : «لاَيَزَالُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَاتِيَ أَمْرُ آللَّهِ» وَخَبَرُ التُّرْكِ وَقِتَالُهُمْ وَمَا كَانَ مِنْهُمْ مِمَّا شَاهَدَ أَمْرَهُ وَمُعْظَمَهُ أَهْلُ وَقْتِنَا هَذَا، وَنَحْنُ شَاهَدْنَا الْخَبَرَ وِفْقَ مَا كَانَ عِنْدَنَا وَقِبَلَنَا مِنَ الْخَبَرِ.

وَمِنْهَا الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ عَنْهُ ﷺ فِي أَمْرِ بَغْدَادَ وَإِنْ كَانَ مَعْلُولاً، قَالَ : «تُبْنَى مَدِينَةٌ بَيْنَ دِجْلَةَ وَدُجَيْلٍ وَقُطْرَبَل وَالْهَرَاةِ، تُجْبَى إِلَيْهَا خَزَائِنُ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِهَا»[180] يَعْنِي بَغْدَادَ، وَقَدْ بُنِيَتْ / وَجُبِيَتْ إِلَيْهَا خَزَائِنُ الأَرْضِ وَخُسِفَ بِهَا، 49ظ.

(176) يشير المؤلف إلى المعركة الحاسمة التي جرت في عين جالوت سنة 658هـ وهزم فيها التتر هزيمة منكرة.

(177) هو في صحيح مسلم عن ابن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال : رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشمس وروى بلفظ آخر.

(178) هذا تعليق لابن الزبير، وهو يدل على معرفته بالحوادث التاريخية.

(179) تقدم ذكره.

(180) عقد الحافظ الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد باباً أورد فيه الحديث المذكور بروايات متعددة وأردفه بباب آخر في ذكر علله. انظر تاريخ بغداد 1 : 27 — 38.

وَفِي هَذَا الْقَدْرِ كِفَايَةٌ بِحَسَبِ ٱلْحَاجَةِ، لأَنَّ هَذَا الضَّرْبَ كَثِيرٌ، فَلْنَأْخُذْ فِي الضَّرْبِ الثَّانِي مِمَّا يَعْضِدُ مَا قَصَدْنَاهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا نُورِدُهُ فِي هَذَا الضَّرْبِ قَدْ أُنجِز أَكْثَرُهُ فِيمَا تَقَدَّمَ، وَلَكِنْ نُجَرِّدُهُ هُنَا وَنَخْتَصِرُ الإِيرَادَ بِحَسَبِ مَا اسْتَدْعَاهُ بِنَاؤُنَا، فَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ التِّرمِذِي : «إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ وَمُصِيبُونَ وَمَفْتُوحٌ لَكُمْ» الحَدِيثُ بِتَمَامِهِ[181]. وَقَدْ تَقَدَّمَ. وَلَهُ تَعَلُّقٌ بِهَذَا الضَّرْبِ وَبِمَا تَقَدَّمَ، وَمِنْ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أَخصُّ بِهَذَا الضَّرْبِ حَدِيثُ مُسْلِمِ الْمُتَقَدِّمُ : «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا ٱللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ ٱللَّهُ، قَالَ فَقَالَ نَافِعٌ يَاجَابِرُ لاَ تَرَى الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّى تُفْتَحَ الرُّومُ» فَحَصَلَ مِنْ نَصِّ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ غَزْوَ الرُّومِ مُتَأَخِّرٌ عَنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ قَبْلُ، ثُمَّ إِنَّهُ وَرَدَ مَسْبُوقاً بِثُمَّ وَمُقْتَضَاهَا التَّرتِيبُ وَالْمُهْلَةُ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا أَخصُّ بِهَذَا الضَّرْبِ وَمُتَأَخِّراً عَنْ أَحَادِيثِ الضَّرْبِ قَبْلَهُ، لِمَا ذَكَرْنَاهُ، وَلِمَا عُلِمَ مِنْ تَوَارُدِ الأَخْبَارِ بِاتِّصَالِ هَذَا الْفَتْحِ الْعَظِيمِ عِنْدَ انْتِهَائِهِ الْغَايَةَ الْمَضْرُوبَةَ بِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَةِ، بِظُهُورِ الدَّجَّالِ وَنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَإِذْذَاكَ تَنْقَطِعُ عِبَادَةُ الصَّلِيبِ، وَيُتِمُّ اللَّهُ / ظُهُورَ الإِسْلاَمِ عَلَى كُلِّ الأَدْيَانِ، وَلَيْسَتِ الأَحَادِيثُ فِي الضَّرْبِ قَبْلَهُ مَنُوطَةً بِالدَّجَّالِ ولاَ رُوِيَ ذَلِكَ فِي خَبَرٍ، فَتَرْتِيبُ كِيَانِهَا وَوُجُودِهَا إِنَّمَا هُوَ بِتَأَخُرِ مَا فِي هَذَا الضَّرْبِ مِمَّا يَخُصُّهُ عَنْهَا، هَذَا مَا يُعْطِيهِ سِيَاقُ الأَحَادِيثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ. 50و

الْبَابُ الثَّالِثُ فِي شَوَاهِدِ الإِعْتِبَارِ، الْمُنتَزَعَةِ مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ وَصَحِيحِ الآثَارِ :

أَقُولُ وَأَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ وَالْعَوْنَ : إِنَّهُ لاَ يُمْكِنُ اخْتِلاَفٌ البَتَّةَ، فِي أَنَّ حَالَ نَبِيِّنَا ﷺ فِي رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ عَامٌّ لأُمَّتِهِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، غَيْرُ خَاصٍّ بِمَنْ عَاصَرَهُ، وَهَذَا مِمَّا لاَ سَبِيلَ إِلَى تَوَهُّمِ خِلاَفِهِ، بَلْ لَوْ قِيلَ إِنَّ إِشْفَاقَهُ لِمَنْ تَأَخَّرَ مِنْ أُمَّتِهِ وَلَمْ يُشَاهِدْ أَيَّامَهُ الْمُتَكَاثِفَةَ الْبَرَاهِينَ أَكْثَرُ لَكَانَ قَوْلاً [صَحِيحاً]

(181) راجع الحديث في كتاب الفتن من سنن الترمذي.

وَيَشْهَدُ لَهُ غَيْرُ حَدِيثٍ، كَقَوْلِهِ ﷺ فِي مَنْ لَمْ يَاتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِهِ «وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا»(182)، فَتَمَنَّى عَلَيْهِ السَّلاَمُ رُؤْيَتَهُمْ، وَقِيلَ لَهُ ﷺ : «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ آمَنَ بِكَ وَلَمْ يَرَكَ، وَصَدَّقَكَ وَلَمْ يَرَكَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أُوْلَئِكَ إِخْوَانُنَا أُوْلَئِكَ مَعَنَا، طُوبَى لَهُمْ طُوبَى لَهُمْ طُوبَى لَهُمْ»(183) وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنْ أَبِي / هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ قَالَ : «مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حُبّاً لِي نَاسٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِمَالِهِ وَأَهْلِهِ»(184) خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ، قُلْتُ : وَالْوَارِدُ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ، وَهُوَ شَاهِدٌ لِمَا قَدَّمْنَا وَالأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ، فَإِذَا دَعَا عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِشَيْءٍ يَعُودُ عَلَى أَتْبَاعِهِ بِخَيْرٍ، فَأَوَّلُ أُمَّتِهِ فِي ذَلِكَ وَآخِرُهُمْ سَوَاءٌ، فِي تَعْمِيمِ الْخَيْرِ لَهُمْ وَسُرُورِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِمَا يَفْتَحُ ٱللَّهُ عَلَى آخِرِهِمْ كَسُرُورِهِ بِمَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى أَوَّلِهِم هَذَا مَا لاَ إِشْكَالَ فِيهِ، بَلْ لِلْخَوَاتِمِ خُصُوصُ تَأْكِيدٍ، فَبِهَا اسْتِقْرَارُ الأَحْكَامِ وَكَمَالُ ثُبُوتِهَا، وَلاَ يُحْمَدُ أَمْرٌ خَاتِمَتُهُ مَذْمُومَةٌ، وَمِنَ الْحِكَمِ الشَّرْعِيَةِ، الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِمِ ، فَلَوْ كَانَ خِتَامُ أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ ظُهُورَ عَدُوِّهَا عَلَيْهَا لَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْ آيَاتٍ وَأَحَادِيثَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهَا مَا تَيَسَّرَ، وَلاَ يَكْمُلُ مَعْنَاهَا وَيَصِحُّ إِلاَّ بِعَوَاقِبِهَا، وَإِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾(185) أَعْلَمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِعَظِيمِ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ وَإِيَّاهُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ : يَابْنَ الْخَطَّابِ، لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ هَذِهِ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾(185).

50ظ.

وَلأَجْلِ / آنْبِهَامِ أَوَّلِ الأَمْرِ وَمَا كَانَ مِنْ مُصَالَحَةِ قُرَيْشٍ وَإِعْطَائِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِيَّاهُمْ مَا طَلَبُوا حَتَّى أَنِفَ مِنْ بَعْضِهِ مَنْ أَنِفَ وَرَجَعَ الْمُومِنُونَ إِلَى الاِسْتِعْصَامِ بِالدِّينِ وَالتَّسْلِيمِ فِيمَا يُجْرِيهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ، مِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِيهِ، اعْتِمَاداً

51و.

(182) راجع الحديث في الطهارة عند النسائي والزهد عند ابن ماجة والطهارة في الموطأ.

(183) انظر في تخريج هذا الحديث المعجم المفهرس 4 : 70.

(184) الحديث في كتاب الجنة من صحيح مسلم.

(185) سورة الفتح 1.

عَلَى مَا يُثْمِرُهُ التَّصْدِيقُ الْقَاطِعُ وَالْيَقِينُ، فَلإِنْبِهَامِ الأَمْرِ مَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : «أَوَ فَتْحٌ هُوَ» فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ مَا شَيَّدَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَوْضَحَ السَّبِيلَ لِلْمُومِنِينَ، وَأَسْلَمَ عَقِبَ ذَلِكَ الصُّلْحِ، الَّذِي كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَتْحِ، مِنَ النَّاسِ مَا لاَ يُحْصَى كَثْرَةً، وَلَمْ يَسْتَمِرَّ لأَهْلِ مَكَّةَ مَا شَرَطُوهُ، مِمَّا خَافَ ضُعَفَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ، وَلاَ تَمَّ لِلْمُشْرِكِينَ فِيهِ أَمَلٌ، وَلاَ انْتَفَعُوا فِي ضَلاَلِهِمْ بِذَلِكَ الْعَمَلِ، بَلْ سَلَبَهُمْ قُوَّتَهُمْ وَأَيْدَهُمْ، وَأَعَادَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ مَكْرَهُمْ وَكَيْدَهُمْ، وَفَتَحَ مَكَّةَ عَلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، وَانْتَشَرَ الإِسْلاَمُ فِي الآفَاقِ، وَتَوَالَى عَلَى الْكُفْرِ وَأَرْبَابِهِ الْمَحْوُ وَالإِمْحَاقُ، فَكَانَتْ هَذِهِ الآيَاتُ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ أَعْظَمَ بِشَارَةٍ لأُوْلَئِكَ الْعِلْيَةِ الأَعْلاَمِ، مِنْ أَصْحَابِ / [51ظ] نَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَأَقُولُ إِنَّهَا بِعَيْنِهَا بِشَارَةٌ لِمَنْ تَأَخَّرَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ، عَظِيمَةُ الْمَوْقِعِ فِي الأَنَامِ، لِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الاِسْتِيلاَءِ، وَقَهْرِ الْكَفَرَةِ الأَعْدَاءِ، وَأَنَّ الأَمْرَ مُخْتَتَمٌ مِنْ هَذِهِ الْبِشَارَةِ الْجَلِيلَةِ بِمِثْلِ مَا بِهِ ابْتُدِىءَ، لِيَعُمَّ الْخَبَرُ جَمِيعَهُمْ وَيَأْنَسَ مَنْ تَوَسَّطَ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ بِمَا جَرَى مِنْ ذَلِكَ وَمَا يُنْتَظَرُ، إِذِ الْوَعْدُ الْمَقْطُوعُ بِهِ حَاصِلٌ بِهِ التَّأْنِيسُ، وَالْبِشَارَةُ مُطْلَقَةٌ لِكُلِّ الأُمَّةِ، وَلِهَذَا كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَخْتَصُّ بِمُشَاهَدَةِ مَضْمُونِهَا وَمُعَايَنَتِهِ مَنْ شَاءَهُ ٱللَّهُ لِذَلِكَ، فَبَاشَرَ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنْ ذَلِكَ مَا بَاشَرُوا، وَفِي طَيِّ الآيَةِ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعْيِينُ أَوَانٍ، لِمَنْ تَأَخَّرَ عَنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ، **وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حُرُوفَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ وَجَدْتَهَا تُعْطِي مِنَ الْعَدَدِ سِتَّ مِائَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ**(185م)، **وَالْهَمْزَةُ أَلِفَانِ، لأَنَّ الْحَرْفَ الْمُضَعَّفَ حَرْفَانِ، وَتَحْقِيقُ الْهَمْزَةِ بِمَنْزِلَةِ التَّضْعِيفِ، فَقَلْبُهَا هَمْزَةً يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ تَضْعِيفِهَا، فَأَنْبَأَ عَدَدُ هَذِهِ الْحُرُوفِ بِابْتِدَاءِ وَقْتِ الْفَتْحِ الْوَارِدِ فِي الْخَبَرِ الْمَعْرُوفِ، وَهَذَا التَّارِيخُ هُوَ الَّذِي أَخَذَ فِيهِ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ ٱلْبِشَارَةَ الأَخِيرَةَ بِالآيَةِ، وَاخْتَصَّهُ مِنْهُ بِعَظِيمِ هَذِهِ الْعِنَايَةِ / بِالْجِدِّ وَالْعَزْمِ الْمُنَزَّهِ عَنْ** [52و]

(185م) بيان ذلك أن الهمزة المحسوبة بألفين = 2 والنون مضعّفة = 100 والألف = 1 والفاء = 80 والتاء = 400 والحاء = 8 والنون = 50 والألف = 1 واللام = 30 والكاف = 20 والمجموع 692.

كَسَلٍ أَوْ فُتُورٍ، فَعَبَرَ الْبَحْرَ فِي أَشَدِّ أَحْوَالِهِ، وَأَعْظَمِ أَهْوَالِهِ، وَتَلاَطُمِ أَمْوَاجِهِ، وَتَفَارُطِ عُجَاجِهِ، مُخَاطِراً بِذَاتِهِ الْكَرِيمَةِ، ونَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ، مُوثِراً رَضِيَ رَبِّهِ(186)، وَقَدْ سَبَقَتْ لَهُ بَشَائِرُ الأَقْدَارِ بِإِيثَارِهِ لَدَيْهِ وَحُبِّهِ، وَأَبْلَغَ فِي الإِعْذَارِ، وَجَمَعَ بَيْنَ تَأْنِيسِ الْبِشَارَةِ وَتَحْذِيرِ الإِنْذَارِ، وَقَدْ أَفْصَحَ لَهُ الْوُجُودُ، إِلَى أَيْنَ يَا مَنْصُورُ وَأَنْتَ الْمَقْصُودُ، مَا كَانَ غَيْرُكَ لِمِثْلِهَا لِيُعَدَّ وَيُحْمَد، وَأَنْتَ النَّاصِرُ ابْنُ الغَالِبِ بِٱللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَلَيَرَيَن وَلِيُّ عَهْدِكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ الْكَرِيمِ وَجَلِيلَ قَصْدِكَ، فَتُورِثُهُ وَمَنْ إِلَى إِيَالَتِهِ الأَرْضَ، وَيَنَالُ مِن فُتُوحِهَا بِمَيْمُونِ اسْمِهِ الطُّولَ وَالْعَرْضَ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(187) فَكَيْفَ تَرَى أَيُّهَا الْمُعْتَبِرُ الدُّعَاءَ مِنْهُ ﷺ لأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، وَحَذَارِ أَنْ تُوقِفَ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ الأَعْصَارِ، فَدَعْوَتُهُ ﷺ مُطْلَقَةُ التَّعْمِيمِ، لِكُلِّ ذِي فَهْمٍ سَلِيمٍ، فَرُجُوعُ إِمَامِنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي التَّفَاؤُلِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّهْنِئَةِ مَرْجُوٌّ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ عَقِبَهُ لِهَذَا الْخَلَفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ / نَظِيرُ مَا أُعْقِبَ بِهِ لِسَلَفِهِمْ رُجُوعَهُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ(188)، وَإِنْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الأَحْوَالِ، لِبُعْدِ الأَمَدِ وَتَكَاثُفِ السِّنِين، فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي هَذَا الْخَلَفِ : لِلْعَامِلِ مِنْهُمْ أَجْرُ خَمْسِينَ، وَجَلاَلَةُ نِيَّةِ إِمَامِنَا تَحْمِلُ تَقْصِيرَ حَامِنَا وَسَامِنَا، فَإِنَّمَا نُؤَمِّنُ عَلَى دُعَائِهِ، وَنَسْتَمْطِرُ غَيْثَ سَمَائِهِ، وَمِمَّا يَشْهَدُ لِهَذَا الاِعْتِبَارِ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(189) فَتَأَمَّلْ ذِكْرَ التَّقَدُّمِ وَالتَّأَخُّرِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَعْصُومٌ مِنَ الذُّنُوبِ، مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ الْمَآثِمُ وَالْحُوبُ، وَلِهَذَا عُدَّتْ هَذِهِ الآيَةُ مِنْ مُشْكِلِ الْكِتَابِ،

52ظ

(186) ساق هذا الخبر صاحب القرطاس : 383 ــ 384 وذكره ابن خلدون (7 : 448 ــ 449) تحت العنوان التالي : «الخبر عن وفاة ابن الأحمر على السلطان والتقائهما بطنجة».

(187) سورة الأنبياء 105.

(188) يشير إلى قوله تعالى في أهل الحديبية : ﴿لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

(189) سورة الفتح 2.

وَتَأَوَّلَهَا الْمَهَرَةُ مِنْ أُوْلِي الأَلْبَابِ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَا ذُكِرَ فِيهَا مِنَ التَّأْوِيلِ، أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِ أُمَّتِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ سَدِيدٌ، وَلَيْسَ حَذْفُ الْمُضَافِ فِيهِ مِنْ نَمَطِ الْوَارِدِ فِي نَحْوِ قَوْلِ شَاعِرِهِمْ :

قَضَى نَحْبَهُ فِي مُلْتَقَى الْقَوْمِ هَوْبَرُ(190)

يُرِيدُ ابْنَ هَوْبَرَ، لأَنَّ الْمَحْذُوفَ فِي هَذَا الْبَيْتِ لاَ دَلِيلَ عَلَيْهِ، فَضَعُفَ الإِسْتِنَادُ 53و. إِلَيْهِ، أَمَّا الآيَةُ فَقَدْ دَلَّ فِيهَا عَلَى الْمَحْذُوفِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِالْعِصْمَةِ عَنِ الذُّنُوبِ مَوْصُوفٌ، فَهِيَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي قُوَّةِ الدِّلاَلَةِ عَلَى الْمَحْذُوفِ مِنْ نَمَطِ ﴿وَاسْأَلِ / الْقَرْيَةَ﴾ فَإِنَّهَا تَلِي ذَلِكَ النَّمطَ، وَغُفْرَانُهُ تَعَالَى لِمَنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ مِنْ أُمَّتِهِ يَسْتَجِرُّ النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ بِمَعُونَتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ وَهِيَ إِشَارَةٌ لِلْعَوَاقِبِ، وَذَلِكَ شَاهِدٌ لِمُرَادِنَا، فَإِنْ قُلْتَ : أَتَرَى هَذَا الاِعْتِبَارَ يُعَارِضُ مِنْ جِهَةِ اخْتِلاَفِ التَّارِيخِ مَا تَقَدَّمَ اسْتِقْرَاؤُهُ مِنْ سُورَةِ الرُّومِ، فَإِنَّهُ تَقَدَّمَ هُنَاكَ التَّقْيِيدُ لاِبْتِدَاءِ الْخَبَرِ الْمُتَحَدَّثِ بِهِ بِسَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَسِتِّينَ، وَهُنَا بِسَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَتِسْعِينَ، فَالْجَوَابُ أَنَّهُ لاَ تَعَارُضَ بَيْنَ الْمَوْضِعَيْنِ، وَلاَ تَدَافُعَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ، إِذْ تِلْكَ دَوَامُ مُدَّةِ تَغَلُّبِهِمْ ظَافِرِينَ وَمَظْفُوراً بِهِمْ، وَلِكَوْنِ مُحَارَبَتِهِمْ سِجَالاً ثُمَّ يَظْهَرُ فِي الأَكْثَرِ خِلاَفُ الْمُطَّرِدِ، وَقَدْ بُيِّنَ هُنَاكَ، وَأَمَّا هَذَا التَّارِيخُ فَلاِبْتِدَاءِ فَتْحِ بِلاَدِهِمْ وَظُهُورِ أَهْلِ الإِسْلاَمِ عَلَيْهِمْ ظُهُوراً لَمْ يُؤْلَفْ نَظِيرُهُ، فَكُلٌّ مِنَ الآيَتَيْنِ عَاضِدَةٌ لِلأُخْرَى، **فَإِنْ قُلْتَ إِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ الْغَالِبَ بِاللَّهِ الْمُقَدَّسَ الْمَرْحُومَ، أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ يُوسُفَ بْنَ نَصْرٍ، قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَبَرَّدَ ضَرِيحَهُ، قَدْ جَرَى لَهُ فِي الْمَأْمُولِ مِنْ هَذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ وَالْفَتْحِ الْجَسِيمِ أَعْظَمُ آيَةٍ وَأَجَلُّ بُرْهَانٍ، بِمَا أَلْهَمَهُ 53ظ. اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَيْهِ مِنَ ادِّخَارِ الأَطْعِمَةِ وَالأَقْوَاتِ، آخِذاً / فِي ذَلِكَ بِالْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ مُدَّةً مِنْ نَحْوِ عِشْرِينَ سَنَةٍ، حَتَّى مَلأَ بِلاَدَ الأَنْدَلُسِ الْبَاقِيَةَ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ أَطْعِمَةً وَأَقْوَاتاً، ضَاقَ بِهَا سُكْنَى أَهْلِهَا لِكَثْرَةِ ذَلِكَ، وَأَعَدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنَ الأَسْلِحَةِ وَالآلاَتِ الْحَرْبِيَةِ وَالعُدَدِ وَالْمَالِ مَا وُجِدَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَلَوْلاَ**

---

(190) عجز بيت لذي الرمة وصدره : عَشِيَةَ فَرَّ الحَارِثيّونَ بَعْدَمَا.

جَلِيلُ تَدْبِيرِهِ وَتَدْبِيرِ خَلِيفَتِهِ الْمَنْصُورِ أَيَّدَ ٱللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، لَمَا تَأَتَّى لِلْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ مِمَّا هَيَّأَ اللَّهُ لَهُمْ، وَلَنَشِبُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَبِٱلْوَارِدِينَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْتَنْفِرِينَ، ثُمَّ إِنَّ الْغَالِبَ بِٱللَّهِ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ قَدَّسَ ٱللَّهُ رُوحَهُ، تَوَلَّى تَدْبِيرَ أَمْرِ ٱلنَّصَارَى حِينَ انْفِرَادِهِ وَإِشْرَافِ الصُّقْعِ الأَنْدَلُسِي عَلَى التَّلَفِ، بِاسْتِيلاَءِ الْعَدُوِّ عَلَى مُعْظَمِ الْجِهَاتِ وَتَمَرُّدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَتَكَاثُفِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَنُجُومِ ذَوِي النِّفَاقِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ الْمُرْدِيَةِ فِي الْحُصُونِ وَالْقِلاَعِ الْمَانِعَةِ، مُتَهَافِتِينَ عَلَى التَّرَامِي إِلَى النَّصَارَى وَالدُّخُولِ تَحْتَ إِيَّالَتِهِمْ وَتَمْكِينِهِمْ مِنَ ٱلْبِلاَدِ، حِينَ رَأَوْا عَجْزَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ عَنِ مُقَاوَمَةِ ٱلْعَدُوِّ وَضِيقَ نَظَرِهِ عَنْ مُصَانَعَتِهِمْ وَمُدَارَاتِهِمْ، فَتَوَلَّى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ إِلْقَائِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَتَهَافُتِهِمْ عَلَى التَّلَفِ، مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي مُوَافَقَةِ الْعَدُوِّ وَمُدَارَاتِهِ وَأَخْذِهِ بِكُلِّ / جِهَةٍ مِنَ التَّدْبِيرِ ٱلْمُبْقِي لِلرَّمَقِ الإِسْلاَمِي بِهَذَا الصُّقْعِ الْغَرِيبِ، مَا يُمْكِنُ بِهِ بَعْدُ تَدَارُكُهُ وَمُعَالَجَتُهُ، ثُمَّ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ لَهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ انْفِرَادِهِ وَضُعْفِ مَنْ إِلَى إِيَّالَتِهِ وَعَجْزِهِمْ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ لِعَدُوِّهِمْ قِلَّةَ عَدَدٍ وَانْقِطَاعَ مَدَدٍ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِ وَالرُّعْبِ عِنْدَ مَنْ خَالَفَهُ مَا كَانَ يَحْمِلُ أَعْدَاءَهُ عَلَى إِجَابَتِهِ وَالاِنْقِيَادِ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ الْمُبْقِي كَلِمَةَ الإِسْلاَمِ بِهَذَا الصُّقْعِ الْغَرِيبِ، فَكَانَ أَمْرُهُ بِالْجُمْلَةِ عَجَباً مِنَ الْعَجَائِبِ، وَآيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُبَرِ، اعْتِنَاءً مِنَ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ، حَتَّى تَوَقَّفَ طَمَعُ الأَعْدَاءِ فِي مَا كَانُوا يَرُومُونَهُ، وَتَمَشَّتْ الْحَالُ إِلَى أَنْ تَدَارَكَ اللَّهُ بِلُطْفِهِ. (54و)

فَيَقُولُ الْقَائِلُ : هَذَا كُلُّه لِغَرَابَتِهِ وَعَجِيبِ مَا جَرَى فِيهِ حَرِيٌّ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ تَنْبِيهٌ فِي الْكِتَابِ، وَإِعْلاَمٌ لِمَنْ تَفَطَّنَ مِنْ أُولِي الأَلْبَابِ، فَإِنَّهَا مُقَدِّمَةٌ لِمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلاِعْتِبَارِ، وَلاَسِيَمَا مِمَّا تَقَدَّمَ مِنْ إِعْدَادِ الأَقْوَاتِ وَالآلاَتِ وَالاِدِّخَارِ، وَقَدْ كَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خِلاَلَ مَا ذُكِرَ مِنْ مُدَّةِ الاِسْتِعْدَادِ، يَسْتَعْطِفُ كُلَّ مَنْ دَانَى الصُّقْعَ الأَنْدَلُسِي مِنَ الْبِلاَدِ مِنْ كُلِّ مُتَّصِفٍ بِدِينٍ أَوْ مُقَدَّمٍ / فِي شَجَاعَةٍ أَوْ نَجْدَةٍ أَوْ تَدْبِيرِ قَبِيلَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَيَصِلُهُمْ بِٱلإِحْسَانِ وَيَأْخُذُهُمْ بِكُلِّ مَأْخَذٍ، وَيَعِدُهُمْ مُرَغِّباً فِي ٱلْجِهَادِ وَيَحُثُّهُمْ عَلَى التَّأَهُّبِ لَهُ وَالاِسْتِعْدَادِ، حَتَّى تَهَيَّأَتْ (54ظ)

إجَابَتُهُمْ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ، ثُمَّ وَالَى الْوَارِدِينَ مِنْهُمْ مِنَ ٱلإحْسَانِ مَا حَبَّبَ لِمَنْ وَرَاءَهُ الإِنَابَةَ، فَأَسْرَعَ الإِجَابَةَ، فَهَذَا كُلُّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ إِعْلاَمٌ لِذَوِي التَّيَقُّظِ وَالأَفْهَامِ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ قَدَّسَ ٱللَّهُ رُوحَهُ فِي ذَلِكَ تَعَجُّباً مِنَ ادِّخَارِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ، فَجَاوَبَ بِمُنْتَزَعٍ قُرْآنِي، عَنْ جَلِيلِ عَقْدٍ إِيمَانِي، فَقَالَ : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[191] فَكَانَ أَمْرُهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ آيَةً، وَتَدْبِيرُهُ وَمُدَارَاتُهُ وَادِّخَارُهُ إِلْهَاماً مِنَ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ وَعِنَايَةً، فَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ لاَ يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَأَحَالَ عَلَيْهِ مَا أَذْكُرُهُ مِنَ الاعْتِبَارِ، وَذَلِكَ فِيمَا أُعْقِبَ بِهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[192] وَهُوَ آخِرُ وَعْدٍ عَامٍّ وَقَعَ فِي الْكِتَابِ عَلَى التَّرْتِيبِ ٱلَّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ سُوَرُهُ بِالنَّصْرِ الْعَامِّ الصَّرِيحِ وَأَنَّ جُنْدَهُ تَعَالَى هُمُ الْغَالِبُونَ، وَهَذِهِ الآيُ لاَ تَوَقُّفَ فِي عُمُومِهَا / ثُمَّ أُعْقَبَ جَلَّ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ وَهَذَا الْوَعِيدُ وَالتَّهْدِيدُ وَإِنْ كَانَ خَاصّاً بِمُعَاصِرِيهِ ﷺ مِنْ مُعَانِدِيهِ وَأَعْدَائِهِ بِحَسَبِ ظَاهِرِهِ وَعَلَى مَا أَخَذَهُ عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ، فَلِمَنْ تَأَخَّرَ مِنْ مُخَالِفِيهِ وَمُعَانِدِيهِ مَعَ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ مُسَاهَمَةٌ فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ بِمُقْتَضَى آيَاتٍ وَأَحَادِيثَ، وَلاَ يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مُبَيِّناً لِلْحِينِ الْمُتَوَعَّدِ بِهِ مَنْ تَأَخَّرَ مِن عُدَاةِ الأُمَّةِ، وَتَفْسِيراً لِلْمُدَّةِ بِمَا وَرَدَ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مِمَّا أُعْقِبَتْ بِهِ هَذِهِ الآيُ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ، وَمَبْلَغُ الْعَدَدِ الْحَاصِلِ مِنْهَا سِتُّمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ، وَعَقِبَ هَذَا التَّارِيخِ وَهُوَ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ، بُويِعَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ[193] الْمُتَدَارِكُ بِهِ الرَّمَقُ لِهَذَا الصُّقْعِ الأَنْدَلُسِي مِنَ الدِّينِ، فَاعْتَبِرْ هَذَا، وَإِشَارَةُ الآيِ كَمَا ذَكَرْتُ لَكَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْخِتَامُ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضاً وُقُوعُ مُحَصَّلِ الْعَدَدِ الْوَقْتِي بِآخِرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّرْتِيبُ مِنْ جُمْلَةِ آيَاتِ الْكِتَابِ كَمَا أَوْضَحْتُ فِي غَيْرِ هَذَا، وَانْظُرْ خِتَامَ الْجَمِيعِ بِسُورَةِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

55و.

(191) سورة الكهف 82.

(192) سورة الصافات 171 ــ 173.

(193) جاء في نزهة البصائر والأبصار للبنّاهي ما يلي : «بويع له ببلده أرجونة إثر صلاة الجمعة من اليوم السادس والعشرين لشهر رمضان من عام تسعة وعشرين وستمائة».

فَإِنْ قُلْتَ إِنَّ مَا تَعَلَّقْتَ بِهِ فِي هَذَا الْفَصْلِ الأَخِيرِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا / لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيِ الْمُتَضَمِّنَةِ وَعِيدَ الْكُفَّارِ كَمَا أَوْضَحْتُ وَعِيدٌ عَامٌّ، وَإِذَا كَانَ عَلَى مَا حَمَلْته عَلَيْهِ مِنَ الْمَرْجُوِّ لِخَلَفِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ النَّصْرِ والاِسْتِيلاَءِ عَلَى عَدُوِّها، وَمَا عَلَّقْتَ بِذَلِكَ وَرَبَطْتَهُ بِهِ مِنِ اسْتِقْرَاءِ إِشَارَةِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِيمَا بَعْدُ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهَا بِمَا تُعْطِيهِ مِنَ الأَعْدَادِ، إِلَى مَا قَدَّمْتَهُ، فَإِنَّ تَمَامَ صِحَّةِ ذَلِكَ وَكَمَالَهُ أَنْ لَوْ كَانَ الصُّقْعُ الأَنْدَلُسِي هُوَ كُلُّ بِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمْرُ الْمُسْلِمِينَ بِجُمْلَتِهِمْ رَاجِعٌ إِلَى مُتَوَلِّيهِ، وَالْكُلُّ مِنْهُمْ دَاخِلٌ تَحْتَ إِيَالَتِهِ، أَمَّا وَهَذَا الصُّقْعُ لَيسَ كُلَّ بِلاَدِ الإِسْلاَمِ، بَلْ فِي طَرَفٍ مِنْ مَعْمُورِهِمْ، فَكَيْفَ يُقَالُ إِنَّ مَا تَحَصَّلَ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجُوِّ بِهَذَا الطَّرَفِ عَامٌّ لِلْجَمِيعِ، وَسَبَبٌ فِي الاِسْتِيلاَءِ عَلَى كُلِّ مَا بِأَيْدِي عَدُوِّهِمْ، عَلَى الاِنْتِشَارِ وَالاِسْتِيفَاءِ الَّذِي ذَكَرْتَ، وَأَنَّ الْقَائِمَ بِالأَمْرِ بِهِ قَدْ وَقَعَ الإِيمَاءُ إِلَيْهِ كَمَا ذَكَرْتَ. فَالْجَوَابُ أَنَّ بِلاَدَ الرُّومِ عَلَى انْتِشَارِهَا وَتَبَاعُدِ أَطْرَافِهَا وَتَكَاثُفِ بِلاَدِهَا إِنَّمَا تَتَّصِلُ بِبِلاَدِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ طَرَفِيها الشَّامِي وَالأَنْدَلُسِي كَمَا تَقَدَّمَ، وَالجِهَةُ الأَنْدَلُسِيَةُ أَمْكَنُ فِي مُجَاوَرَتِهَا وَأَوْغَلُ فِي الاِتِّصَالِ وَالْقُرْبِ. وَقَدْ بُيِّنَ هَذَا قَبْلُ فَكَانَ الْقُطْرُ الأَنْدَلُسِي / مِنْ حَيْثُ ذُكِرَ هُوَ كُلُّ مَعْمُورِ الإِسْلاَمِ، وَإِذَا كَانَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا فَلاَ تَوَقُّفَ فِي إِمْكَانِ مَا قَدَّمْنَاهُ، ثُمَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ مَا كَانَتِ الْجِهَاتُ وَالأَقَالِيمُ أَحْمَدَ حَالاً فِي الْمَلاَحِظِ الشَّرْعِيَةِ وَالصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ، كَانَتْ أَوْلَى بِالتَّهَمُّمِ الشَّرْعِي بِهَا وَآثَرَ عِنْدَ ذَوِي الاِعْتِنَاءِ الدِّينِي، وَلاَ نَظِيرَ لِلأَنْدَلُسِ فِي هَذَا، وَلاَسِيَّمَا فِي أَجَلِ الْمَطَالِبِ الأُخْرَوِيةِ وَأَعْوَدِهَا بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَهُوَ الْجِهَادُ وَالرِّبَاطُ الَّذِي خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَرْبُوطٌ بِهِ، اعْتِزَازاً فِي الدُّنْيَا وَفَوْزاً فِي الآخِرَةِ، وَإِلَى الْمَوَاطِنِ الْمُتَحَصِّلِ ذَلِكَ فِيهَا، رِحْلَةُ ذَوِي الْجَلاَلَةِ فِي الدِّينِ، فَالصُّقْعُ الأَنْدَلُسِي مُتَنَزِّلٌ فِي هَذَا مَنْزِلَةَ كُلِّ الأَرْضِ، وَالْقَائِمُ بِأَمْرِهِ بِهَذَا النَّظَرِ كَأَنَّ كُلَّ أَهْلِ الإِسْلاَمِ تَحْتَ إِيَالَتِهِ، فَلَهُ التَّقَدُّمُ شَرْعاً وَالرُّتْبَةُ السَّامِيَةُ فِي مُلُوكِ الإِسْلاَمِ، وَإِنَّمَا يُشْكَرُ سَائِرُهُمْ شَرْعاً بِصَرْفِ هِمَمِهِمْ إِلَيْهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالْمَعُونَةِ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُهُمْ، فَإِنَّهُ الْحَافِظُ لأَعْظَمِ ثُغُورِ

55ظ. — 56و.

الإِسْلاَمِ، والذَّابُّ عَنْ حَرِيمِ الدِّينِ بِجُمْلَتِهِ، وَالْمَانِعُ لِلْعَدُوِّ مِنَ الإِطِّلاَعِ عَلَى عَوَرَاتِ الْجِهَاتِ الإِسْلاَمِيَةِ، فَلَهُ الْيَدُ الْعُلْيَا وَالْمَقَامُ الأَسْنَى، فَكَيْفَ يُتَوَقَّفُ فِي إِشَارَةِ الشَّرِيعَةِ / إِلَى مِثْلِ هَذَا وَالاِعْتِنَاءُ الرَّبَّانِي بِأَمْرِهِ، وَقَدْ أَشَارَتِ الشَّرِيعَةُ وَعَرَّفَتْ بِآحَادٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِثْلُ هَذَا الغَنَاءِ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ. 56ظ.

الْبَابُ الرَّابِعُ فِي إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ إِمْكَانِ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّأْوِيل :

أَقُولُ وَأَسْأَلُ اللَّهَ مَعُونَتَهُ : لاَ أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَقُولَ مَنْ قَصُرَ نَظَرُهُ، إِنَّكَ مُعَارَضٌ فِيمَا قَدَّمْتَ، فَإِنَّ كُلَّ مَا اسْتَدْلَلْتَ وَتَعَلَّقْتَ بِهِ مِنَ الآيَاتِ مَقْصُودٌ بِهَا مَا قَدْ ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ، [وَهِيَ] مُرَتَّبَةُ التَّنْزِيلِ عَلَى أَسْبَابٍ مَعْلُومَةٍ، أَمَّا آيُ خَاتِمَةِ الصَّافَّاتِ، فَوَعِيدٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ حَالِهَا مِنْ كُفَّارِ الْعَرَبِ، وَقَدْ مَضَى الْوَعِيدُ وَدَرَجَ الْمَوْعُودُ بِهِ، وَأَمَّا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فَالْمُرَادُ بِهِ فَتْحُ مَكَّةَ وَالإِشَارَةَ إِلَى أَجَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَيَاتِهِ، وَكَذَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ ٱلآيَاتِ، قَدْ قَرَّرَ الْمُفَسِّرُونَ الْمُرَادَ بِهَا، وَتَنَزَّلَتْ مَآخِذُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَأَخْذُكَ الآنَ تِلْكَ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثَ عَلَى مَا أَخَذْتَهُ، وَتَأْوِيلُكَ عَلَى مَا تَأَوَّلْتَهُ، تَحْرِيفٌ لِلتَّأْوِيلِ، وَانْحِرَافٌ عَمَّا تَقَرَّرَ فِي تِلْكَ الآيِ وَالأَحَادِيثِ مِنَ الأَقَاوِيلِ، وَتَفْسِيرٌ لِلْقُرآنِ بِرَأْيِكَ، مَعَ وُقُوفِكَ عَلَى الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ فِي ذَلِكَ وَوَعْيِكَ، فَفِي الْمَأْثُورِ مِنَ الأَخْبَارِ :/ «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» وَجَوَابُهُ : إِنِّي لَمْ أَقُلْ بِرَأْيِي، وَلاَ عَزُبَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْوَعِيدِ عَنْ حِفْظِي وَوَعْيِي، وَلاَ أَنْكَرْتُ مَا ذَكَرْتَ مِنَ الأَسْبَابِ، وَلاَ أَغْفَلْتُ مَا عَلَيْهِ، وَفِيهِ نَزَلَ هَذَا التَّهْدِيدُ. 57و.

وَالْجَوَابُ وَأَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ الإِقْدَامِ عَلَى مَا لاَ نَعْلَمُ، وَالتَّكَلُّمِ بِمَا لاَ نَفْهَمُ، فَاسْتَعِدْ أَيُّهَا الْمُعْتَبِرُ مِنْ قَاصِرِ بَحْثِكَ وَفِتْنَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِعُشِّكَ، فَإِنْ شِئْتَ فَاخْرُجْ، وَإِلاَّ فَادْرُجْ، فَلاَ فَرْقَ فِي تَوْسِعَةِ الْمَنَاطِ فِي الْخَبَرِ الْوَارِدِ لِلإِعْلاَمِ وَالإِخْبَارِ ـــ أَمْراً أَوْ نَهْياً أَوْ تَعْرِيفاً ـــ بِمَشْرُوعِيَةِ الأَحْكَامِ، فَكَمَا لاَ نَقْصِرُ الضَّرْبَ الثَّانِيَ عَلَى سَبَبِهِ، كَذَلِكَ لاَ نَمْنَعُ فِي الأَوَّلِ تَعَدِّيهِ إِعْلاَماً وَتَعْرِيفاً إِلَى غَيْرِ السَّابِقِ مِمَّا عَرَّفَ بِهِ، وَالإِخْبَارُ لَهُ ﷺ إِخْبَارٌ لأُمَّتِهِ وَبِشَارَتُهُ بِشَارَةُ آلِهِ

وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَقْصَى مَا يَلْزَمُنَا فِي مَا أَخَذْنَا بِهِ، ادِّعَاءُ عُمُومِ لَفْظٍ مِثْلُهِ يُعْطِي الْعُمُومَ، أَوْ إِطْلاَقُ عِبَارَةٍ لَمْ يَثْبُتْ تَقْيِيدُهَا بِمَنْطُوقٍ وَلاَ مَفْهُومٍ، وَفِي كِلاَ الأَمْرَيْنِ الْبَقَاءُ وَضْعاً مَعَ الأَصْلِ، فَمَنْ أَنْكَرَ هَذِهِ التَّوْسِعَةَ وَالإِلْحَاقَ فَلْيُبْدِ
57ظ. وَجْهَ الفَصْلِ، وَلَوْ لَمْ تَتَقَعَّدِ الشَّرِيعَةُ عَلَى الإِلْحَاقِ وَالتَّوْسِعَةِ وَالتَّعْمِيمِ / لاَفْتَقَرْنَا فِي كُلِّ قَضِيَةٍ جُزْئِيَةٍ تَقَعُ مِنْ كُلِّ مُكَلَّفٍ أَوْ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى التَّعْيِينِ والتَّفْهِيمِ، بَلْ فِي الْقَضَايَا الشَّرْعِيَةِ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ يَنْعَدِمُ السَّبَبُ وَيَبْقَى الْحُكْمُ الْمُسَبَّبُ، وَهَذَا أَبْعَدُ مِمَّا ارْتَكَبْنَا بَلْ لاَ بُعْدَ فِي ذَلِكَ الْبَتَّةَ، وَفِي هَذَا بُعْدٌ مَّا، وَلَكِنَّهُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، أَلاَ تَرَى أَمْرَهُ ﷺ لأَصْحَابِهِ عِنْدَ تَرَصُّدِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَطَمَعِهِمْ فِي أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُهُ ﷺ قَدْ أَوْهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ، كَمَا قَالُوا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لأَصْحَابِهِ: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَرَاهُمُ مِنْ نَفْسِهِ تَجَلُّداً» أَوْ كَمَا قَالَ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ فِي طَوَافِهِمْ حَتَّى قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، هَؤُلاَءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ حُمَّى يَثْرِبَ قَدْ أَوْهَنَتْهُمْ(194)، ثُمَّ قَدْ ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعِلَّةُ وَبَقِيَ حُكْمُ الإِسْرَاعِ فِي الطَّوَافِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَكَذَا فِي الشَّرِيعَةِ مَا لاَ يُحْصَى كَثْرَةً، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ إِبْقَاءِ لَفْظٍ عَلَى عُمُومِهِ وَإِطْلاَقِهِ، فَإِنْ قِيلَ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتَ وَأَشَرْتَ إِلَيْهِ، إِنَّمَا يُشْبِهُهُ مَا نَزَلَ مِنَ الأَحْكَامِ بِسَبَبٍ خَاصٍّ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ
58و. أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ نُزُولَهُ بِذَلِكَ السَّبَبِ / الْخَاصِّ لاَ يَمْنَعُ مِنْ دَعْوَى الْعُمُومِ فِيهِ، وَهِيَ مِنْ أُمَّهَاتِ مَسَائِلِ أُصُولِ الْفِقْهِ، وَأَمَّا مَا ادَّعَيْتَ هُنَا فَقَدْ يُعَارَضُ بِأَنَّهُ يُشْبِهُ تَعْمِيمَ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ، وَالأَكْثَرُ عَلَى إِنْكَارِهِ، قُلْتُ هَذَا خَطَأٌ وَبَاطِلٌ، فَإِنَّ مَرْجِعَ مَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا هُوَ تَعْمِيمٌ أَوْ إِطْلاَقٌ، وَالأَمْرُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا تَمَهَّدَ، أَمَّا تَعْمِيمُ لَفْظٍ مُشْتَرَكٍ فَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِمَّا ارْتَكَبْنَاهُ بِوَجْهٍ، ثُمَّ لَوْ كَانَ لَمْ يَنْبَغِ أَنْ يُنْكَرَ مُطْلَقاً، وَلَوْ قِيلَ إِنَّ فِي بَعْضِ مَا قَدَّمْنَاهُ مَا قَدْ يُلْحَقُ بِإِشَارَةِ اللَّفْظِ الَّذِي ذَكَرَ أَبُو حَامِدٍ(195)، فَمُرْتَكَبنا فِي الْحُرُوفِ الَّتِي اسْتَقْرَيْنَا

(194) انظر باب كيف كان بدء الرمل من كتاب الحج في صحيح البخاري.

(195) يعني الغزالي، وقد ذكر في المستصفى إشارة اللفظ وقال فيها: «هي ما يوخذ من إشارة اللفظ لا من اللفظ ونعني به ما يتبع اللفظ من غير تجريد قصد إليه فكما أن المتكلم يفهم بإشارته وحركته في أثناء كلامه ما لا يدلُّ عليه نفس اللفظ فيسمى إشارة فكذلك قد يتبع اللفظ ما لم يقصد به ويبنى عليه».

مِنْ أَعْدَادِهَا مَا تَقَدَّمَ، مَعَ جَرْيِ التَّرْكِيبِ عَلَى مَا يَسْتَقِلُّ الْعَرَبِيُّ بِفَهْمِهِ، وَتَقُومُ مِنْهُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَقَعُ إِشَارَةُ الْحُرُوفِ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مُحَصِّلَةً مَقْصُوداً آخَرَ لِلْمُعْتَبِرِ، لَمْ نُنْكِرْ هَذَا مِنْ مُقْتَضَى الْكِتَابِ، وَأَنْ يَجْرِيَ الْخِطَابُ لِطَائِفَةٍ بِمَا يُقْنِعُهَا فِي مَقْصُودِهَا، وَلاَ يَخْرُجُ عَنْ مُتَعَارَفِ مَعْهُودِهَا، وَقَدِ انْجَرَّ طَيَّهُ مُكَالَمَةُ غَيْرِهِمْ وَإِرْغَامُهُمْ، أَلاَ تَرَى أَنَّ ذِكْرَ الْعَوْدَةِ الآخْرَوِيَةِ مَتَى جَرَتْ فِي ٱلْكِتَابِ، فَإِنَّهَا لاَ

58ظ. تَنْفَكُّ الآيُ الْمُعَرِّفَةُ بِهَا عَنْ ذِكْرِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، لِبِنَاءِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ / الأُخْرَوِي مِنَ الْفَلاَسِفَةِ إِنْكَارَهُمْ عَلَى نَفْيِ الْعِلْمِ وَالإِحَاطَةِ بِالْجُزْئِيَاتِ، وَقَدِ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْفِرْقَةُ وَكُفَّارُ الْعَرَبِ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ، إِلاَّ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَبْنِ إِنْكَارَهَا عَلَى مَا بَنَى أُوْلَئِكَ، فَوَرَدَتِ الآيُ بِمُحَاجَّةِ الطَّائِفَتَيْنِ مَعَ اخْتِلاَفِ مَبَانِيهِمَا، فَإِذَا سَمِعَ الْعَرَبِيُّ الْعَاقِلُ الْفَصِيحُ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(196) وَاعْتَبَرَ فَشَهِدَ لَهُ عَقْلُهُ أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ بَدْءُ الخَلْقِ إِلاَّ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَذَلِكَ وَاضِحٌ لِمَنْ عَقَلَ، ثُمَّ نَظَرَ فَرَأَى أَنَّ الْعَوْدَةَ عِنْدَنَا أَيْسَرُ مِنَ الْبَدْأَةِ، إِذْ فِي الْبَدْأَةِ مِنَ الاخْتِرَاعِ مَا لَيْسَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ فِي ٱلْعَوْدَةِ، أَقْنَعَهُ هَذَا دَلِيلاً، وَاكْتَفَى بِهِ مُوضِّحاً سَبِيلاً، وَتَلَقَّى مَا بَعْدُ مِنْ وَصْفِ رَبِّهِ بِالعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ عَلَى أَنَّهُ إِجْلاَلٌ وَتَعْظِيمٌ لِرَبِّهِ، وَوَصْفٌ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَمُنَاسِبٌ لِلإِيجَادِ وَالإِعْدَامِ عَلَى أَحْسَنِ خَلْقٍ وَأَبْدَعِ نِظَامٍ، وَأَمَّا الْمُنْكِرُ مِنَ الْفَلاَسِفَةِ فَيُشَارِكُ الْعَرَبِيَ فِي ابْتِدَاءِ اعْتِبَارِهِ، وَيَتَعَرَّفُ مِمَّا بَعْدُ مُرغِمَ إِنْكَارِهِ، فَالعِزَّةُ مُنْبِئَةٌ عَنِ الْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةُ عَنِ ٱلْعِلْمِ، وَهُمَا الْقَاعِدَتَانِ فِي الإِعَادَةِ وَحَشْرِ الأَجْسَادِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ عَالِمٌ

59و. لاَ يَخْفَى / عَلَيْهِ صَيْرُورَةُ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْعَوَالِمِ حَيْثُ صَارَ وَإِنْ دَقَّ وَخَفِيَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِمَقَرِّهَا وَلاَ يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَلَهُ الْقُدْرَةُ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا، فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ الْمُتَّصِفُ تَعَالَى بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الْعَلِيَتَيْنِ، عَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ إِعَادَةُ الْمَعْدُومِ، وَلَيْسَ كَلاَمُنَا الآنَ مَعَ هَؤُلاَءِ فَنَبْسُطُ الدِّلاَلَةَ، وَإِنَّمَا قَصْدُنَا مِنْهُ أَنَّا لاَ نُنْكِرُ هَذَا الضَّرْبَ مِنْ مَقْصُودِ الْكَلاَمِ، ثُمَّ أُلْحِقُهُ بَعْدُ بِإِشَارَةِ اللَّفْظِ أَوْ

(196) سورة الروم 27.

بِمَا يَرْجِعُ إِلَى الْفَحَاوِي وَالْمَفْهُومَاتِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَلَيْسَ هَذَا وَلاَ شَيْءٌ مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الاِشْتِرَاكِ بِوَجْهٍ، وَلَوْلاَ الطُّولُ لأَوْرَدْتُ مِنْهُ مَا فِيهِ شِفَاءٌ، ثُمَّ إِنَّ مِنْ تِلْكَ الآيِ وَالأَحَادِيثِ، مَا قَدْ تَأَوَّلَهُ جِلَّةٌ مِنْ سَلَفِنَا عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّأْوِيلِ، كَآيَةِ الرُّومِ وَفَتْحِ الرَّدْمِ وَغَيْرِهِمَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ، لَمَا لَزِمَنَا فِي ذَلِكَ دَرَكٌ، لِجَرْيِ مَا أَخَذْنَاهُ عَلَى قَوَانِينِ النَّظَرِ الَّتِي لاَ يَتَوَقَّفُ فِيهَا أَحَدٌ.

«**فَصْلٌ**» اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُتَعَلِّقٍ بِمَفْهُومٍ مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ تَعَالَى أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ادِّعَاءِ حُكْمٍ أَوِ اسْتِنْبَاطِ مَعْنًى أَوْ إِخْبَارٍ بِمَا كَانَ أَوْ يَكُونُ إِلَى مَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا : إِذَا كَانَ فَهْمُهُ لِذَلِكَ جَارِياً عَلَى قَوَانِينِ النَّظَرِ وَمُقْتَضَى / 59ظ. اللِّسَانِ الْعَرَبِي وَمَا تُعْطِيهِ قَوَانِينُهُ وَتُسَلِّمُهُ أُصُولُ الشَّرِيعَةِ، وَلاَ يُعَارِضُ شَيْئاً مِنْهَا لِصِحَّةِ بِنَائِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَأَكَّدَ ذَلِكَ جَرْيُه عَلَى الْمَعْرُوفِ بِمُقْتَضَى اللِّسَانِ الْعَرَبِي وَإِحْرَازِ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ، وَأَنْ لاَ يَخْرُجَ عَمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ، فَمَا كَانَ عَلَى هَذَا، فَلَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الْقَوْلِ، بَلْ هُوَ الاِسْتِنْبَاطُ الْمُثْنَى عَلَى أَهْلِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[197] وَمُسْتَنْبِطُهُ مَأْجُورٌ إِنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ، وَلاَ يَتوقَّفُ فِي ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَتَقَدَّمَهُ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ غَيْرُهُ، وَإِلاَّ لَلَزِم التَّوْقِيفُ فِي كُلِّ جُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ مَقُولاَتِ الْعُلَمَاءِ وَأَنْظَارِهِمْ، وَلاَ يُقَالُ فِي شَيْءٍ مِنَ الإِخْبَارَاتِ مِمَّا سَبِيلُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ، إِنَّهُ غَيْبٌ اسْتَأْثَرَ ٱللَّهُ بِعِلْمِهِ، بَلْ هُوَ مِمَّا أَعْلَمَ سُبْحَانَهُ بِهِ، وَخَصَّ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِفَهْمِهِ وَالاِطِّلاَعِ عَلَيْهِ، فَمَنْ يُسِّرَ لَهُ مِنْ فَهْمِهِ شَيْءٌ وَلَمْ يَخْرُجْ فِي اسْتِقْرَائِهِ عَمَّا تَقَدَّمَ، فَلَيْسَ بِمُتَخَرِّصٍ وَلاَ مُتَقَوِّلٍ، بَلْ هُوَ مُعْتَبِرٌ مُسْتَنْبِطٌ مُثْنًى عَلَيْهِ شَرْعاً إِنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ، فَالإِخْبَارُ بِمَا كَانَ أَوْ يَكُونُ اسْتِقْرَاءً مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ تَعَالَى وَصَحِيحِ الْخَبَرِ شَأْنُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَذَوِي الاِعْتِبَارِ مِنَ الْمُتَوَرِّعِينَ، إِذْ لَيْسَ غَيْباً فِي ٱلْحَقِيقَةِ إِلاَّ / 60و. عِنْدَ مَنْ لَمْ يُفْتَحْ عَلَيْهِ، وَكُلُّ مَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ دَلِيلاً مِنْ كِتَابِهِ أَوْ إِخْبَارِ رَسُولِهِ ﷺ جَلِياً أَوْ خَفِياً، فَلَيْسَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ، وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ

---

(197) سورة النساء 83.

عِنْدَ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ ادِّعَاءُ الاطِّلاَعِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُتَقَدِّمِ، أَوْ عَلَى مَا هُوَ غَيْبٌ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، وَفِي ذَلِكَ سُئِلَ الْقَاضِي الْجَلِيلُ أَبُو الْوَلِيدِ ابْنُ رُشْدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَأَجَابَ بِأَنْ قَالَ، إِنَّ ادِّعَاءَ مُشَارَكَةِ ٱللَّهِ تَعَالَى فِي عِلْمِ غَيْبِهِ وَمَا اسْتَأْثَرَ بِمَعْرِفَتِهِ دُونَ غَيْرِهِ ــ وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ إِلاَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ ــ بِوَاسِطَةِ زَجْرٍ أَوْ تَنْجِيمٍ أَوْ خَطٍّ فِي غُبَارٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ أَوْ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، [وَالتَّصْدِيقَ بِشَيْءٍ مِنْهُ كُفْرٌ] إِلَى آخِرِ كَلاَمِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي النَّوَازِلِ الْمَشْهُورَةِ لَهُ[198]، وَكَلاَمُه فِي ذَلِكَ صَحِيحٌ، وَعَلَيْهِ كَافَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ حَيْثُ الْمُسْتَنَدِ الَّذِي ذَكَرَ، وَالآيَاتُ وَالأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَكَمَا أَجْمَعُوا عَلَى ذَمِّ ما ذُكِرَ مِنْ حَيْثُ ٱلْمُسْتَنَدُ كَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى اسْتِحْسَانِ الْمُسْتَخْرَجِ وَالْمُسْتَنْبَطِ مِنْ كِتَابِ ٱللَّهِ تَعَالَى وَكَلاَمِ رَسُولِهِ الَّذِي لاَ يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى مِمَّا وَرَاءَ اللَّفْظِ مِنَ الْفَحَاوِي وَالإِشَارَاتِ وَدَقَائِقِ الْمَفْهُومَاتِ، وَعَظَّمُوا مَنْ خَصَّهُ ٱللَّهُ بِفَهْمِ ذَلِكَ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ / 60ظ. إِذَا تَقَيَّدَ نَظَرُهُ بِمَا قَدَّمْنَا، وَهَلْ فَاقَ أَهْلُ الْعِلْمِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ بِحَسَبِ مَا مَنَحَهُمُ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَمُرْتَكَبُنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ جَارٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَوْضَحِ سَبِيلٍ، وعَلَى مَا انْتَهَجَهُ الأَئِمَّةُ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾[199] أَنَّ الإِشَارَةَ إِلَى بِلاَدِ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَعَنْهُ أَيْضاً: جَمِيعُ فُتُوحِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَنْهُ أَيْضاً: فَتْحُ قُسْطَنْطِينَةَ وَرُومِيَةَ وَعَمُّورِيَةَ، وَعَنْهُ أَيْضاً: الرُّومُ وَالشَّامُ، ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْمُفَسِّرُونَ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَاتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[200] مَعْنَى الآيَةِ عِنْدِي أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ الأُمَّةَ أَنَّ مَنِ ارْتَدَّ مِنْهَا فَإِنَّهُ يَجِيءُ بِقَوْمٍ يُغْنُونَ عَنْهُمْ وَيَنْصُرُونَ الدِّينَ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَصَحْبُهُ مِمَّنْ صَدَقَ فِيهِمُ الْخَبَرُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ عَلِيٍّ مَعَ الْخَوَارِجِ عِنْدِي[201]، فَأَلْحَقَ ابْنُ عَطِيَّةَ قِصَّةَ عَلِيٍّ مَعَ الْخَوَارِجِ بِقِصَّةِ

(198) فتاوي ابن رشد 1 : 252.

(199) سورة الفتح 21.

(200) سورة المائدة 54.

(201) المحرّر الوجيز 5 : 134.

الصِّدِّيق مَعَ أَهْلِ الرِّدَّةِ، وَجَعَلَ الآيَةَ عَامَّةً، فَاتَّسَعَ الْمُتَنَاوَلُ، وَانْفَرَدَ ابْنُ عَطِيَّةَ بِهَذَا الإِلْحَاقِ، وَهُوَ حَسَنٌ بَيِّنٌ. وَمُطْلَقٌ فِي كُلِّ مَا يَقَعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ مِنَ الْغُيُوبِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ أَيْضاً / فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : 61و.
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[202] الآيَةِ، إِنَّهُ خَبَرٌ عَامُّ اللَّفْظِ فِي الْكُفَّارِ، وَالإِشَارَةُ إِلَى مَخْصُوصِينَ، ثُمَّ تَعَلَّقَ ابْنُ عَطِيَّةَ بِعُمُومِهِ، فَقَالَ بَعْدُ ثُمَّ أَخْبَرَ بِغَلَبَتِهِمْ وَأَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ قَالَ وَهُوَ مِنْ إِخْبَارِ الْقُرْآنِ بِالْغُيُوبِ[203]، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾[204] قَالَ : مَآلُ الآخِرَةِ، قَالَ : وَقَدْ يُرِيدُ مَآلَ الدُّنْيَا بِالظَّفَرِ وَالظُّهُورِ، قَالَ فَفِيهِ إِعْلاَمٌ بِغَيْبٍ، وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِي فِي قَوْلِهِ ﷺ : «وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» قَالَ : لَسْتُ أَعْلَمُ الْيَوْمَ بُقْعَةً لَمْ يَدْخُلْهَا الإِسْلاَمُ إِلاَّ مَا بَيْنَ الْقُسْطَنْطِينَةِ إِلَى بَرْشَلُونَةَ، وَلاَبُدَّ مِنْ تَمَلُّكِهَا[205]، هَذَا مِنْ مَفْهُومِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ صَحِيحٌ، وَذَكَرَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَطِيَّةَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا أَوْرَدُوا مِنْ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْحُرُوفِ الْوَاقِعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ قَوْلَ مَنْ قَالَ هِيَ حِسَابُ أَبِي جَاد، لِتَدُلَّ عَلَى مُدَّةِ مِلَّتِهِ ﷺ، وَقَدْ تَقَدَّمَ اعْتِمَادُ الأُسْتَاذِ الْجَلِيلِ أَبِي زَيْدٍ السُّهَيْلِي عَلَى هَذَا الْمَأْخَذِ، وَتَعْوِيلُهُ عَلَيْهِ، وَعَضَدَهُ بِإِشَارَةِ أَحَادِيثَ وَقَرَائِنَ، وَتَلَقَّاهُ الْجِلَّةُ مِمَّنْ وَقَفَ عَلَيْهِ بِالْقَبُولِ / وَالاِسْتِحْسَانِ فَإِنَّهُ أَحْسَنَ فِيهِ[206]، فَقَدْ حَصَلَ مِنْ هَذَا الْقَدْرِ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ صِحَّةُ مَا اعْتَمَدْنَاهُ وَأَنَّا لَم نَخْرُجْ فِيهِ عَنْ مَا ارْتَكَبَهُ 61ط.

---

(202) سورة الأنفال 36.

(203) المحرر الوجيز 8 : 61.

(204) سورة الانعام 135.

(205) انظر عارضة الأحوذي 9 : 23.

(206) يوجد في الروض الانف مطلب في أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وقد تكلم فيه على ما للحروف الواقعة في أوائل السور من معان جمة وفوائد لطيفة وأشار في آخر كلامه إلى أنه ينوي إفراد جزء يشرح فيه ما أمكن من ذلك قال : «ولعله يكون إن ساعد القدر» الروض الانف 2 : 37 ولست أدري هل يشير ابن الزبير إلى هذا الجزء أم أنه يشير فقط إلى ما ورد في الروض الانف وقد رجعت إلى أوائل السور المشار إليها في كتابه التعريف والاعلام فلم أجد شيئا في الموضوع.

الأَئِمَّة بَلِ الكُلُّ مُجْمِعُونَ عَلَى تَسْلِيمِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْتَمِدْ مِنْهُمْ عَلَى بَعْضِ ذَلِكَ فَلِتَرْجِيحٍ رَآهُ وَظَهَرَ لَهُ لاَ أَنَّهُ يُنْكِرُ ذَلِكَ التعلُّق وَلاَ يُعَارِضُ مَأْخَذُ السُّهَيْلِي وَمَنْ تَقَدَّمَهُ فِي اسْتِدْلاَلِهِ عَلَى بَقَاءِ هذه الأُمَّةِ بِما اسْتَدَلَّ ما أجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمونَ في أَمْرِ السَّاعَةِ فإِنَّهُ لم يدّع عِلْماً بَلْ حَسْبُهُ الظَّنُّ والتَّخْمِينُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذلك، وَالأَمْرُ فِي هَذَا أَبْيَنُ مِنْ أَنْ نُطَوِّلَ بِهِ.

والْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا مَنّ بِهِ وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ والمَزِيدَ مِنْ نَعْمَائِهِ، وَأَنْ يُمِدّ بِالنَّصْرِ والتَّأْيِيدِ والْفَتْحِ الْمُبِينِ مَن اخْتَارَهُ لِهَذَا الْقُطْرِ الْغَرِيبِ وَاينْ يُبَلِّغَهُ آمَالَهُ فِي وَلِيّ عَهْدِهِ وَسَائِرِ الذُّرِّيَّةِ الطَّاهِرَةِ وأَنْ يَجْعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَلْنَخْتِمْ بِالصَّلاَةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ وَإِمامِ الْمُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أَجْمَعِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِنْتَهَى هَذَا الْكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ التَّاسِعِ لِجُمَادَى الأُولَى مِنْ عَامِ خَمْسَةٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَة هـ.

62و.

فهرس الآيات القرآنية

(أ)

ـــ أَتَى أَمْرُ ٱللَّه 86
ـــ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ .... 113،111
ـــ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا 70
ـــ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ .... 51،50
ـــ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلأَرْضِ 51
ـــ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ 49
ـــ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ .... 118،60
ـــ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً .... 108،106،86
ـــ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ 49
ـــ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً 74
ـــ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ 71
ـــ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ 100

(ث)

ـــ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ ٱلَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا 53

(ج)

ـــ جَنَّاتِ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا 53

(خ)

ـــ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً 53

(ذ)

ـ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ 78

(ر)

ـ رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . 46
ـ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ 74
ـ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً 75

(س)

ـ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ .... 90،26

(ع)

ـ عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ 71

(غ)

ـ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ .... 86،50

(ف)

ـ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا 50
ـ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ .... 111،26
ـ فَسَتَعْلَمُونَ .... 59،57
ـ فَسَوْفَ يَاتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ 118
ـ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ 54
ـ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه 86

ـ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِي 79
ـ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي 74
ـ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ 53
ـ فِي بِضْعِ سِنِينَ .... 25،26،50،85،
88،90

(ق)

ـ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا .... 57،59
ـ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . 58
ـ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ 50
ـ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ 60
ـ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ .... 99 ـ 100

(ل)

ـ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ 83
ـ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا 51
ـ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ 116
ـ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .... 88،89
ـ لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً 75
ـ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ 90
ـ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ 101
ـ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ 108

(م)

ـ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ 75
ـ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ 118

(هـ)

ـ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً 90

ـ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُومِنٌ 53

(و)

ـ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ 45

ـ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ 74

ـ وَاجْنُبْنِي وَبَنِي أَنْ نَعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ 74

ـ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا .... 177،56،55

ـ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ 109

ـ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ 45

ـ وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ 75

ـ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .... 97،96

ـ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ 52

ـ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ 51

ـ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا 51

ـ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً 75

ـ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ 59

ـ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا 54

ـ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلأَرْضِ 49

ـ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .... 112،111،26

ـ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ 108،51،50

ـ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُوثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ 71

ـ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً 75

ـ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً 50

ـ وَاللَّهُ وَلِيُّ المُومِنِينَ 70

ـ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .... 23، 111

ـ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ 72

ـ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ 87

ـ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ 115

ـ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ 109

ـ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُومِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ .... 27،81،90

ـ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضَ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُومِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا 78

ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَاتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ 97

ـ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ 54

ـ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ .... 27،91

فهرس الأحاديث

(أ)

ـ إِذَا اسْتَفْتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْراً 76
ـ إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ .... 63،55
ـ أَعُوذُ بِوَجْهِكَ 100
ـ أَنَا أَكْرَمُ عَلَى رَبِّي مِنْ أَنْ أَلْبَثَ تَحْتَ الأَرْضِ أَلْفَ سَنَةٍ 84
ـ الأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي وَإِنَّ النَّاسَ سَيَكْثُرُونَ وَيَقِلُّونَ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ .... 79،73
ـ إِنْ صَلَحَتْ أُمَّتِي فَلَهَا يَوْمٌ وَإِنْ فَسَدَتْ فَلَهَا يَوْمٌ وَالْيَوْمُ أَلْفُ سَنَةٍ 83
ـ إِنَّ الفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ المَشْرِقِ 66
ـ إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ وَمُصِيبُونَ وَمَفْتُوحٌ لَكُمْ .... 105،64
ـ إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا 97
ـ إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِي هَذَا قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ إِلَى صَلاَتِهِمْ 76
ـ أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا أُولَئِكَ مَعَنَا، طُوبَى لَهُمْ طُوبَى لَهُمْ 106

(ت)

ـ تُبْنَى مَدِينَةٌ بَيْنَ دِجْلَةَ وَدُجَيْلٍ وَقُطْرَبُلٍ وَالهَرَاةِ تُجْبَى إِلَيْهَا خَزَائِنُ الأَرْضِ 104
ـ تَغْزُونَ جَزِيرَةَ العَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ ..... 105،80،62،60
ـ تَغْزُونَ فَارِسَ فَتُفْتَحَ عَلَيْكُمْ وَتَغْزُونَ الرُّومَ فَتُفْتَحَ عَلَيْكُمْ 57
ـ تُقَاتِلُونَ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ قَوْماً نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ المُطْرَقَةُ 103

(خ)

ـ خِيَارُ أُمَرَائِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتَدْعُونَ لَهُمْ وَيَدْعُونَ لَكُمْ 93،91

(ر)

ـ رَأْسُ الكُفْرِ قِبَلَ المَشْرِقِ 104
ـ رَحِمَ آللَّهُ امْرَأً أَرَاهُمْ مِنْ نَفْسِهِ تَجَلُّداً 114
ـ الرُّومُ ذَاتُ قُرُونٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ .... 48، 56

(ز)

ـ زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ .... 52، 87

(س)

ـ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بالسَّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِآلْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا 97

(ع)

ـ عَلَيْكُم بِالشَّامِ .... 87، 92

(ف)

ـ فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالإِبْهَام 94

(ق)

ـ قَدْ مَاتَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَه 60
ـ قَضَوا مَا عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ 77

(ك)

ـ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا وُضِعَ تَاجُ كِسْرَى عَلَى رَأْسِكَ 48

ـ كَيْفَ بِكَ إِذَا وُضِعَ تَاجُ كِسْرَى عَلَى رَأْسِكَ 55
ـ كَيْفَ بِكَ إِذَا أُلْبِسْتَ سِوَارَى كِسْرَى 64

(ل)

ـ لاَ إِلاَهَ إِلاَّ آللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَاجُوجَ 95
ـ لاَ. إِمَامُكُم مِنْكُم .... 63،59
ـ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً نِعَالُهُمْ الشَّعَرُ 103
ـ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ المَجَّانُ المُطْرَقَةُ 103
ـ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ 102
ـ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ التُّرْكَ قَوْماً وُجُوهَهُمْ كَالمَجَانِّ المُطْرَقَةِ 103
ـ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلَكُمْ أُمَّةٌ نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ 103
ـ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُومِنٌ وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ آللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ آللَّهُ 72
ـ لاَيَزَالُ أَهْلُ الغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ .... 66،65
ـ لاَيَزَالُ أَهْلُ المَغْرِبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ .... 33،36،66،67، 68،93،104
ـ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَاسْتَعْجَلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي خَبَأْتُ دَعْوَتِي 99
ـ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ آلأَنْصَارِ 72
ـ اللَّهُمَّ اغْفِرْ للأَنْصَارِ وَلِذَرَارِيِّ الأَنْصَارِ وَلِذَرَارِيِّ ذَرَارِيِّهِمْ 72
ـ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ مِنْ أَحَبِّ آلنَّاسِ إِلَيَّ 73
ـ اللَّهُمَّ إِنِّي بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ، فَأَيُّ رَجُلٍ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً 101
ـ اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ 100
ـ اللَّهُمَّ أَيِّدِ الإِسْلاَمَ بِأَبِي الحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ 100
ـ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا، قَالُوا وَفِي شَامِنَا، قَالَ وَفِي شَامِنَا .... 100،101
ـ اللَّهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَهُ .... 55،64
ـ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً أَوْ شِعْباً لَكُنْتُ مَعَ الأَنْصَارِ 73
ـ لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرُءاً مِنَ آلأَنْصَارِ 73

(م)

ـ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حُبّاً لِي نَاسٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِمَالِهِ وَأَهْلِهِ 106

(هـ)

ـ هَاتَانِ أَيْسَرُ 100
ـ هَاتَانِ أَهْوَنُ 100
ـ هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ قَالُوا لاَ إِلاَّ ابْنُ أُخْتٍ لَنَا 73
ـ هُنَالِكَ الزلاَزِلُ وَالفِتَنُ وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ 104

(و)

ـ وَاعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ 73
ـ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ 92
ـ وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ 104
ـ وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا 106
ـ وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا .... 83،82
ـ وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا .... 118،29
ـ وَفِي شَامِنَا 68
ـ وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ 103
ـ وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْماً صِغَارَ الأَعْيُنِ .... 104،103
ـ وِلِذَرَارِيِّ الأَنْصَارِ وَلِمَوَالِي الأَنْصَارِ لاَ أَشُكُّ فِيهِمْ 72
ـ وَيْحَكَ أَوْ وَيْلَكَ، إِنْ لَمْ أَعْدِلْ فَمَنْ يَعْدِلْ 76
ـ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ .... 94،93

(ي)

ـ يَا عَبَّاسُ اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السَّمُرَةِ . 78
ـ يا ابن الخطاب، لقد أنزل علي هذه الليلة سورة 106

فهرس الأشعار

(ب)

ـ عَدُوُّكَ مَقْهورٌ وَحِزْبكَ غَالِبٌ وَأَمْرُكَ مَنْصُورٌ وَسَهْمُكَ صَائِبٌ 20

(ج)

ـ جَزَى اللَّهُ عَنَّا شَيخَنا وإمامنا وَأُسْتَاذنا الحبر الَّذِي عَم فَائِـده 15

(ر)

ـ وَقَدْ قَالَ خَيْرُ العَالَمِينَ مُحَمَّدٌ يَكُونُ لَكُمْ بَعْدِي لَدَى الغَرْبِ مَعْشَرُ 35

ـــــــ قَضَى نَحْبَـــهُ فِــــي مُلْتَقَــــى القَــــوْمِ هَوْبَــــرُ. 109

(ن)

ـ أُودِّعكـم وأودعكـم جنـــاني وأنثر عَبْـــرَتي نثر الجمـــــان 5

(هـ)

ـ هُوَ العِلْمُ لاَ كِالعِلْمِ شَيءٌ تُرَاوِدُهُ لَقَدْ فَازَ بَاغِيهِ وَأُنْجَحَ قَـاصِدُهُ 12

فهرس الأعلام

(أ)

ـــ إبراهيم : 6،9،74.
ـــ إبراهيم الثقفي : 6.
ـــ إبراهيم الفزازي : 13،23.
ـــ أبي بن كعب : 73.
ـــ أثير الدين أبو حيان : 12.
ـــ ابن أحلى : 16، 17.
ـــ أحمد : 6.
ـــ أم أحمد : 6.
ـــ ابن الأحمر : 22.
ـــ ابن الأحوص : 14.
ـــ الأزدي : 13.
ـــ ابن اسحاق : 78.
ـــ بنو اسرائيل : 51، 98.
ـــ إسماعيل : 74، 76.
ـــ ابن اشقيلولة : 13، 14، 23.
ـــ الأعرج : 103.
ـــ الأعمش : 94.
ـــ الافرنج : 97.
ـــ إ.ل. بروفنسال : 10.
ـــ الأموي : 6.
ـــ الأندلسي : 10، 22، 23، 26، 27، 28، 34، 35، 36، 48، 50، 58، 61، 65، 66، 67، 68، 80، 81، 85، 87، 91، 93، 98، 104، 110، 112.
ـــ الأندلسية :
ـــ الأندلسيين : 6، 20، 29، 30، 31.
ـــ أنس بن مالك : 72، 73، 79.
ـــ أبو أيوب الأنصاري : 81.

(ب)

ـــ بُخْتُ نصر : 98.
ـــ البراء بن عازب : 72.
ـــ ابن برجان : 10، 29، 33.
ـــ بشر بن أبي حازم : 103.
ـــ البقني : 13.
ـــ ابن بَكْر : 9.
ـــ أبو بكر : 49، 50، 87، 118.
ـــ أبو بكر بن العربي : 29، 30، 118.
ـــ أبو بكر بن محمد العوني العثماني : 37.
ـــ أبو بكر عتيق بن أحمد الوادي آشي : 24.
ـــ بلج القشيري : 6.

(ت)

ـــ الترك : 94، 96، 103، 104.
ـــ الترمذي : 64، 102.

ـ ثقيف : 6.
ـ ثوبان : 97.

(ج)

ـ جابر : 105.
ـ جابر بن عبد الله : 70.
ـ جبريل : 11، 15، 82، 89.
ـ جرير : 94.
ـ ابن جزي : 9، 11.
ـ أبو جعفر أحمد بن الزبير = أبو جعفر ابن الزبير = أبو جعفر = ابن الزبير.
ـ أبو جهل : 100.
ـ الجويني : 8.
ـ ابن الجياب : 9، 20، 32.

(ح)

ـ بنو حارثة : 70، 71.
ـ حـام : 109.
ـ أبو حامد : 114.
ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان : 95.
ـ ابن حجر : 13.
ـ حذيفة : 94.
ـ الحرالي : 29.
ـ أبو الحسن بن الضائع : 7.
ـ أبو الحسن الشاري السبتي : 8.
ـ أبو الحسن علي : 10.
ـ أبو الحسن علي بن غالب : 16.
ـ أبو الحسن علي بن محمد الخشني الأبذي : 12.
ـ ابن حيان : 11، 13.
ـ أبو حيان : 9، 11، 12، 18.

(خ)

ـ الخراسانيين : 94.
ـ ابن خروف : 10.
ـ الخزرج : 78.
ـ ابن الخطاب : 107.
ـ ابن الخطيب : 6، 7، 9، 13، 14، 18، 19، 21، 23، 24، 25، 28، 32، 35، 37.
ـ الخضر : 75.
ـ ابن خلدون : 31، 33.
ـ الخليل : 15، 74.

(د)

ـ أبو داود : 81.

(ذ)

ـ ذو النون : 15.
ـ ذكوان : 101.

(ر)

ـ ابن رشد : 32.
ـ ابن رشيد السبتي : 18.
ـ رعـل : 102.
ـ الرندي : 9.

ـ ابن روبيل : 9.
ـ الروم : 19، 25، 26، 28، 29، 36، 48، 55، 56، 57، 61، 62، 63، 66، 69، 80، 81، 85، 86، 87، 91، 93، 104، 105، 109، 112، 116، 117.

(ز)

ـ الزبير : 9، 10.
ـ ابن الزبير : 6، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 24، 25، 26، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38.
ـ ابن الزبير الأصغر : 10.
ـ الزبير بن محمد العاصمي : 6.
ـ الزركشي : 11.
ـ زكرياء : 15، 75.
ـ الزمخشري : 28، 57.
ـ أبو الزناد : 103.
ـ زيد بن أرقم : 72.
ـ أبو زيد السهيلي : 29، 33، 118، 119.
ـ الزهري : 95، 103.
ـ زينب بنت أبي سلمة : 95.
ـ زينب بنت أم سلمة : 95.
ـ زينب بنت جحش : 95، 96.

(س)

ـ سام : 108.
ـ ابن سبعين : 30.
ـ ابن أبي السداد : 9.
ـ سراقة : 48، 55، 64.
ـ أبو سعيد : 103.
ـ سعيد بن المسيب : 60، 102.
ـ أبو سعيد الخدري : 103.
ـ سفيان : 96، 103.
ـ أبو سفيان : 78، 95، 101.
ـ أبو سفيان بن حرب : 55.
ـ سفيان بن عيينة : 95.
ـ بنو سلمة : 70، 71.
ـ السهروردي : 8.
ـ سهيل : 103.
ـ السهيلي : 29، 33.
ـ سيبويه : 8، 12.

(ش)

ـ الشاطبي : 13.
ـ الشامي : 36، 80، 112.
ـ الشامية : 28، 61، 88، 92.
ـ شانجه بن اذفونش : 19.
ـ ابن شبرين : 9.
ـ الشلوبين : 12.
ـ ابن شهاب : 95، 102، 103.
ـ الشوذي : 17.
ـ الشوذية : 16، 18.

(ص)

ـ صاعد : 13.
ـ أبو صالح : 106.
ـ صالح بن شريف الرندي : 24.
ـ أم صفية : 95.

(ض)

ـ ابن الضائع : 8، 12.

(ط)

ـ طارق : 81.

(ع)

ـ عاصم بن مسلم : 6.
ـ عاصم : 9.
ـ ابن أبي العاصي : 9.
ـ عامر بن سعد : 97، 99.
ـ أبو العباس أحمد بن فرتون السلمي الفاسي : 8.
ـ ابن عباس : 28، 56، 117.
ـ العباس : 78.
ـ عبد الجليل القصري : 16.
ـ عبد الحي الكتاني : 10، 37.
ـ عبد الله : 6.
ـ أبو عبد الله : 6.
ـ عبد الله أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الجياني : 45.
ـ أبو عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر : 14، 24.
ـ عبد الله بن عباس = ابن عباس.
ـ عبد الله بن مسعود : 64.
ـ أبو عبد الله محمد : 25.
ـ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (مسمغور) : 7.
ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أبي السداد الباهلي : 11.
ـ أبو عبد الله محمد بن يحيى الصدفي العبدري : 8.
ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر : 20، 22، 25، 47، 109.
ـ ابن عبد الملك : 8، 17، 18، 37.
ـ عثمان : 49.
ـ عثمان بن أبي شيبة : 95.
ـ ابن عربي الحاتمي : 30.
ـ عروة بن الزبير : 95.
ـ ابن عطية : 29، 117، 118.
ـ علي :49، 76، 117.
ـ عمر : 48، 49، 55، 64، 76، 100، 106.
ـ ابن عمر : 79.
ـ عمر بن عبد العزيز : 69.
ـ عمرو بن العاصي : 76.
ـ عيسى : 48، 58، 59، 61، 105.
ـ أبو عيسى : 65.
ـ عيسى بن علي بن واصل : 7.

(غ)

ـــ الغزالي : 8.
ـــ الغزنوي : 56، 57.

(ف)

ـــ الفزاري : 15، 16، 32.
ـــ فرعون : 98.

(ق)

ـــ أبو القاسم بن أبي جعفر بن الزبير = ابن الزبير.
ـــ أبو القاسم بن العابد : 24.
ـــ أبو القاسم العزفي : 24.
ـــ ابن القاضي : 9، 10.
ـــ القرطبي : 30.
ـــ قريش : 26، 55، 57، 73، 106، 113، 114.
ـــ قريظة : 56.
ـــ القسطلاني : 18.
ـــ ابن قسي : 30.
ـــ القشتاليون : 20، 22.
ـــ القياصرة : 63، 64.
ـــ قيصر : 52، 63.

(ك)

ـــ كسرى : 48، 52، 55، 63، 64.

(م)

ـــ ماجوج : 30، 67، 94، 96.
ـــ ابن مالك الجياني : 5.
ـــ محمد: 9، 45، 51، 75، 119.
ـــ محمد بن أحمد بن يوسف الهاشمي: 11.
ـــ أبو محمد بن عطية : 119.
ـــ محمد بن محمد (الغالب بالله) : 21، 35، 108.
ـــ محمد الثاني : 19.
ـــ محمد الشيخ : 22، 24، 26.
ـــ محمد عبد الحي الكتاني = عبد الحي الكتاني.
ـــ أبو محمد عبد العظيم بن الشيخ : 14.
ـــ محمد الفقيه : 21، 24، 34.
ـــ ابن المحروق : 9.
ـــ المدني : 25.
ـــ ابن المديني : 66.
ـــ ابن المرابط : 24.
ـــ المراكشي : 32.
ـــ ابن المرحل : 8، 9، 24، 35.
ـــ أبو مروان اليحانسي : 14.
ـــ بنو مرين : 35.
ـــ المريني : 34، 35.
ـــ المرينيون : 35.
ـــ مسلم : 15، 60، 66، 70، 73، 102، 103، 105، 106.
ـــ مسيلمة الكذاب : 50.
ـــ المصرية : 104.

ـ ابن مطرف الجذامي : 17، 20.
ـ بنو معاوية : 97.
ـ المغربي : 35.
ـ المقري : 9.
ـ المهدي : 28، 30، 49، 61، 82.
ـ موسى : 75.
ـ موسى بن نصير : 81.

(ن)

ـ نافع : 105.
ـ نافع بن عتبة : 60، 63.
ـ النجاشي : 64.
ـ النسائي : 77.
ـ ابن نصر : 18.
ـ بنو نصر : 13، 17، 35.
ـ النصري : 24، 25، 35.
ـ النصريون : 21، 23، 34.
ـ النظير : 56.
ـ النوبة : 97.

(هـ)

ـ هاجر : 76.
ـ هرقل : 55، 64.
ـ أبو هريرة : 60، 63، 100، 103، 106.
ـ الهنود : 97.
ـ ابن هوبر : 109.
ـ هولاكو : 5.

(و)

ـ أبو وائل : 94.
ـ ابن أبي واطيل : 30.
ـ أبو الوليد الباجي : 11.
ـ أبو الوليد بن رشد : 114.

(ي)

ـ ياجوج : 30، 67، 94، 96.
ـ أبو يحيى عبد الرحمن بن عبد المنعم (ابن الفرس) : 7.
ـ يحيئ اللبلي : 29.
ـ يعقوب : 35.
ـ اليمني : 25.
ـ يونس : 95، 103.

فهرس الأماكن

(أ)

ـ الأسكوريال : 13.
ـ أشبونة : 80، 97.
ـ إشبيلية : 7.
ـ اصبهان : 82.
ـ أوربا : 31.
ـ الأندلس : 5، 6، 7، 8، 9، 10، 12، 16، 19، 20، 21، 22، 24، 27، 28، 31، 34، 35، 36، 54، 65، 68، 69، 70، 80، 81، 86، 92، 93، 110، 111، 112.

(ب)

ـ باب لد : 62.
ـ البحر الرومي : 68.
ـ البحر الكبير : 68.
ـ بخارى : 5.
ـ برشلونة : 29، 118.
ـ بصرى : 102، 103.
ـ بغداد : 5، 99، 104.
ـ بلخ : 5.
ـ بيت المقدس : 29، 87، 89.

(ت)

ـ تونس : 11.

(ج)

ـ جزيرة العرب : 60، 105.
ـ الجزيرة الخضراء : 9.
ـ جيان : 5، 6، 7.

(ح)

ـ الحجاز : 102.
ـ الحديبية : 108.
ـ الحرة : 72.
ـ حنين : 78.

(خ)

ـ خراسان : 5، 67.
ـ الخزانة الحسنية : 36.
ـ خيبر : 56.

(د)

ـ دجلة : 104.

ـــ دجيل : 104.
ـــ دمشق : 5، 104.
ـــ الديلم : 94.

(ر)

ـــ الردم : 116.
ـــ رومة : 21، 28، 30، 31، 56، 61، 80، 117.

(س)

ـــ سبتة : 8، 9.
ـــ السد : 97.
ـــ سمرقند : 5.
ـــ سيحون : 5.

(ش)

ـــ الشام : 5، 27، 28، 49، 51، 54، 56، 61، 62، 63، 66، 68، 69، 80، 81، 82، 86، 87، 92، 93، 104، 117.

(ط)

ـ الطائف : 56.
ـــ طنجة : 34، 97.

(ع)

ـــ العالية : 97.
ـــ العراق : 54، 66، 103، 104.
ـــ العراقين : 55، 103.
ـــ العقاب : 5.
ـــ عكة : 27، 92.
ـــ عمورية : 117.

(غ)

ـــ غرناطة : 5، 6، 7، 8، 9، 11، 12، 13، 14، 15، 22، 24، 32.

(ف)

فارس : 26، 48، 55، 56، 57، 60، 61، 62، 87، 90، 96، 105، 117.

(ق)

ـــ القاهرة : 13.
ـــ قرطبة : 6، 7.
ـــ قريش : 90، 113.
ـــ القسطنطينة : 81، 118.
ـــ القسطنطينية : 20، 27، 28، 30، 31، 47، 48، 61، 65، 80، 81، 93، 105.
ـــ قطربل : 104.
ـــ قيجاطة : 19، 20.

(م)

ـــ مالقة : 8، 9، 11، 12، 13، 14، 15،
23، 24.

ـــ المدينة : 86، 100.

ـــ المشرق : 5، 8، 9، 10، 66، 67.

ـــ مصر : 10، 12، 54، 104.

ـــ المغرب : 7، 8، 9، 16، 20، 24، 32، 34، 55، 60، 66، 67، 68، 80، 93، 104.

ـــ مكـــة : 49، 56، 82، 86، 107، 99، 113، 114.

(ن)

ـــ نيسابور : 5.

(هـ)

ـــ الهراة : 104.

(ي)

ـــ يثرب : 114.

ـــ اليرموك : 86.

ـــ اليمامة : 50.

ـــ اليونان : 13.

فهرس الموضوعات

مقدّمة المحقّق .... 5 -44

ديباجة الكتاب .... 45 -48

الفصل الأول ويشتمل على بابين .... 48 -50

الباب الأول في الأدلة القرآنية .... 50 -60

الباب الثاني في أدلة السنّة .... 60 -65

الفصل الثاني ويشتمل على أربعة أبواب .... 65 -65

الباب الأول في فضيلة الصقع الأندلسي .... 65 -70

الباب الثاني في فضيلة الأنصار .... 70 -73

الباب الثالث في أن ما ثبت للسلف مرعى للخلف .. 73 -80

الباب الرابع في أن الأندلس أولى من غيرها بخبر النصر الموعود .... 80 -82

الفصل الثالث وينطوي على باب التمهيد وأربعة أبواب ..... 82 -82

باب التمهيد في مخفيات الشريعة .... 82 -84

الباب الأول في استخراج ما نرومه من كتاب الله سبحانه 84 -95

الباب الثاني في شواهد السنة .... 95 -106

الباب الثالث في شواهد الاعتبار 106-113

الباب الرابع في إقامة الدليل على ما تقدم 113-120



الإيداع القانوني رقم 1992/976


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء